جائزة الكومار الذهبي لأفضل رواية تونسية 2022

عبد الجليل الداهي

الكونسطا

رواية

الطبعة الثالثة

الكاتب: عبد الجليل الشابخي

عنوان الكتاب: **الكونيطا**

خط الغلاف: الفنان سمير بن قويعة

لوحة الغلاف: الرسام رشيد طالبي

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة

ر.د.م.ك: 978 9938-62-064-1

الطبعة الأولى: مارس 2022

الطبعة الثالثة: فيفري 2023



منشورات مسكلياني

تونس: 13 شارع محمد الخامس، المدينة الجديدة 3، تونس

الهاتف: 561936632(971+) أو 93791788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 561936632(971+) أو 501731882(971+)

الوطنُ هو رائحةُ التّراب في يوم الحرث.

(إبراهيم بن الحاج محمّد)

فَلْتَذْهَبْ فرنسا إلى الجحيم... إلّا كريستال فَلْتَذْهَبْ معنا إلى الجنّة.

(الشّيخ حسين)

حدّثني جدّي، قال:

(1)

القطار يسير باتّجاه المشنقة...

هكذا تبدأ الحكاية، وهذا ما يجب عليك الاحتفاظ به في ذهنك وأنت تتابع الأحداث والأشخاص. حَاوِل أن تسير بخيالك على جانب سكّة الحديد الممتدّة فوق السّهول والمرتفعات والأودية، تلك السكّة التي جرحت أرضنا ومشاعرنا. سوف يزعجك صفير القطار وصرير المكابح وأعمدة الدّخان وهي تلوّث السّماء والعيون. وأنا أعتذر منك لأنّني حمّلتك عناء متابعة قطارٍ يحملُ إلى المشنقة شخصًا عزيزًا على قلوبنا.

كنت أتمنّى أن أحدّثك عن الرّبيع الرّائع من تلك السنة، عن الزّهور والأقحوان وشقائق النّعمان الّتي تملأ المزارع والمسالك الفلاحيّة، عن رائحة الصّنوبر وعطر الإكليل وهو يفوح من جبل العنز، عن خرير مياه الوادي الكبير إذ يقسم البادية إلى نصفين، عن نقيق الضّفادع وتغريد الحمام ونور الشّمس البرتقاليّ حين تميل إلى الغروب. كنت أتمنّى أن أبدأ بكلّ ذلك وأكثر، لكنّ حكايتنا شاءت غير هذا المسار، وليست لي القوّة ولا السّلطان على تغيير وجهتها. فلستُ سوى حكواتيّ بسيط أروي لك الحكاية كما علّمني سيّدي ومولايَ صاحب الكلام وكبير الحكواتيّين سي المقدّم.

فجأةً، ومن حيث لا نحتسب، أصبح هو حديثَ القرية بأسرها وصار الجميع يبحثون عنه... فرنسا وجنودُها وخدّامُها من الأهالي، وهبّ كلٌّ من يبحث عن غنيمةٍ يقتفي آثارَهُ من أجل الحصول

على منحة الإمساك به حيًّا. نعم حيًّا، هكذا اشترط الحاكم العسكريّ الفرنسيّ ليكون عبرةً لأمثاله. كانوا يبحثون عنه في كلّ مكانٍ، في جبل العنز، في وادي النّحل، في مقبرة الرّوم، بين المزارع والشّعاب، في كلّ مدخل غارٍ، في كلّ مخرج نفقٍ مظلمٍ... فوق الأرض وتحتها، يبحثون عنه ليلًا ونهارًا وفي جميع الفصول. قالوا إنّه يتلوّن كحرباء ويرى في الظّلام كخفّاشٍ ويهجم كذئبٍ جائعٍ.

فجأةً أصبح الأطفال يتغنّون باسمه وهم يلعبون، وأصبح الشّباب المتمرّد يتمنّى اللّحاق به، حتّى الصّبايا كُنَّ يهمسن باسمه خِلْسَةً وراء الجدران والسّتائر، بل ثمّة من نظَم فيه شعرًا وألقاه في المحافل والأعراس. فجأةً صار ذلك الصّعلوك بطلًا، صار يُقدّم دروسًا في الكفاح والوطنيّة والحقِّ والعدلِ. ولو لم أكن أعرفه لقلتُ لك نزل عليه وحيٌ من السّماء، أو لبسه جنيٌّ صالحٌ، أو ربّما أصابه سحرُ تلك العرّافة التي تتجوّل بين المدن والقرى.

أتصدّقني عندما أقول لك إنّ الرّجل لا يُولَد مرّةً واحدةً؟ أنا واحدٌ من الذين آمنوا بذلك. الرّجل يُولَدُ مرّاتٍ عديدةً قبل أن يموت.

وقد كنت شاهدًا على ولادة الكونبطا الثّانية. ربّما تليها ولادةٌ أخرى ثالثةٌ، لا أعلم، ولكن دعنا الآن نتابع الأحداث كما شاء لها أن تكون.

هي حكاية هذا الرّجل الذي سمّاه أحدُهم مرّةً في حانة سيباستيان «Le Combattant»، فردّد خَلْفَهُ الحاضرون الكونبطا... الكونبطا... ثمّ صفّقوا

جميعًا واقفين ومتحمّسين، حتّى إنّ أولئك السذّج المنتشرين في محطّة القطار كأحجار سكّة الحديد السّوداء ظنّوا أنّه عَيَّرَهُ بها. فردّدوا بدورهم اسم الكونبطا ضاحكين وساخرين. ومنذ ذلك الحين لبسته تلك الكنية كظّله ونسي النّاس اسمه الحقيقيّ.

أنا أيضًا كدتُ أنسى اسمَه الحقيقيَّ، وأظنّكَ كذلك. عندما ننتهي بعد حينٍ من حكايته، لن تتذكّر غير هذه الكنية التي بلغ صداها قلبَ الجبال وعمقَ الأودية وتجاوزت الحدود، هذه الكنية التي جلبت له الخير والشرّ معًا، بل صار هذا الاسم حمّالَ معانٍ ودلالاتٍ كبيرةٍ، وقد فسّره كلّ واحدٍ بالعَيْن التي يراه بها. قال جماعةٌ إنّه «المحارب»، وقال آخرون «المناضل»، وقال بعضهم «المتمرّد»، فيما ظَلّ غيرُهم عاجزًا عن إيجاد معنًى وتفسيرٍ حقيقيَّين يليقان بهذا الاسم. أمّا أنا فقد كنتُ شاهدًا على سقوط كلّ تلك المعاني الصارخة، حتّى إنّني أتساءل أحيانًا بمرارةٍ مُقرفة: أَلَيْسَ اسم الكونبطا وَهْمًا ابتُلِيَتْ به قريتُنا؟ ثمّ أستدرك وأقول: لا، إطلاقًا... الكونبطا حقيقةٌ راسخةٌ كرسوخ جبل العنز فوق هذه البقعة من الأرض.

أتذكّر جيّدًا يومَ جاء به الفرنسيّون في عربة المساجين مقيّدًا بالسلاسل، في القطار القادم من مدينة الكاف والمتّجه إلى العاصمة، قطار العاشرة والنّصف صباحًا. كانت السّاعة النّحاسيّة ذات العقارب الرّومانيّة المعلّقة على واجهة المحطّة ترّن كلّ ساعةٍ، فتُحدِثُ صوتًا كقرع الكنائس. هي أيضًا تشير إلى العاشرة والنصف

صباحًا. وكانت عقاربها موضوعةً على الأرقام باستقامةٍ تامّةٍ. يومها، لم يتأخّر ذلك القطار كعادته، وصل في الموعد وبانضباطٍ شديدٍ، كأنّه جنديٌّ يتقدّم إلى الأمام بعزيمة وملامح قاسيةٍ.

كأنّي بهذا القطار يعلم أنّه يحمل شخصًا مهمًّا داخل عرباته وفوق مكابحه الحديديّة المتناسقة القويّة، المكابح التي تدوس الأرضَ بلا رحمةٍ، غير عابئةٍ بمشاعر الرّاحلين والقادمين والقابعين والمودّعين والباكين على الرّصيف، ولا بمشاعر الذين يأتون إلى المحطّة كلّ يومٍ باحثين عن المفقودين والهاربين والمُلاحَقِين. وحتّى السذّج الذين يقفون في المحطّة لملء فراغهم وهم يُمتّعون أعينهم بمشاهدة القطار يخرق الأرضَ والبصر، ويستمتعون بسماع صفيره والنظر إلى صهاريج دخانه الكثيف وهم مبهوتون ومبهورون. كانوا يومَها في موعدهم هناك، عند العاشرة والنصف صباحًا.

بجانب السّاعة النّحاسية الكبيرة ذات العقارب الرّومانيّة من جهة اليمين عُلّقت لافتةٌ حديديّةٌ مستطيلةُ الشّكل ومدهونةٌ باللّون الأبيض، كُتِبَ عليها باللّغة الفرنسية بلونٍ أزرقَ كُحْليٍّ: «محطّة سيدي بورويس».

كان صاحبُنا في ذلك اليوم واقفًا بثباتٍ في عربة المساجين. كان ينزف لكنّه يبتسم. لم تمنعه السّلاسل من رفع يديه ليُحيّينا من بين القضبان الحديديّة السّميكة. ولا تسألني كيف أمسكوا به وأين حدث ذلك بعد سنوات الغياب والبحث تلك؟ أنا نفسي وإلى يومنا هذا لا أعرف الكثير من

التّفاصيل عن مسألة الإمساك به حيًّا كما أرادوا تمامًا. ولكنّني أتذكّر البلاغَ الذي علّقه الحاكم العسكريّ، السيّد فرانسوا بالاج في كلّ مكانٍ، وقد فعل ذلك إنذارًا لكلّ المتمرّدين والخارجين عن الطّاعة العمياء:

«إبراهيم بن الحاج محمّد، محكومٌ عليه بالإعدام شنقًا لقتله ثلاثةَ جنودٍ فرنسيّين وتفجير الجسر والتّعامل مع العدوّ النّازيّ».

في ما يخصّ مسألة تفجير الجسر الفرنسيّ، غابت عنّي في الحقيقة تفاصيل كثيرةٌ منها. لذا سأحدّثك هنا عن قضيّة قتل الجنود الفرنسيّين الثلاثة في مركز جمع الحبوب. وتكمن أهميّة هذه الحادثة في أنّها جعلت الكونبطا يخرج إلى الجبل وكذا صنعت اسمَه النضاليّ. أمّا ما ظلّ محفورًا في ذاكرتي بعمقٍ فهو قصّتُه مع ذلك الجنديّ النّازيّ الذي سقط من السّماء صدفةً في الكهف فأصبح صديقًا له. كان اسمه «مارك»، وأمّا لقبه فأنا غالبًا ما أنساه، فقد كنّا ننطقه بصعوبةٍ شديدة. ربّما أتذكّره أثناء الحديث. سأروي لك كيف كان ذلك الدبّ الأبيض الضّخم يصعد إلى قمّة جبل العنز ويتدحرج إلى أسفل. كان يرقص فرحًا حين يندف الثّلج، فإذا تعب، وقف مفتوحَ اليدَين كطائرٍ يتهيّأ للهبوط على الأرض ويبدأ في تحديد جهات الدّنيا الأربع ثمّ ينظر باتّجاه الشمال ويقول: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السّوداء». كانت بينه وبين الكونبطا أمورٌ كثيرةٌ عرفتُ منها أشياء وأشياء أخرى ظلّت غامضة.

في ذاك اليوم عندما وقفتُ في محطّة القطار،

كنت أعلم جيّدًا أنّ الكونبطا سيُشنَق بالعاصمة أو ربّما يُرمى بالرّصاص. كان المعدِمون على درجةٍ كبيرةٍ من الرّحمة. إذ غالبًا ما يعطون المحكوم عليه بالإعدام فرصةً أخيرةً للاختيار بين الشّنق أو الرّمي بالرّصاص. والحقّ أنّي لا أعلم ماذا كان الكونبطا سيختار؟ فكلّ ما كنتُ أعلمه أنّ ذلك اليوم هو آخر يومٍ أراه فيه. لكن كما ذكرت لك، الرّجل لا يولد مرّةً واحدة. يجب أن تتهيّأ لكلّ أمرٍ يحدث عبثًا أو بسببٍ. والكونبطا هو الرّجل الذي اجتمع في حياته السّبب والعبث معًا، كأنّه كائنٌ من واقعنا القريب يتقمّص أسطورةً وقعت أحداثها في عهد غابرٍ.

في ذلك اليوم وقف العمدة منصور فخورًا ومبتسمًا. ابن عمّنا الذي يعترف به الحاكم العسكريّ فرانسوا بالاج بوصفه عمدةً لقريتنا، وقف بجانب سيّده الفرنسيّ رافعًا بندقيّته على كتفه فرحًا بوقوع الكونبطا في الأسر! ذلك الثّعلب الخبيث الخائن... قبل الحادثة بزمنٍ طويل كان بإمكان الكونبطا قتله، لكنّه لم يفعل. كان يقول لي: «إنّه ابن عمّي، الدّم يسري بيني وبينه، لا أستطيع قطع أنفاسه، له أطفالٌ وزوجةٌ». كم مرّة اصطاده كأرنبٍ، لكنّه يتوسّل ككلّ مرّة ذليلًا وباكيًا فيتركه يرحل. في الحقيقة، أغلبُ أهل القرية لا يعترفون بمنصور الطبّال عمدةً، بل إنّ قربه من الفرنسيّين وإخلاصَه لهم هو ما جعله يتحصّل على هذا المنصب.

صفّر القطار وتعالى دخانُه ثمّ انطلق باتّجاه العاصمة. كانت الرّحلة ستستغرق خمس ساعاتٍ

تقريبًا. في كلّ محطّةٍ سَيُعرَضُ الكونبطا عبرةً لكلّ متمرّدٍ. في كلّ محطّة سيرفَع الكونبطا يدَيْه ويبتسم رغم أنّه ينزف ويشتم الفرنسيّين بلغته الفاحشة، في كلّ محطّة سيقول للنّاس إنّه عائدٌ إلى جبل العنز، في كلّ محطّة سيخبر النّاس بأنّه في الصّيف القادم سيتزوّج زهرة حبّ حياته، في كلّ محطّةٍ سيغنّي إحدى أغنياته الثّلاث التي كان يردّدها دائمًا، وفي كلّ محطّة سيأتي أولئك السذّج لتزجية أوقات فراغهم بمشاهدة هذا القطار الخارق للأرض ولن يعنيهم أبدًا أنّه يحمل مناضلًا إلى المشنقة.

عندما استأنف القطار سيره، كانت العقارب الرّومانيّة الذّهبيّة لتلك السّاعة النّحاسيّة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا. استغرق ذلك العرض نصف ساعةٍ كانت كافيةً لإبهارنا وترهيبنا. وكان أغلبنا يهتف بتلك الجملة في سرّه، بإيمانٍ يسكن القلوب ويقوى من يومٍ إلى آخر، إيمانٍ له براهينه: «إنّ فرنسا قويّةٌ وجبّارةٌ». تلك الجملة ردّدها السذّج في العلن وأمام الجميع وهم ينصرفون خائفين ومرعوبين. لقد انصرفوا للجلوس تحت شجرة اليوكاليبتوس الكبيرة التي تقع في شارع المحطّة على يسار مقهى شعبان، حتّى إذا تعبوا انصرفوا للنّوم تحت سور المقبرة إلى حدود الرّابعة بعد الزّوال موعدِ قدوم القطار من العاصمة نحو مدينة الكاف.

اختفت آخرُ عربةٍ وتلاشى الدّخان في السّماء الصّافية الجميلة. كنّا وقتَها في بداية الرّبيع، سنابل القمح بدأت تكبر وأشجار اللّوز صارت بيضاء

فاتحةً. وانتشر الأقحوان وشقائق النّعمان في المزارع والحقول. كان كُلُّ شيءٍ جميلًا وخلّابًا. لكنّ تلك الحادثة هزّت القرية وجعلتها تلبس لحافًا أسود. فالشعور بالهزيمة كان ممزوجًا بذُلٍّ مقرفٍ يسيطر على أرواحنا وأجسادنا. كان لنا صيتٌ بين المدن والقرى الأخرى، إذ انتشر خبرُ الكونبطا حتّى حدود الجزائر حيث يتجمّع المناضلون سِرًّا وينفّذون عمليّاتٍ متفرّقةً ضدّ معسكرات المحتلّ.

فجأةً خمدَتْ تلك النّار المتوهّجة بعد أن التهمَتْ كلّ شيء جميلٍ فينا. ولم تترك لنا إلّا رمادًا ناعمًا نكمّد به جراحنا حين تنزف. بعد رحيله، رافقتنا ذكراه وحكايته التي ظَلّ كلٌّ واحدٍ منّا يرويها بشكلٍ مختلف. وبقي لنا الكهفُ الذي كان يختبئ فيه عند جبل العنز. وقد صار بعده كمقام وليٍّ صالحٍ. كنّا نسمّيه «غار الذّئب». يزور النّاس الغارَ ويقولون «من هنا بدأ الكونبطا». لكنّهم لم يتصوّروا تلك النهاية التي آل إليها ولم يفكّروا فيها مجرّد تفكير. فالكونبطا عندَهم ما يزال يركب حصانه الأسود ذا الغرّة البيضاء، رافعًا بندقيّته ويركض نحو أرض المعركة.

أمّا أنا فقد أصابني حدثُ القبض عليه في العمق كسهمٍ ساخنٍ ومسموم، أطلقته يدٌ خائنة، سهمٍ لا يحترم شرفَ المعركة ولا يظهر علنًا كالرّجال. بقيتُ واقفًا في المحطّة أمشّط لحيتي بأصابع يدي اليمنى، ويدي اليسرى ممدّدةٌ على صدري. أتحسّس خَفَقَانَ قلبي الذي ينفطر حزنًا ولوعةً على فراقه، واقفًا هناك كمسمارٍ أصابَه الصّدأ أو كعمود كهرباء خشبيٍّ لا يضيء.

في ذلك اليوم شعرت بالخجل من نفسي.. كان يجب عليّ أن أفعل شيئًا. لكن ماذا سأفعل بالضّبط؟ سألت نفسي بخجلٍ مقرفٍ، وعجزٍ مُدمِّر. لو أنّ الكونبطا مكاني لما كان للأمر أن يمرّ بهذه البساطة. كان سيصيح ويعربد ويضرب القطار بالحجارة أو بقضيبٍ حديديٍّ أو بأيّ شيءٍ آخر حادٍّ وجارح، بل حتّى بالرّصاص إن اقتضى الأمر. كان سيجري ويقفز بداخله، يلعن ويسبّ وينطق بكلامه الفاحش ككلّ مرّةٍ يغضب فيها، يهدّد بقتل فرنسا وأمّ فرنسا والذي صنعها ووضعها على الأرض، ويُقدِم على أفعالٍ متوحّشةٍ لن أكون قادرًا على تصوّرها.

الحقّ أنّي لا أملك جرأة الكونبطا المفرطة جدًّا في التّعامل مع الأحداث. بل أقول لك بخجلٍ ملعونٍ إنّي لا أملك حتّى القليل منها. ولطالما كنتُ أسأل: من أين يأتي بتلك القوّة في العراك؟ من أين له ذلك اللّسان السّليط؟ كان يزأر كأسدٍ فوق القمّة فتتبوّل الثّعالب في المنحدرات. يقف بوجه العاصفة ويفتح صدره للرّعد، حتّى إذا نزلت الصّاعقة جرى نحوها غير مُبَالٍ. كنت أخشى عليه من نفسه، من دماغه الصّلب، من تهوّره المفرط واللّامحدود، من ردّ فعله الذي لا يخشى العواقب، ومن خيانة الحظّ الذي لن يكون في كلّ مرّةٍ إلى جانبه.

ولكن في عمق ذلك الرّجل الخشن الشّرس يسكن فنّانٌ نائمٌ يستيقظ في لحظات الصفاء النّادرة. كانت الأغنية التي يردّدها كونبا عندما تضيق به الدّنيا وهو يجوب الجبل هي: «هِزّ عْيُونَكْ

رَاهُمْ شَبُّو فِيَّا... هِزّ عْيُونَكْ رَاهُمْ شَبُّو فِيَّا مْبَارْكَه يَا لُوخَيَّه»... كان يغنّيها وهو ممدّدٌ، ثمّ يعزف نايه ذا الخمسة ثقوب. وحين يملّها يغنّي «لَيَّامْ كِيفْ الرِّيحْ فِي البَرِّيمَه.. شَرْقِي وغَرْبِي مَايْدُومِشْ دِيمَا». كان لصوته الأجشّ صدًى ينفذ إلى القلب مباشرةً فتدمع العينان، ولحنجرته الذهبيّة لحنٌ تخشع له الآذان. وحين يكون منتشيًا يغنّي «صَبّ الرَّشْرَاشْ وِالنَّوّ غْزِيرَهْ... حَمَّة مَاجَاشْ يَا لْعَالِي جِيبَه»، وغالبًا ما يردّد كلماتها وهو يرقص.

كنتُ أخشى عليه من الخونة أمثال العمدة منصور، من العملاء والجواسيس الذين باعوا الأرض والشّرف بثمنٍ بخس، أولئك الذين يهبون الطيّورَ الجارحةَ لحمَ رجالهم على طبقٍ من ذهب. وكان مستاءً من استسلام الأهالي الباهت كنعاجٍ.. يقول لي: «انظر إلى هؤلاء الأغبياء والحمقى الذين صدّقوا أكذوبة الحماية». وعندما يجلس في حانة سيباستيان، يرفع كأسه عاليًا وهو يهدر كجَملٍ: «لمّا غزا حنّبعل الفينيقيّ روما، تبوّل على أرض فرنسا ثمّ مرّ، لأنّه لم يجد فيها غير الثّعالب!».

أظنّه قال الثّعالبَ، لأنّ الدّيك الفرنسيّ لم تبضه الدّجاجة بعدُ في ذلك الوقت، أو ربّما كان مجرّد كتكوتٍ صغيرٍ منتوف الرّيش.

تقع حانةُ سيباستيان التي كان الكونبطا يرتادها خلف محطّة القطار مباشرةً. وهي بنايةٌ قرميديّة السقف، أبوابُها خشبيّةٌ كبيرةٌ تفتح على اليمين وعلى اليسار. كان بجانبها على اليمين كشك ماريا المالطيّة. وكانت ماريا تسكن هناك، في الشّارع

نفسه. ويقع بيتُها المتكوّن من طابقين قبل حقول الزيتون. وهي زوجةُ سيموني الإيطاليّ الذي وجدوه في أحد الأيّام جثّةً هامدةً ملقاةً على سكّة الحديد. وسيموني هو تاجرُ أقمشةٍ وعطورٍ وقهوةٍ في الظّاهر، أمّا في الخفاء فقد كان تاجرَ أسلحةٍ ومُهرّبَ آثارٍ وأشياء أخرى كثيرةً. وتجارة الأسلحة هي التي جعلته يلتقي الكونبطا.

يُقال إنّ الضّابط الفرنسيّ الذي كنّا نسمّيه «السوفاج» هو مَنْ قتَلَهُ. وماريا شابّة جميلةٌ وطيّبةٌ أحبّت القرية وتعلّمت اللّهجة التونسيّة وصارت واحدةً منّا.. أبواها يهوديّان من جزيرة مالطا. وخالُها ميشال تاجرٌ كبيرٌ وصديقُ شعبان صاحب المقهى. كان يتردّد على القرية لزيارتها من حينٍ إلى آخر. وقد عرضَ عليها أكثر من مرّةٍ مغادرة القرية للعيش في العاصمة، لكنّها رفضت ذلك حتّى بعد مقتل زوجها.

كانت الحانة وكشك ماريا على الطّريق الرئيسيّة القادمة من مدينة السّرس، وكانت تلك الطريق تشقّ قريتنا بالطّول محاذيةً سكّة الحديد تمامًا، لتمرّ عبر مدينة سوق الثلاثاء إلى العاصمة. ثمّ عُبِّدَت وأصبح اسمُها «شارع المحطّة»، وزُرعت على أطرافها أشجار السّرو واليوكاليبتوس يمينًا وشمالًا. قبل ذلك كنّا نزرع سياج الهندي والصبّار. وقد قلنا أوّلَ الأمر: ماذا نفعل بهذه الأشجار التي لا تنتج لا حبّةً ولا ثمرةً؟! ثمّ اكتشفنا أنّ شكل القرية بوجود تلك الأشجار أصبح أجملَ بكثيرٍ من ذي قبل.

كنّا مجرّدَ قريةٍ تتبرّز على نفسها وتنام في

مؤخّرة الكرة الأرضيّة. فجاءنا القطار من العاصمة ليمرّ عبرنا إلى مدينة الكاف، بل ليعبر إلى الجزائر وينتهي في الدّار البيضاء على المحيط الأطلسيّ. كنّا مجرّدَ قريةٍ منسيّةٍ فربَطنا القطار بالعالم وجعل لنا اسمًا على الخارطة.

قرية «سيدي بورويس» كانت مجرّد قبرٍ لرجلٍ يقال إنّه صالحٌ، فأصبحت اسمًا لمحطّةٍ ومدينة. لقد وهبت المحطّةُ اسمَها كلَّ جديدٍ وقديمٍ، كالصّيدلية وعددًا من المحلّات الأخرى كقصابة عمّار ومخبزة حمزة ومحلّ حمدة التّارزي ويونس الخضّار وعليّ الحلّاق وبقالة عثمان. حتّى شعبان صاحب معصرة الزّيتون فتح محلًّا كبيرًا وجميلًا في آخر الشّارع على اليمين وسمّاه «مقهى المحطّة». أمّا مكتب «البريد والبرق والهاتف» فقد شُيّد قبالة المحطّة تمامًا، وبجواره ستفتتح السيّدة كريستال زوجة المعمّر بودان محلَّ تمريض فيما بعد. كريستال... تلك السيّدة التي كانت تشرق كلّ صباحٍ على المدينة، وحين تغيب يُمسي كلّ شيءٍ مُظلمًا وحزينًا. سأحدّثكَ عن تلك الزّهرة حين أنتهي من القرف ويحين الوقت الطيّب، حين أكنس الحكاية من الدّماء والجثث، حين يهبّ نسيم جبل العنز الممزوج برائحة الصّنوبر والإكليل، حين تميل الشّمس قليلًا نحو الغرب وترسم لوحتها البرتقاليّة في السّماء، حين تتجمّع الطيور فوق أشجار السّرو واليوكاليبتوس مغنّيةً كورال المساء، وحين يتّسع صدري لذلك وتهدأ دقّات قلبي. إنّ صدري الآن يضيق... يضيق ويختنق بهذا القطار الذي يحمل الكونبطا إلى المشنقة. فللحكاية

أَلَمَانِ، ألمٌ حين نعيشها، وألمٌ حين نرويها. وألمُ روايتها أشدّ تدميرًا وأنكى للنّفس المسكونة بالحنين.

السيّدة كريستال هي زوجة السيّد بودان، المعمّر الذي سيّج مقبرةَ الرّوم وعيّن عليها حارسَيْن بالاتّفاق مع الحاكم العسكريّ، ونحن نسمّي اليوم تلك المقبرة بـ«الآثار الرّومانيّة». وقد كان السيّد بودان في الحقيقة محترمًا ومتواضعًا ويتّسم بشيءٍ من اللّين واللّطف في معاملاته مع الأهالي، ليس كصاحب الحانة المعمّر سيباستيان، ذلك الجشع المقرف.

أذكر لمّا قرّر الحاكم العسكري السيّد «فرانسوا بالاج» غلق المسجد، هدّده الشّيخ حسين أمام النّاس رافعًا عصاه وهو يقول: «أيّها السيّد، يمكنك أن تأخذ أرضنا وبحرنا وسماءنا وحتّى هواءنا النّقي… استنشقه كما شئت مجّانًا وبلا مقابلٍ وما تبقّى منه املأه في بالوناتٍ بلاستيكيّةٍ واعصف به جوًّا في اتّجاه فرنسا… سنشعر نحن بالاختناق، لكن هذا لا يهمّ، المهمّ أن يتنفّس الفرنسيّون بطلاقةٍ وحرّيّة… خذ ما شئت أيّها الحاكم، خذه بإرادتنا المكسورة أو غصبًا، هذا أيضًا لايهمّ… املأ أنتَ صدرك بالأكسيجين لتحيا، وسنملأ نحن صدورَنا بالصبر لنستمرّ… أيّها الحاكم، خذ ما شئت…إلّا الدّين فهو لنا». ثمّ ضرب عصاه على الأرض حتّى كادت تتكسّر لولا أنّها منحوتة من خشب الزّيتون. وزيتون وطني لا يتكسّر ولا يموت. ضربها أرضًا حتّى تناثر التّراب والحصى… في تلك اللّحظة انتابني شعورٌ بأنّ السيّد بالاج سيأخذ

مسدّسَه ويطلق رصاصةً في جبين الشّيخ حسين أو صدره، لكنّ ذلك التوقّع تبدّد حين تدخّل السيّد بودان وهدّأ الأمر، ثمّ أعاد فتح المسجد وأمر بتسييجه ودهنه على نفقته الخاصّة. بعد ذلك، طلبنا منه تشييد صومعة له، ففعل. كان يومًا جميلًا لمّا سمعنا صدى الأذان بالعرض والطول في كلّ أرجاء القرية. تسمعه حتّى وأنت نائمٌ في أدغال جبل العنز أو تسبح في أعماق «وادي تاسة». وصارت فرحتنا أكبر في شهر رمضان عندما تُنَارُ أضواء الصّومعة معلنةً عن وقت الإفطار. حين رأينا أنوار الصومعة تتلألأ في السماء، صحنا: «الله أكبر، لقد صارت لنا مدينةٌ». وردّدنا تلك الجملة التي كنّا نقولها في سِرّنا دومًا: «إنّ فرنسا قويّةٌ وجبّارةٌ!». أمّا الشّيخ حسين فكان يقول: «ذلك الكافر رجلٌ طيّبٌ». ويقصد السيّد بودان.

«هل فرنسا عدوٌّ أم صديقٌ؟!»، تساءل بعضُنا في سرّه.

أنت أيضًا يمكنك أن تسأل السؤال نفسه. اسأل، واحتفظ بالإجابة لنفسك.

السيّد بودان لم يفعل ما فعَل حُبًّا في الله أو فينا، بل كان يحتاج إلى ذاك الأمان والسّلم لخدمة أرضه، أقصد أرضنا التي تحصّل عليها مجّانًا وبلا مقابل.

كان الشّيخ حسين يشرف على المدرسة القرآنيّة ومدرسة اللّغة العربيّة، وهما قسمان داخل المسجد. أمّا المدرسة النظاميّة الوحيدة فكانت بمدينة الكاف ويرتادها عددٌ قليلٌ جدًّا من الشبّان الميسورين. فيما بعد فتحت السيّدة

كريستال المدرسةَ الفرنسيّةَ، وهي نفسها التي هيّأت حديقةَ المتوسّط وأنشأت بداخلها المكتبة العموميّة. كان ذلك وراء مكتب «البريد والبرق والهاتف»، غير بعيدٍ عن محطّة القطار. وصار كلّ شيء متوفّرًا، قريبًا ومنظّمًا.

أنا والكونبطا تعلّمنا القراءةَ والكتابةَ في المسجد عند الشّيخ حسين. ثمّ دخلنا المدرسة الفرنسيّة بمدينة الكاف، لكنّه لم يكمل تعليمه بها، فاختارته مدرسة الحياة. بعد ذلك أصبح يتردّد على حانة سيباستيان، ولم يغادرها إلّا عندما حصلت حادثة قتل الجنود الفرنسيّين الثلاثة. في الحقيقة كان جرحُ الكونبطا الوحيدُ وضعفُه الذي لا يبوح به هو العلم. كان أذكانا وأسرعنا في تلقّف الكلمات وتحويلها إلى نسيجٍ من الجمل، غير أنّ نداء الحياة كان أسرع.

ذاك القطار الّذي وصلنا بالعالم ووهب لقريتنا اسمًا على الخريطة، القطار الذي جلب لنا الحياة والسّعادة، هو نفسه الذي يحمل الآن إلى الموت بطلًا عزيزًا علينا. سيُحاكَم علنًا في العاصمة. سيضعون غطاءً أسود على رأسه وينتهي أمرُه ككلّ الذين سبقوه. فمنذ أحداثِ سنةِ 1938، قرّر المقيم العامّ الفرنسيّ، الحاكم الفعليّ في البلاد، أنّ كلّ حادثة قتلٍ أو تمرّدٍ ستنتهي بإعدام مرتكبها أمام العامّة، لأنّ الأوضاع في أوروبا بدأت تتأزّم وفرنسا تريد مسك شمال إفريقيا بيدٍ حديديّةٍ حتّى تتفرّغ لحربها القادمة ضدّ الألمان.

لم تكن للباي التونسيّ سلطةٌ فعليّةٌ، لاسيّما في المناطق الداخليّة كحال قريتنا. كلّ ما نعرفه

وقتها أنّنا دخلنا عصر الحماية. أمّا التفاصيل فكنتُ أجهلها. هل باعنا الأتراك، أم بعنا أنفسنا؟ لم أكن معهم حين أُمْضِيت كلّ تلك المعاهدات. والتاريخ هنا لا يعنيني بتاتًا. فكلّ ما يهمّني الآن وهنا هو حكاية هذا الإنسان الذي تعلّم عواء الذّئاب ورقص الثّعابين، شقيقي في التّراب: الكونبطا... كونبا، كما يناديه كلّ المقرّبين منه، أو كما يصف نفسَهُ عندما يضرب على صدره ويصيح: «أنا الكونبا.. أنا الكوبرا».

بقيتُ هناك في المحطّة أفكّر: بمَ أحدّث أُمَّهُ دادا صالحة؟؟ تلك المرأة الصامدة التي كانت كلَّ يوم تنتظر عودته. مات زوجها، سيدي عبد الله، إثر انفجار لغمٍ وهو يحرث حقله بحماره. قبل تلك الحادثة، لم نكن نعلم أنّ فرنسا زرعت ألغامًا في أرضنا. وبعد ذلك الانفجار المرعب، مات سيدي عبد الله في الحين، أمّا الحمار فبُتِرت قائمتاه الخلفيّتان وبقي هناك ملقًى على الأرض ينزف. ولمّا انتهينا من دفن الجثّة، كما أمرنا الشّيخ حسين الذي قال إنّ سيدي عبد الله هو شهيد الأرض، وقفتُ عند مدخل المقبرة وتركتُ كونبا وحيدًا جالسًا أمام قبر أبيه. جَلَس على ركبتيه يقضم عودَ زيتون أخضر بأسنانه، وهو صامتٌ. وكأنّه كان يفكّر في قضم ذلك اللّغم الذي قتل أباه أو في قضم فرنسا بأكملها... ينهشها بأنيابه وهي تصرخ أمامه وتتوسّل طلبًا للرّحمة. كان يشعر بالغيظ، وقد طغى على حزنه إحساسُ بالضّعف. عندما قلت له: كونبا أنا ذاهبٌ، رفع يده اليمنى وظلّ مطأطئًا. كان يقول لي: اذهب الآن.

وكنت أعلم أنّه يرغب في البكاء. لم أرَه قطُّ يبكي أمام أحدٍ... ولن يفعل ذلك.

تركت كونبا يذرف دموعَ ضعفه وقهره فوق قبر أبيه.. يذرفها في الخفاء كدموعٍ محرّمةٍ ومسمومةٍ. كنت متأكّدًا من أنّ سُمّ الانتقام قد تمكّن من أعماقه، ومن أنّه يُقسم سرًّا بكلّ المقدّسات والمحرّمات أنّه سينتقم. تركته وقصدت ذلك المكان الذي بقي فيه الحمار مرميًّا فوق التّراب ينزف. حاولت سدّ الجروح بالرّماد وأوراق الأشجار ثمّ وضعت أمامه ماءً وتبنًا بعد أن رميت على قائمتَيه الخلفيّتين المبتورتَين غطاءً من الصّوف. كان يرتجف ورأسه ممدّدٌ على التراب، يحاول رفعَه إلى فوق لكنّه يسقط كلّما حاول فعل ذلك. لكأنّه كان يريد أن ينهض وينتظر أوامر سيدي عبد الله، ينتظر ذلك الصوت الخشن... إلى الأمام، سِرْ... إلى اليمين، دُرْ... إلى اليسار، قِفْ... اصعد.. انزل. لم يعلم المسكين ما حدث بالضبط! كنتُ أقول لنفسي ليتني أقدر على الهمس في أذنَيه وإخباره بأنّ سيدي عبد الله مات ولن يسمع صوته الخشن وهو يلقي عليه الأوامر. كان ذلك الحمار مطيعًا وخبيرًا بدروب الثّنايا وحرث الأرض، صبورًا وأمينًا... وكان رفيق سيدي عبد الله حتّى ذلك اليوم الخريفيّ الحزين.

فكّرتُ في جرّه إلى البيت، لكنّ جراحَه مازالت طريّةً ونازفةً. فقرّرت تركه حتّى يتوقّف النّزيف.

عُدت إلى البيت أجرّ المحراث الذي بقي وحيدًا وسليمًا... كان محراثًا بيدَيْن خشبيّتين وسكّة حديدٍ صلبةٍ. عندما وضعته أمام بيت دادا صالحة ازداد

نحيبها وهي تتحسّس المقابض الخشبيّة كأنّها تبحث عن بصمات زوجها ورائحته. ولمّا رفعَتْ رأسها ونظرَتْ في عينيّ علمت أنّها تريد أن تقول: وأين الحمار؟ ولكنّني لذتُ بالصّمت.

تلك هي حكاية سيدي عبد الله، الرجل الذي ترك المحراث وحيدًا! وترك كونبا مثل المحراث وفي قلبه ثأرٌ وقَسَم! ولن يعنيه أبدًا إن اعتذر الحاكم العسكريّ أم لم يعتذر! لقد قرّر، ثمّ سطّر، ثمّ نفّذ...

كنت أقول لك إنّني فكّرت كيف سأخبر دادا صالحة بأنّ ابنها الأصغر وحبيب قلبها سيُعدَم قريبًا في العاصمة! عجزت عن إخبارها بموت الحمار، فكيف سأخبرها بأنّ أمرَ الإعدام صدر وعُلِّق وقُضِي أمرُه... والقطار يسير... يسير بثباتٍ وبلا تأخيرٍ في اتّجاه المشنقة؟! ماذا سأقول لتلك المسكينة التي تكالبت عليها المصائب؟ دفنت زوجَها، وقبل ذلك بسنتَين حملت باخرةُ الموت ابنَها الأكبر إلى مرسيليا، ابنها الذي وقع تجنيده إجباريًّا مثل شُبّانٍ آخرين كثيرين لمحاربة الألمان.

عمّار صاحب «مجزرة المحطّة» بَتَرَ ذراعَ ابنه الأكبر مسعود حتّى لا يقع تجنيده والرمي به في باخرة الموت! كان يقول: «أقطع ذراع ابني أفضل من أن تقطع فرنسا عنقه!».

ثمّ فكّرت أنّ عليّ أن أتحدّث قبل ذلك مع الشّيخ حسين في مسألة تنظيم جنازة الكونبطا ودفنه وتلك التّفاصيل الأخرى المقرفة التي لا نحبّ عادةً الخوض فيها. سيأتي جثمان الكونبطا في القطار الذي يعود من العاصمة على السّاعة

الرابعة بعد الظّهر ككلّ يوم. وستشهد على ذلك العقارب الرّومانية لتلك الساعة النحاسية! ستعلن عن توقيت عودة جثّته بكلّ ثبات. وسيكون أولئك السذّج هناك في الموعد لمشاهدة القطار القادم من العاصمة! سيكونون مبهورين ومبهوتين كعادتهم! وسيردّدون تلك الجملة المهترئة: «إنّ فرنسا قويّة وجبّارة!».

كم سننتظر حتّى تأتينا تلك الجثّة؟! أسبوعًا.. شهرًا.. موسمًا!؟ لا أعلم بالضّبط. في كلّ الأحوال سيكون لنا ما يكفي من الوقت لتنظيم موكب الدّفن! وما يكفي من الوقت لنحزن! وما يكفي من الصّبر لنخسر رجالًا آخرين من قريتنا! لكن، وفي كلّ الأحوال لن يكون لدادا صالحة ما يكفي من الدّموع لتبكي!

(2)

لقد قُسِّمت الأرض بالعدل!

قُسِّمت بالعدل بين المعمِّرَيْن السيِّد بودان والسيِّد سيباستيان!

لمّا عَيّن المقيمُ العامّ الفرنسيّ السيّدَ فرانسوا بالاج حاكمًا عسكريًّا على قريتنا، -وقد جعل منها، كما وصفت لك، مدينةً جميلةً ومنظّمةً بعد تعيينه بأشهرٍ قليلة- تحصّل المعمّر سيباستيان على كلّ الأراضي التي تمتدّ غربَ وادي تاسة حتّى جبل العنز. تبدأ تلك الأراضي من دوّار أولاد الرويسي مرورًا بدوّار أولاد عمّار، ثمّ دوّارنا نحن أولاد بن الحاج محمّد، فدوّار أولاد بولعراس، وتنتهي بدوّار أولاد البوحلي حيث الطريق الرئيسيّة التي تصل إلى الكاف. كانت كلّ تلك الدواوير تتشارك في هنشير عين عاشور. أمّا الأراضي التي تمتدّ من طرف وادي تاسة الشّرقيّ حتّى قرية سوق الثلاثاء فتحصّل عليها المعمّر بودان. وهي تبدأ من دوّار أولاد الراجحي، ثمّ أولاد الشريف، فأولاد بوبكر، وتنتهي بدوّار أولاد سليط حيث الطريق الرئيسيّة التي تصل إلى مدينة باجة. كلّ تلك الدواوير كانت تتشارك في هنشير جبل بوكحيل.

نحن نعيش على سهلٍ كبيرٍ يقسمه الوادي الكبير إلى نصفين بالعدل كما شاءت الطبيعة! هو سهل يحاصره جبلان، جبل العنز غربًا وجبل بوكحيل شرقًا، أرضه خصبةٌ ومياهه عذبةٌ ويطيب فيه المقام. حتّى الحبّة التي تسقط من منقار الطّائر تصير سنبلةً فيما بعد! إنّه سهل تطرق فيه

السعادةُ بابَكَ كلّ فجرٍ وأنت نائم... يُغْري العابرين لأرضنا وكذا الغزاة! فكان هذه المرّة من نصيب المعمّرين الفرنسيّين!

حين مَدَّ المالكان الجديدان الطرقاتِ الفلاحيّةَ وزرعَا على أطرافها أشجار السّرو واليوكاليبتوس، صارت باديتُنا شبيهةً تمامًا ببادية مقاطعة توسكانا الإيطاليّة التي كانت مصدرَ إلهام ذلك السّاحر ليوناردو دافينشي. بل كان يمكن لباديتنا أن تكون أجمل بكثيرٍ لو أنّها وجدت من يرسمها ويكشف عن مفاتنها المكنونة! فغالبًا ما يزداد جمال المدن وإشعاعها بما تُغدِقه عليها أقلام فنّانيها وريشاتهم من إبداعاتٍ ولمسات.

لا يزعج هذه الأرض الطيّبة المباركة غير أولئك السذّج الذين يدوسونها بأقدامهم المقرفة! أقول هذا وأنا أشعر بالخجل والاشمئزاز! الأرض غنيّةٌ والإنسان فقيرٌ! فياله من عارٍ!!

بعد ذلك التّقسيم الذي حقّق العدلَ للفرنسيّين وجلب الظّلم لنا نحن أصحاب الأرض، أصبحنا فجأةً عمّالًا في أراضينا بمقابلٍ بسيطٍ جدًّا! أصبحنا مجرّد أقنانٍ أشبه ما يكونون بالعبيد.. أو «الزوفريّين» كما كان أسيادنا المعمّرون ينادوننا! البعض الآخر صار خمّاسًا في رزقه! توجد بعض الاستثناءات البسيطة، إذ حافظ البعض على حقول الزيتون مثلًا وعددٍ قليلٍ من المواشي.

يومَ صادرت الحكومة العسكريّة «هنشير عين عاشور» وسلّمته للمعمّر سيباستيان، علمنا أنّنا قد مسّنا الضرّ وأُصِبنَا في الصّميم! كنّا نزرع ثُلُثَي الأراضي قمحًا وشعيرًا وعلفًا، ونترك الثّلثَ الباقي

مرعًى للماشية من موسم الخريف حتّى نهاية الرّبيع عندما يبدأ موسم الحصاد. دعني أبسّط لك الأمر: كانت حكومة الاحتلال تنوي تجويعَنا لإجبارنا على العمل لدى المعمّرين مقابل قوتنا اليوميّ! وكانت مشكلة المعمّرين الأولى هي إيجاد اليد العاملة! وإذ لم يعد لمواشينا مراعٍ، نفق بعضُها وبعنا ما بقي منها على قيد الحياة بأثمانٍ زهيدةٍ جدًّا. ثمّ وقفنا في طوابير طويلةٍ أذلّاء للتسجيل في قائمة «الزوفريّين»! قائمة العمّال المقهورين والمُجْبَرِين على ذلك الشّغل المُهِين!

أنشأ السيّد بودان الفيرمة الفلاحيّة وشيّد في وسطها فيلّا كبيرةً بطابقين سقفُها قرميديٌّ أحمر. وبدأ يشتغل على تربية الأبقار الحلوب. أمّا الأراضي الخصبة والشّاسعة فتركها على حالها للزراعات الكبرى كالقمح والشّعير والعلف أو ما تتطلّبه السّوق الفرنسيّة أحيانًا كالفول والبازلّاء والبطاطا والثّوم والبصل.

أمّا سيباستيان فَزَرَعَ الكرومَ على طول الأرض التي تمتدّ تحت جبل العنز. ثمّ فتح بعد ذلك الحانةَ بجانب محطّة القطار، وخلف ديوان الحبوب من الجهة المقابلة للمحطّة شيّد معصرة الخمور! تلك المعصرة التي لم يتمكّن من تشغيلها بعد أن حُرِقَتْ ليلًا مرّتين! فقرّر نقلَ محصول العنب إلى الوطن القبليّ حيث توجد كبرى معاصر النّبيذ والخمور.

جَمَعَنَا الشّيخ حسين يومًا قربَ ضريح الوليّ الصالح «سيدي بورويس». وكان الوقت ليلًا وكنّا نبني الخيام للاحتفال بالزّردة... وكان الضريح

يتوسّط المقبرة تمامًا، ضريح ضخم لُفَّ بعلمٍ أخضر داخل بنايةٍ كبيرةٍ تشبه مسجدًا دون صومعة، مفروش بسجاجيد مختلفة الألوان، وعلى الأبواب والنوافذ تمتدّ ستائر خضراء وحمراء. الوليّ الصالح ميّتٌ وتحيط ببنايته الكبيرة أشجار السّرو من كلّ الجهات. خلف تلك الأشجار تنتشر قبورٌ أخرى. هي أيضًا مختلفة الألوان والأشكال. ثمّة قبورٌ مسطّحةٌ سُوِّيت بالأرض لا تكاد تُرَى، نبتت فوقها الأشواكُ وتيبّست حولها الحشائش، وهي عادةً ما تكون قبورَ الفقراء؛ وقبورٌ أخرى ترتفع درجاتٍ مختلفةً مبنيّةً بالرّخام والسيراميك، نُقِشَت عليها أسماء أصحابها بزخرفةٍ من الخطوط الجميلة وهي عادةً ما تكون قبور الأغنياء.

الوليّ الصالح يتوسّط الجميع كَمَلِكٍ! حولَ الضريح وفوقَه، أوقد الزّائرون الشّموعَ. ثمّة من أوقد أعواد العنبر والبخور، فصار المكان يعمّ بالهدوء والدفء وتلفّه روائح زكيّةٌ. هذا القبر الكبير صار مفعمًا بالحياة، بل أحسن من منازلنا نحن الأحياء! إذ لم تكن منازلنا أكثر من حيطان من الطوب مسقوفة بأخشاب الصّنوبر وأغصان الزّيتون والقشّ والتراب! وهكذا كان الوليّ الصّالح ينام في عمق الحياة! وكنّا نحن نعيش على هامشها!

حين يهيّأ المكان كما يجب، يأتي الدّراويش! يطلقون أصواتَهم بأناشيد على وَقْعِ الدّفوف، فتعصف ريحها بالرّؤوس والعمائم! ياله من عصفٍ وياله من رقصٍ ويالها من ليلة زردةٍ ساخنةٍ ومجنونةٍ!! رأيت أحدهم يأكل جمرًا، وآخر يتمرّغ فوق جذوع نبتة صبّار، وآخر يسير فوق مسامير

زرعها في الأرض خصّيصًا لتلك اللّيلة، يدوسها بقدمين حافيتَين!! كان ينزف، لكنّه يرقص ويدور حتّى يسقط مغمًى عليه!! وهذا لم يكن يعجب الأهالي وحدَهم، ففرنسا أيضًا صارت تشارك في الاحتفال بالزّرده، وخصّصت ميزانيّة لدعم الزّوايا والأضرحة وعيّنت مسؤولين على تلك الزوايا يديرون شؤونها ويسهرون على برمجة تلك الاحتفالات والولائم التي تقام فيها!

هذه الزّاوية، زاوية «سيدي بورويس» هي الأكبر والأشهر هنا. لكن توجد أيضًا زوايا أخرى متفرّقةٌ تنتشر هنا وهناك. يمكنني القول إنّ لكلّ عرشٍ زاويةً تقريبًا! بل توجد بعض زوايا تغيب منها حتّى الأضرحة!! قد يكون جذعَ شجرةٍ غريبة الشكل أو صخرةً كبيرةً ينام تحتها ثعبان! أو أيّ شيءٍ آخر متفرّدٍ في خلقه ومختلفٍ فيجد في نفوس الناس التقديسَ ويَحْظى بالإجلال والمهابة!! دعاني أحدُهم ذات يوم إلى زاوية «سيدي بو كلبة»! سألته عن مصدر الاسم، فأخبرني بأنّه كانت لهذا الرجل الصالح كلبةٌ، ترافقه دائمًا في تجواله ولمّا توفّي نامت عند قبره حتّى ماتت حزنًا وجوعًا، فسمّاه النّاس «سيدي بو كلبة»! إنّه رجلٌ صالحٌ وكلبته كذلك!!.

جلستُ مرّةً إلى الحاج مصطفى الدرويش. كان يومَها يعبر هضبة الإكليل متّجهًا إلى إحدى الزّوايا، وكانت له حضرة هناك ومريدون وتابعون! كان يحمل دفّه وزادَه، ومن حين إلى آخر يضرب ذاك الدفّ وهو يسير كأنّه يريد فتح الطريق أو إيصالَ رسالةٍ أو إنارةَ المكان! يومها استوقفته

عمدًا لكي أحدّثه في مسألة الاستعمار والكفاح! في الحقيقة أردت فقط معرفة رأيه في ذلك!

تربّع أمامي وهو يضع زاده ودفّه، نظر في وجهي والابتسامة لا تفارق محيّاه، ثمّ قال بصوتٍ هادئٍ وخارقٍ للحواسّ: «يا بنيّ، إنّ مهمّة الإنسان الأولى هي جهاد النفس، أمّا فرنسا فلنترك أمرها لله! نحن لم نأتِ بها! جاءت كعاصفةٍ أو جرادٍ! جاء الجنود حتّى أرضنا وتلك مشيئة الحيّ باعث النّور في الكون والقلوب! أتعرف لماذا؟!». قال ذلك كأنّه يسأل، لكنّه لم يكن ينتظر منّي إجابة! ورغم ذلك حرّكتُ رأسي يمينًا وشمالًا، فأضاف: «أعلم أنّك لا تعلم يا صاحب البطن الملآن والقلب الخاوي! إنّ الله يعذّبنا بفرنسا لأنّنا لم نطوّع أنفسنا للبحث عن الحقيقة! هذه النّفس يجب أن تتألّم حتّى تعود! الحرّيّة المطلقة دمارٌ! فرنسا كالوباء، كالجراد، كريح عاصفة! فرنسا هي الطوفان يا ابني! ليست مهمّتنا مقاومة الطّوفان بل علينا فقط بناء السّفينة! أتعرف كم استغرق النّبيّ نوح في بناء سفينته؟! ثلاثمائة من السنوات أو يزيد! ماذا بنينا نحن؟! لا شيء! هل كانت حالنا أفضل قبل أن تأتي فرنسا؟! كنّا تعساء! وبعد أن أتتنا فرنسا، ها نحن أيضًا تعساء! لو فرضنا أنّ فرنسا خرجت هذه الليلة أو غدًا أو بعد غدٍ، هل ستتغيّر حالنا؟!! أقسم لك بالحيّ باعث النّور في الكون والقلوب أنّنا سنبقى تعساء! البناء يبدأ من الداخل، بناء النّفس أوّلًا ثمّ بناء السّفينة بعد ذلك! أتظنّ أنّ القدير بعث النّبيّ نوحًا هكذا عبثًا؟! لا، إطلاقًا! بل درّبه وأدّبه وأوقد

نور الإيمان في قلبه ثمّ أعطاه تلك المهمّة الجسيمة!! أمّا نحن! من نحن؟! نحن التّعساء من قبل أن تأتينا فرنسا ومن بعد ما جاءتنا! نحن خشبٌ جافٌّ، قلوبنا بلا نورٍ وأجسادنا هشّةٌ! لسنا مدرّبين، لسنا مؤدّبين، لسنا جاهزين!! كلّه من تدبير الحيّ... مشيئة القدير ستعيد فرنسا في وقت مّا من حيث جاءت! السّماء ستُخمِد يومًا تلك الرّيح العاصفة، الأرض ستبتلع يومًا ذاك الطوفان الجارف!! كلُّ ما علينا فعله الآن هو أن ننظر في أنفسنا من الداخل. أمّا كلّ ما هو خارجٌ عنك فهو من تدبير الواحد! تعالَ معي وستفهم...»، قالها وهو يمسك بيدي، فحرّكتُ رأسي يمينًا ويسارًا! ابتسم وهو يقول: «القدير سينير طريقَك في الوقت المناسب! كلّ مساء تولد نجومٌ جديدةٌ تنير الكونَ وأنت لم يحن موعد ولادتك بعد!» ولمّا قام وضع يده اليمنى على رأسي وتلا شيئًا. في الحقيقة شعرت بقشعريرة كأنّي أرتجف. تلا شيئًا لا هو بقرآن الرّب ولا هو بحديث الرّسول! ولا هو أيضًا من الحكم والأشعار! قال جُمَلًا رهيبةً تنفذ إلى الأعماق. ثمّ قال لي: «اعتن بنفسك الآن وَدَعْكَ من فرنسا! نفسك المتشوّقة في حاجة إليك، فحاول أن تكون في الموعد!». ولمّا رأيته ينحدر أسفلَ الهضبة يحمل زادَه ويضرب من حين إلى آخر دفّه معلنًا عن بداية الحضرة، كدت أقوم من مكاني وأجري وراءه وأصيح: «أنا جاهز». كان كلامه كالسّحر الجميل! شعرت بأنّه خدّر فيّ كلّ شيء. كاد يسلب إرادتي ويجعل منّي كلبًا أليفًا ومطيعًا! حتّى إنّني ردّدت بعده: «الأرض صارت على ملك المعمّرين بودان وسيباستيان وتلك

مشيئة القدير»!!

الحاج مصطفى الدّرويش -كما يَعرف ذلك كلّ أهل القرية- ذهب إلى الحجّ سيرًا على القدَمين، يقود حصانًا يضع عليه أمتعته البسيطة. دام سَيْرُه ذهابًا وإيابًا أكثر من سنتين. وحين كان العابرون يسألونه: «فلتركب خيلك يا شيخ!»، يجيب دون أن يكلّف نفسه عناء النّظر إليهم: «على النّفس أن تتدرّب وتتأدّب حتّى تدخل في حضرة الحيّ باعث النّور في الكون والقلوب، ليتكم تعلمون أنّ الطريق إلى الحجّ أهمّ من الحجّ في حدّ ذاته»!!

أمّا الشّيخ حسين الذي جمعنا خارج الزّاوية عند سور المقبرة ليلًا ونحن نجهّز الخيام. فلم يكن يُشاركنا الاحتفال بالزّردة، بل كان يَعُدّها شعوذةً من الصّوفيين! إنّها «طقوسٌ شيطانيّةٌ لا علاقة لها بمذهبنا المالكيّ الحنيف».

حدّثنا في تلك اللّيلة عن هذا الدّمار الذي يُحدِثُه سيباستيان في أرضنا. أرضنا هذه أرض قمحٍ وشعيرٍ وزيتون... أرض لوزٍ وتينٍ ورمّان. أمّا الكروم فَلَيْست لنا! إنّها عمليّة إبادةٍ بأتمّ معنى الكلمة! ليست إبادةً للسكّان كما وقع في مستعمراتٍ أخرى -وأنت تعرف هنا ما أقصده ولا داعي إلى تسمية تلك المناطق من العالم- ولكنّها إبادةٌ للمحاصيل الزّراعيّة الرئيسيّة وإبادةٌ لخصوبة تربتنا ومخزوننا للأجيال المقبلة!

ولمّا انتهت الزّردة بعد ثلاثة أيّامٍ من ضرب الدفّ والتمرّغ على التّراب، سار جمعٌ كبيرٌ باتّجاه المدينة... تقريبًا شخصان أو ثلاثةٌ من كلّ دوّار. هناك أيضًا من تضامن معهم من سكّان المدينة.

ساروا جميعًا لمقابلة الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج لإخباره برفضهم هذا البراز القذر الذي يزرعه سيباستيان في كلّ مكان! فهذا البراز المقرف يدمّر الأرض ويُغيّر لونَها ورائحتَها! ولمّا رفض السيّد بالاج مقابلتهم تجمّعوا في محطّة القطار، ثمّ ساروا على طول شارع المحطّة، ذهابًا وإيابًا، متظاهرين ومنادين بحرق حقول الكروم، وبإرجاع الأرض إلى أصحابها، ولا سيّما الهناشير منها. أمّا أولئك السذّج فكانوا هناك ينتظرون وصول القطار القادم من الكاف باتّجاه العاصمة. ولمّا رأوا ذلك زحفوا بمؤخّراتهم تحت جدار سكّة الحديد خائفين ومرعوبين ثمّ تلاشوا كريح نتنة!

تعالت أصوات المتظاهرين واستبدّ بالنّاس الحماسُ وارتفعت الحناجر بـ«الاستعمار عار عار والأرض لأولاد الدوّار». وبدأ التّصعيد ورُفع سقف المطالب، حتّى إنّ البعض طالبَ برحيل فرنسا عن قريتنا فورًا. ولمّا عظم الأمر، أطلق عليهم الحاكم العسكريّ كلبه الشّرس الضّابط الشرّير، أو «السوفاج» كما كنّا نسمّيه، وهو ضابطٌ حقيرٌ وبلا رحمة، اعترضهم وقطع عليهم الطّريق، فوقفوا. وقبل أن يخاطبهم أخذ مسدّسَه وأطلق رصاصاتٍ طائشةً في الهواء، ثمّ أمرهم بالعودة إلى جحورهم. قال لهم يومها: «جنود فرنسا يحتاجون إلى القمح والنّبيذ معًا، ومَن لم يعجبه ذلك سأبني له قبرًا جميلًا بجانب وليّكم الصّالح». ثمّ أشبعهم كلامًا فاحشًا، ورَكَل بعضهم على مؤخّرته. ولَطَم البعض الآخر على قفاه. وبزق في وجه كلّ من حاول التكلّم أو التقدّم إلى الأمام.

وفي النهاية هدّد من تُسَوِّلُ له نفسُه الاحتجاجَ مرّةً ثانيةً بإطلاق الرصاص في قلبه مباشرةً.

والحقّ أنّ الضّابط السّوفاج لم يفعل غير ترديد تلك الجملة التي قالها نابوليون وهو يسير بجنوده نحو روسيا: «الجنود يحتاجون إلى القمح أيضًا». ولكنّ السّوفاج أضاف إلى ذلك «النّبيذ»! وهذا من حقّه طبعًا مادامت أرضُنا خصبةً تُنْبِتُ كلَّ ما يشتهيه الإنسان.

ومنذ ذلك اليوم دخلنا جحورَنا كما أمرنا بالضبط وصمتنا. دخلناها ذُلًّا وانكسارًا. منذ ذاك اليوم لم نفعل شيئًا غير العمل بجدٍّ وتفانٍ. كنّا مطيعين ومنضبطين كما يجب أن يكون «الزوفري» الحقيقي... العامل المحتاج والمقهور والفاقد للكرامة. حتّى صرنا نعتقد أنّ فرنسا هي «من أمر الحيّ باعث النّور في الكون والقلوب» كما يقول الحاج مصطفى الدرويش. الشيء الوحيد الذي كان يبعث فينا الرّوح كلّ صباحٍ ونحن ننهض للعمل هو أنّ الأرض أرضُنا ورائحة ترابها هي رائحتنا. وسواء اشتغلنا في أرضنا بمقابلٍ أو بلا مقابلٍ فنحن دائمًا وأبدًا أبناء هذه الأرض وأصحابها. كنّا كأمّ النّبيّ موسى عندما افتكّ منها الحاكم الظّالم فرعون ابنها. عاد إليها رضيعُها لتربّيه بمقابل. لم تكن تهمّها قيمة المقابل والثّمن المدفوع لها بقدر ما كان يهمّها أن ترى ابنها كلّ يومٍ يكبر أمام عينَيها وهي تحتضنه وتقبّله. كانت أرضُنا تزداد جمالًا في أعيننا وقيمةً في قلوبنا. كانت النّهاية جميلة بالنسبة إلى أمّ موسى وابنها، إذ غرق فرعون وجنودُه في البحر الأحمر

وأصبح موسى ملكًا على بني إسرائيل. وكنت أسأل نفسي دومًا: هل سيأتي اليوم الذي تغرق فيه فرنسا وجنودُها في البحر المتوسّط؟!

ثمّ أجيب نفسي البائسة المتهالكة: «تلك مشيئة القدير!»، حتّى آمنت بأنّ «السّوفاج» ابتلاءٌ من القدير. يُقال إنّ أصل ذلك الضابط بلجيكيّ. وهو لا يملك شخصيّةً ولا مبدأ... سمسار حرب... جنديٌّ لقيطٌ ومرتزقٌ. لذلك كانت عينا كونبا متسلّطتين عليه، أحيانًا يتواجهان في حانة سيباستيان، فيناديه «السوفاج» بـ«البربريّ» كلّما رآه مارًّا أو جالسًا. وكان كونبا يتجنّب استفزازَه ذاك لأنّه يفكّر في ما هو أكبر بكثير.

بعد حادثةِ مقتلِ سيموني، عندما وجدوه في ذلك الصباح المثلّج جثّةً هامدةً على سكّة الحديد، صارت المعركة بين كونبا والسوفاج علنيّةً. أصبح كلّ واحدٍ منهما يترصّد الآخر بطُرقٍ مختلفة، حتّى آلت الأمور إلى تلك النهاية المقرفة! لا أريد التّطرّق إلى ذلك الآن. فقد جعلتني تلك الحادثة الفظيعة أشعر بالإغماء. بل إنّه أُغْمِي أثناءها بالفعل على ماريا، فيما كان الجرمانيُّ يُتابع المشهد في صمتٍ وبرودٍ كشتاءٍ ألمانيٍّ قارسٍ. كان ثابتًا في مكانه وبلا مشاعر. رأى الجريمة أمام عينيه. رأى الذّبح والدّماء. رأى كلّ شيء وبقي ثابتًا كذَيْنك الغُرابَيْن اللّذين أرسلهما الله ليشاهدا تلك المعركة التي دارت بين هابيل وقابيل. ولم تكن مهمّة الغُرابَيْن سهلةً على الإطلاق.

تحت شجرة الخرّوب العظيمة وقعت الواقعة... وقعت بين كونبا والسوفاج. تقابلا هناك وجهًا

لوجهٍ فوق الأرض وتحت السماء. لم تكن المعركة بينهما عادلةً تمامًا، ولكنّ الموت كان عادلًا! إلى اليوم، كلّما مررت بذاك المكان أشعر بأنّي أرى الشّيطان يرقص، أو أسمع صراخًا قادمًا من تحت الأرض أو أغرق في بركة من الدّماء. تلك هي الحرب يا بنيّ! وفي الحرب تكون أحيانًا بلا قلب. سأعود إلى بركة الدّماء تلك عندما تهبّ نسمات جبل العنز المنعشة. وأنا أسترجع بعض الأحداث سأحتاج إلى ما يكفي من الأكسجين لأتنفّس بعمق. ما يزال أمامنا ما يكفي من الوقت لنتحدّث. بداية صيف هذا العام بدت أكثر حرًّا من العادة. وأنا أذكر تلك الحادثة لا أريد أن أتعرّق. فليأتِ نسيم الجبل أوّلًا.

دعني أتنفّس قليلًا. دعني أشرب كوب ماءٍ. دعني أمدّ رجلي التي تؤلمني قبل أن تنام ككلّ مرّة. دعني أقبض على عصاي. أقبض عليها حتّى وأنا جالس! أشعر أنّها صارت قطعةً منّي. وعندما أتشنّج تعيد لي توازني وهدوئي. أمّا الآن فقد حان وقت الجريمة. حان وقتها تمامًا كما يحين وقت شرب القهوة الفيلتر.

أقول جريمة لأنّني محكوم بذلك البلاغ الذي علّقه الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج. وقد بدأت الجريمة حسب رأيه في المنطقة الفرنسيّة، ولمّا سقطت الرؤوس وتعفّنت الجثث وهبّت ريحها تجاه جبل العنز كانت الملحمة... ملحمة الكونبطا... الرجل الذي هزم الأعداء وحدَه.

(3)

حان وقت الجريمة الأولى!

وحان وقت شرب القهوة الفيلتر! هذه القهوة السّوداء الدّاكنة التي أستنشق رائحتها من بعيدٍ. غالبًا ما أجلس وحيدًا في أطراف مقهى شعبان وأحتسيها ساخنةً وبلا سكّر. وقد صرتُ بارعًا في إعدادها أيضًا بعد أن علّمني ذلك سيموني الإيطاليّ. ومنذ أن جرّبتها أوّل مرّةٍ تخلّيت عن عادة شرب الشّاي. أدخل المقهى في الصّباح الباكر، أقف متّكئًا على الكونتوار أحتسي الرّشفة الأولى والثّانية والثّالثة تباعًا. وحين أشعر بأنّها تسرّبت في دمي وبلغت أعصابي، أنصرف بها تحت شجرة اليوكاليبتوس. لقد جعلتُ من شربها طقسًا ونظامَ حياةٍ. أقوم في الصّباح الباكر أستحمّ ثمّ أصلّي ركعتَي الفجر. وبعد ذلك أغيّر ملابسي وأتعطّر، ثمّ أسير باتّجاه المقهى. الصّلاة والعطر والقهوة، ذلك هو الثّالوث المقدّس الذي يربطني بالعالم.

الجريمة أيضًا تفوح رائحتها قبل وقوعها، كالقهوة تمامًا! وَوَحْدَهُم المتذوّقون ينتبهون إلى ذلك. نحن عادة نتذوّق القهوة، لكن هل يوجد من يتذوّق الجريمة؟! أقول لك نعم. إنّهم المتوحّشون.

احتسى ذلك المتوحّش قهوتَه المسائيّةَ الأخيرة في حانة سيباستيان، كما كان يفعل كلّ يوم... يشرب ثلاث بيرات ثمّ يختم بالقهوة الفيلتر. ويقول: «الخمرة تبعث الحرارة في دمي، والقهوة

تجعل ذهني يستيقظ وأعصابي تنشط». كان ذلك طقسه كلّ مساءٍ قبل الذهاب إلى العمل. بعدها سار بثباتٍ إلى مركز جمع الحبوب الذي يشرف عليه السيّد بودان.

أنا أستنشق رائحة القهوة الفيلتر وأتذوّقها. أمّا صاحبنا فاستنشق في تلك الأمسية رائحةَ الموت التي بدأت تتسرّب إلى أعماقه من خلف أكياس القمح المتكدّسة. تسرّبت إليه حتّى بدأت تغلي بداخله، وحينما فاضت وقعت الواقعة. كأنّ كلّ شيءٍ كان مسطّرًا. في ذلك المساء كان كلّ شيءٍ يغريه بأن يقتل بلا رحمة. بدا جاهزًا وواثقًا كما ينبغي. احترق بالنّار من الدّاخل فصار مستعدًّا لالتهام أيّ شيءٍ يقع أمامه.

أقول لك حان وقت الجريمة وتلك السّاعة النحاسيّة ذات العقارب الرومانيّة كانت شاهدة على ذلك. عندما حدّق كونبا في عقاربها مليًّا وهو يغادر الحانة، علم أنّ الوقت قد حان والصّبر قد نفد فعلًا. كانت تشير إلى التاسعة ليلًا، وأكّدَتْ ذلك بتسع قرعاتٍ متناسقةٍ ومسموعة. ولمّا كان الوقت صيفًا فإنّ السماء ظلّت تحافظ على بقايا ضوءٍ، أمّا النّجومُ الكبيرة فقد بزغَتْ كقناديلَ متفرّقةٍ يتلألأ نورُها من بعيدٍ. كلّ شيءٍ كان هادئًا وجميلًا، إلّا القلوب فقد سكنها الشرّ.

بعد إلقاء أخيه الأكبر في باخرةِ الموت نحو مرسيليا، ومقتل أبيه بذلك اللّغم الغادر وهو يحرث أرضه، طلّق الكونبطا حياة العربدة والمجون وأصبح المسؤولَ عن أمّه وأخواته الثلاث. في الأثناء كان يهدّد كلّ مرّةٍ بالانتقام ويقسم ويلعن، ثمّ

يسحب خنجره من تحت حزامه ويغمده في أيّ شيءٍ أمامه. لم أكن أتصوّر أنّه سيفعل شيئًا غير الصّبر مع قليلٍ من السبّ والشّتم بكلامه الفاحش ككلّ مرّةٍ. خِلْتُ أنّه نسي الأمر وعاد إلى الحياة الطبيعيّة ولاسيّما عندما حصل على عملٍ لدى السيّد بودان في مركز جمع الحبوب، المركز الذي يقع بالقرب من سكّة الحديد وتحاذيه من الخلف الثّكنة العسكريّة الفرنسية، لا يفصل بينهما إلّا سورٌ واحدٌ عالٍ وسميكٌ. لكن بعد تلك الواقعة عرفتُ أنّ كلّ شيءٍ كان مخطّطًا له ومحبوكًا بعناية.

سرعان ما كسب كونبا ثقة المعمّر بودان فصار أكثر حريّةً في سلوكه مقارنةً بغيره من العمّال. وهذا ما جعله يتردّد على حانة سيباستيان دون خوفٍ. كان يجلس فيها مبَجّلًا ويطلب ما يشاء دون أن يدفع. دعني أَقُلْ إنّ السيّد بودان وفّر له عملًا قارًّا ودخلًا محترمًا ووفّر له في الوقتِ ذاتِه حمايةً غير رسميّة. وكانت مدام كريستال كلّما رأته ضربته على كتفه وهي تضحك بطلاقةٍ وتقول: «الشّاب العظيم»!!

كانت للكونبطا بندقيّةُ صيدٍ. لكنّه كان يملك أيضًا أسلحةً أخرى يخفيها في مواضع مختلفة. وقد تحصّل عليها بعد علاقته بسيموني زوج ماريا المالطيّة. كان يملك خنجرًا صغيرًا حادًّا يخفيه عادةً تحت حزامه. ويملك ذراعًا طويلةً، ولكمةً قاضيةً عندما تصيب الجبين لا تترك لخصمه فرصةً لكي يقف على قدميه مُجدَّدًا. وحين يدخل معركةً يضرب بكلّ شيءٍ متاحٍ، بحجرٍ، بمنجلٍ، بمحشٍّ،

يضرب بفأسٍ أو بمعولٍ، بمسمارٍ، أو بأيّ شيءٍ حادٍّ ومؤذٍ يمكن أن يجعل الدّماء تسيل ويجعل خصمه يسقط أرضًا أو فاقدًا الوعيَ. الكونبطا متوسّط الطول، لكنّه عريض المنكبين، ركبتُه كالرّحى. وعندما يثبّت نفسه واقفًا على الأرض لا يتزحزح كالطّود الشّامخ. يحمرّ وجهه عندما يغضب، كأنّك تنظر إلى الدّماء تتدفّق في الأوردة والشّرايين. لحيته خفيفةٌ تميل إلى الاصفرار حين تلفحه أشعةُ الشّمس. وعندما يكون صامتًا مبتسمًا، يبدو وجهُه ناصعًا ومشرقًا، أمّا إذا تكلّم فإنّ ملامح ذلك الوجه الجميل الأنيق تغيب تمامًا. وأقبح ما فيه لسانه. كنت كلّ مرّة أقول له: «ألا تقدر على غير ذلك؟!». فيسبّ ويشتم من جديدٍ ويقول: «لم تعلّمني أيّامي غير الكلام الفاحش... الحياة كلّها فاحشة!». كان لا يعرف السكون ولا الاستسلام التّام إلّا عندما يكون إلى جانب زهرة، خطيبته وحبيبة قلبه.

وكان كلّما أرهقته الحياة وأرهقه فُحشها يعتلي صهوة حصانه «نجم» ويلوذ بزهرة، وكان «نجم» حصانًا ناصعَ السّواد كَلَيْلٍ حالكٍ، في جبينه غرّةٌ بيضاء على شكل نجمٍ بازغٍ. وقد جَعَلته تلك العلامة البسيطة يختلف تمامًا عن بقية الخيّول. فكان متفرّدًا كصاحبه الّذي وهبَه الاسم. يقولون إنّ الدوابّ تسير على نسق أصحابها. وذلك صحيحٌ فأنا في الحقيقة لا أحبُّ ركوبَ الخيل. أجدُها سريعةً جدًّا ومتغطرسةً أحيانًا. وأفضّل ركوب الحمار. فهو بطيء وهادئٌ مثلي تمامًا.

كان يعتلي صهوة «نجم» ويلحق بزهرة إلى

البئر، حتّى إذا ملأت الجرّتَيْن الموضوعَتَيْن على حمارٍ ترجّل هُوَ وسار إلى جانبها ممسكًا لجام حصانه. والويل لمن يقترب منها. أقسم لك، حتّى لو مات الكونباطا ما كان أحدٌ من شباب القرية ليتجرّأ ويتقدّم ليطلب يدها للزواج! وها هو يسير باتّجاه المشنقة وهي تنتظر.

كان في الخامسة والعشرين من العمر تقريبًا. وكان يُمسك الحياة بقوّةٍ. حين يفرح يُمسكها من خصرها ويُراقصها، أمّا حين يغضب فيُمسكها من عُنقها.

قوّة كونبا الجسديّة وثقته الكبيرة بنفسه جَعَلَا السيّد بودان يختارُه ويعيّنه حارسًا ليليًّا على مركز الحبوب. في غالب الأحيان يظلّ هناك كاملَ اليوم.. وعندما يأتي العمّال صباحًا، ينام قليلًا في كوخٍ جانبيٍّ، ثمّ يتجّه إلى مقهى شعبان. فيجلس هناك قليلًا، يشرب قهوتَه ويتحدّث مع الحاضرين، ثمّ يصعد إلى الدوّار، أقصد دوّارنا نحن، أولاد بن الحاج محمد. يزور أمَّه وأخواته، ويتفقّد حاجاتهنّ. وبعد العصر يعود مرّةً أخرى إلى المدينة، يجلس في حانة سيباستيان حتّى عودته إلى العمل اللّيليّ من جديد. لم يكن يكتفي بالحراسة ليلًا، بل يحمل أكياسَ القمح ويرصّفها ويهيّئها حتّى تُشحَنَ في عربات قطار البضائع. البعضُ منها يُنْقَل إلى العاصمة، وربّما من هناك إلى فرنسا، والبعض الآخر يُنقَل إلى الجزائر.

كانت طريقة عمل الكونبطا تُعجِب السيّد بودان كثيرًا. فغالبًا ما يعطيه أكثر من راتبه. ويهبُه بعض الملابس والأشياء الأخرى. لكنّ ما شدّ

انتباهي هو أنّني لاحظت فجأةً تكاثُر أموالِه بصفة غير عاديّة! كان كلّ مرّة يرسل معي رزمةً من النقود إلى أمّه عندما لا يستطيع هو الصعود إلى دوّار أولاد بن الحاج محمّد. كما تعلم، كنّا نسكن تحت سفح جبل العنز، ونبعد عن المدينة أربعة كيلوميتراتٍ تقريبًا، نقطعها في الغالب سيرًا على الأقدام أو ركوبًا على الحمير.

قلت لك إنّي لاحظت تزايدَ ماله بصفةٍ تجلب الانتباه. وقد سألته مرّةً عن مصدره، لكنّه لم يُجِبْ بوضوحٍ. أخبرني فقط أنّه يريد تأمين حياة عائلته المادّيّة لأنّه لا يضمن استمرارَه في العمل، وربّما وجودَه بالمدينة عمومًا. قال لي إنّه لا يثق بشيءٍ وإنّه يفكّر في أمورٍ مهمّةٍ ومصيريّة. ولمّا ألححت عليه في السؤال، أعلمني أنّه كان يتاجر سرًّا بقمح ديوان الحبوب الذي يشرف عليه السيّد بودان. كانت تأتيه جموعٌ صغيرة ليلًا تشتري منه كمّيّاتٍ هامّةً بثمنٍ زهيدٍ جدًّا. أظنّ أنّ أغلبهم من أولاد عيّار وأولاد جلاص والفراشيش. وهذا يحدث بالخصوص في تلك السنوات التي تقلّ فيها الأمطار ويتناقص علف المواشي.

ولمّا فاجأني الأمر، قلت له: «كونبا!، أنت تسرق؟!». ثمّ أضفت بنبرةٍ حازمة: «أمّك وأخواتك الثلاث يضعن في بطونهنّ مالًا حرامًا؟». فقام غاضبًا وهو يصرخ، واحمرّ وجهُه كعادته كأنّني أرى الدمَ يتدفّق داخل شرايينه، ثمّ قال: «من السارق؟! أنا أم فرنسا؟! هذا القمح ملكي، وملك أمّي، وملك أختي. هذا القمح ملكنا نحن جميعًا. إنّه قمح هنشير عين عاشور وهنشير جبل بوكحيل.

هذا قمح أرضنا. انظر هنا.. هذه...» وراح يدوس بساقه اليمنى على الأرض كأنّه يشير إليها حتّى تناثر الغبار من تحت قدمه وتطايرت معه الحصى هنا وهناك. ثمّ قال لي، وهو ينصرف مسرعًا شاتمًا كلّ العالم: «خذ المال واصعد به إلى الدوّار ودعني أدبّر أمري كما أريد».

في طريقي من المدينة إلى دوّارنا فكّرت في الأمر من جديدٍ. لكنّ السّؤال الذي ظلّ يعربد في ذهني ويطرق رأسي كمطرقةٍ ثقيلةٍ هو: أكان ما قام به كونبا حلالًا أم حرامًا؟! كنت أفكّرُ، حتّى مرّ الشّيخ حسين صدفةً أمامي بجانب المقبرة. كان واقفًا يدعو للأموات. عَدَوْتُ نحوه مناديًا: «سيدي حسين!»، هكذا كنّا نناديه، نقول سيدي ليس فقط لأنّه مدرّسنا ولكن لأنّنا أيضًا نحترمه ونقدّره. وغالبًا ما نحتاج إليه في أمورنا الأخرى بيعًا وشراءً وزواجًا، وحتّى في الخصومات يفصل بيننا بالحقّ. جريت إليه وحدّثته في الموضوع عمومًا. لم أذكر الكونبطا أثناء السّؤال. فأنا حافظٌ أسراره والوحيد الذي يأمن جانبَه في حياته. سألته: «سيدي حسين، هل يحقّ لنا أن نسرق فرنسا؟!» أجاب وهو ينظر في عيني مبتسمًا، كأنّه فهم شيئًا أو عرف بفراسته ما يدور في ذهني: «المسلم لا يسرق، إنّه يأكل لقمة عيشه بشرفٍ». ثمّ انصرَف مُسرِعًا. جريتُ خلفَه قائلًا: «لكنّ فرنسا تسرقنا، سيدي حسين!». لم يلتف، بل أجابني وهو يحثّ الخطى: «الله سيقطع أطرافَ فرنسا لأنّها تسرق. الله سيعاقب كلّ مَن سرق».

تسمّرت في مكاني، وأحسستُ كأنّ شخصًا مّا

يهمس في أذني قائلًا: «الشيخ حسين على حقّ». ولكنّ ذلك الصّوت الهامس قال لي أيضًا بنبرةٍ أعلى: «الكونبطا بِدَوْرِهِ على حقّ». ثمّ خيّل إليّ أنّني أرى الميزان المملوءَ قمحًا يميل لصالح كونبا، فاطمأنّ قلبي وانصرفت باتّجاه حوش دادا صالحة.

أمّا ما كان يشغل بالي أكثر من أيّ شيءٍ آخرَ فهو: مالذي يخطّط له الكونبطا؟! إلى أين سيغادر عندما يترك القرية؟! كنت مسكونًا بهذه الحيرة حتّى حصلت تلك الواقعة، واقعة قتل الجنود الفرنسيّين الثلاثة.

بدأت الحكاية كلعبةٍ في شكل هِرَاشٍ بسيط ومزاحٍ ثقيلٍ، ثمّ تطوّرت إلى تلك النهاية التي لم تخطر على بال أحدٍ. بدت الحادثة عفويّةً، لكنّها في الحقيقة ليست كذلك بتاتًا.

جلس في ركنه المعهود يحتسي قهوةَ الفيلتر، بعد أن شرب بيراته الثلاث. يومَها كان السيّد بودان هناك، يجلس في المقصورةِ مع أحد الحرفاء. أقول الحرفاء لأنّنا لا نعرف كلّ الأشخاص حقيقةً. إذ صار يتردّد على القرية كثيرٌ من الناس قادمين إليها على متن القطار أو على عرباتٍ عسكريّة.

في ذاك المساء، وقف حول طاولته ثلاثة جنودٍ فرنسيّين. كانوا بكامل أناقتهم العسكريّة وقد تأبّطوا أسلحتهم. أظنّهم كانوا في فترة استراحة.. نادوه بالبربريّ كما يفعل الضابط السوفاج. ثمّ ضحكوا عاليًا. أخذ جنديٌّ منهم كأس كونبا واحتساها دفعةً واحدةً، ثمّ قال: «هذه

الطاولة قذرة!». وكونبا رابطٌ ذراعيه إلى صدره، ينظر من دون حراكٍ. ثمّ دفع جنديٌّ آخر كرسيَّه وأمره بأن يغادر لأنّهم يحتاجون إلى المكان. فرفض كونبطا مغادرة موضعه قائلًا: «هذا مكاني حجزته قبلكم ولا أغادر إلّا عندما أقرّر أنا ذلك». فصَبّ ثالثُهم كأس ماءٍ على رأسه. حينئذٍ رمى كونبا بالكرسيّ جانبًا وأنشب يدَيه في عنقه وخنقه. فوضع الجنديّ الآخر مسدّسه في رأس كونبا. ولكنّ السيّد بودان تدخّل وفصل بينهم. ثمّ وضع يدَيه على كتف كونبا طالبًا منه التّراجع. قال كونبا: «فليضعوا أسلحتَهم جانبًا، سأصرعهم واحدًا واحدًا كأكياس القمح». ضحك السيّد بودان عاليًا. ثمّ ضحك كونبا وأخذ مكانَه من جديدٍ مناديًا بطلبيّة أخرى. قام أحد الجنود وهو يقول: «تعالَ وجرِّبْ إن كانت لك القدرة على تحويل أقوالك إلى أفعال». فتدخّل السيّد بودان قائلًا: «فليكُن صراعًا علنيًّا إذن. هذا عاملي المفضّل مقابل ثلاثة عساكر!».

وقف كونبطا وسطَ الحانة، حيث تتّجه أنظار كلّ الزبائن الذين أعجبتهم اللّعبةُ. وطغى على الحانة جوٌّ حماسيٌّ. تحرّك العسكريّ الأوّل. ولمّا وقف أمام كونبا هجم عليه كغوريلا متوحّشةٍ، فخطفه ورفعه إلى أعلى ثمّ رمى به أرضًا ككيس قمح. صمت الجميع، لكنّ السيّد بودان صفّق وهو يردّد: «برافو!». فصفّق الجَمْع وراءه. ثمّ أسقط الثاني، فالثّالث. وبقي واقفًا وسط الحانة. صفّق السيّد بودان طويلًا، ثمّ توجّه إلى كونبا ورفع ذراعه اليمنى عاليًا وهو يقول: «هذا مصارعي الكبير!».

انتهى الأمر، كما ظنّ كلّ الذين شهدوا تلك الحادثة. عاد كونبا إلى مَقْعَدِهِ مجدّدًا، وظلّ الجنود الفرنسيّون الثلاثة يحتسون نبيذَهم في مكانٍ قريبٍ منه ويتهامسون حتّى بدا عليهم الثَّمَلُ. «الآن حان وقت الشّغل»، قالها كونبا بصوتٍ عالٍ وانصرف. قالها عمدًا بصوتٍ مسموعٍ كأنّه يقول: «أنا في انتظاركم».

بعضُهم يقول إنّ السيّد بودان هو من أطلق عليه كنية الكونبطا التي لبسته حتّى نسي النّاس اسمَه الحقيقيّ. وكان يقصد بها المصارع أو المحارب الكبير. لكن فيما بعد التبس ذلك الاسم بتأويلاتٍ عديدةٍ.

عندما غادر الكونبطا الحانةَ حدّق فيه الجنود الثلاثة بعيونٍ حاقدةٍ وماكرة. وقد شعر هو بذلك رغم أنّه لم يلتفت. كان الوقت في بداية الصيف، سقطت الشمس خلف جبل العنز وتلألأت أضواء صومعة المسجد في السماء. بدأت أبواب المحلّات الجديدة والخشبيّة تقفل والحركة تهدأ. تقريبًا بدأ كلّ شيء يتهيّأ للنّوم وخيّم على المدينة سكونٌ ثقيلٌ لا يجرحه إلّا دويٌّ طائراتٍ حربيّة تخترق الفضاء قادمةً من الجزائر أو ذاهبةً إليها. لم تكن تلك اللّيلة مقمرة. ظهر الهلال أوّل المساء كصورةٍ بالطباشير الأبيض، ثمّ غاب. أمّا النجوم فكانت بازغةً في السماء صغيرةً جدًّا تكاد لا تُرى. أقفلَتْ حانة سيباستيان أبوابَها ونوافذَها الخشبيّةَ وغادر الجنود الثلاثة يتمايلون يمينًا وشمالًا. كانوا آخر من غادر المكان. خرجوا من الحانة يتوعّدون البربريّ بالقتل. ثمّ مشوا خلفه حتّى

ديوان الحبوب. كانت البنادق مثبّتةً على ظهورهم والمسدّسات في أيديهم، وعلى أحزمتهم بعضُ السكاكين. كانوا مسلّحين كما ينبغي أن يكون الجنديّ الذاهب إلى ساحة القتال. وكانوا واثقين من النّصر. قرّروا قتل البربريّ بثلاث رصاصاتٍ. لكلّ واحد منهم طلقةٌ. قال الأوّل سأضعها في جبينه، وقال الثاني سأضعها في قلبه، أمّا الثالث فقال سأضعها بين خصيتيه. هذا ما ذكره أحد زبائن الحانة بعد الحادثة، لأنّه سمعهم يتوّعدون.

كانت أكياس القمح مرصّفةً على الأرض بعضها فوق بعضٍ، مُكوِّنةً جدرانًا سميكةً وضيّقةً. ومن جدران القمح تلك غالبًا ما يصنع كونبا لنفسه جحرًا مفروشًا بالأكياس الفارغة ويتمدّد هناك حين يريد أن يستريح أو ينام قليلًا. وأحيانًا يستلقي فاتحًا عينَيه في الفراغ ويظلّ يفكّر.

في تلك الليلة تمدّد وهو يغلي من الدّاخل كفرنٍ ساخنٍ. كان يعلم أنّ هذا الأمر لن ينتهي بسلامٍ مهما تكُن الأحوال. فكونبا عاشر الجنديّ الفرنسيّ ويعرف جيّدًا أنّه ماكرٌ كثعلبٍ، وغدّارٌ. تمدّد ويده تداعب خنجره الحادّ وهو ينتظر، حتّى سمع حثيث أقدامهم وأصواتهم الخافتة. استلّ الخنجر من خصره وأخذ يتربّص. كان أحدهم يقول: «سأقتلُ اللّيلة ابنَ المومس هذا»، وقال آخر: «سأتبوّل على مؤخّرته»، أمّا الثّالث فكان يتقيّأ خمرته. تفرّقوا بين أكياس القمح وهم يتمايلون ثَمِلًا. كانت الممرّات مظلمةً وضيّقةً. ولمّا وقع الجنديّ الأوّل أمام كونبا مثل أعمى رمى كيس قمحٍ فارغٍ على رأسه وخنقه به! ظلّ يضغط على

عنقه حتّى طرحه أرضًا. لم يترك له فرصةً للتنفّس ولا حتّى للضّراط! تخبّط ذات اليمين وذات الشّمال بجسده الثّمل، ونبش برجلَيه التّبنَ الذي كان يملأ الأرض، ثمّ سكن إلى الأبد في صمتٍ لم يتحسّسه الجنديّان الآخران وهما يبحثان بين الأكياس في الظلام. كان المسكين ثملًا وكانت روحه خفيفةً كروح ديكٍ فرنسيٍّ، فلم يكلّف كونبا عناءً كبيرًا. قتله في صمتٍ وبرحمةٍ... أقصد قتله بلا دماء.

أقول لك إنّه استعمل معه نصفَ قوّة الذراع أو ربّما ثلثها فحسب. غطّاه بأكياسٍ فارغةٍ ولزم الصّمتَ. وعندما مرّ الجنديّ الثاني أمامَه غرس الخنجرَ في جنبه، ثمّ في عنقه حتّى خرّ أرضًا ينزف بغزارةٍ إلى أن نفد دمه وخمرته معًا. فسحبه إلى جانب الأوّل. أمّا الثّالث فقد اختفى. فكّر الكونبطا في الأمر الذي لم يعد مجرّدَ مصارعةٍ وهو يغطّي الجثّتَين ويسحبُ إحداهُما فوق الأخرى. فكّر في الهرب فورًا. لكنّ الجنديّ الآخر ما يزال حيًّا. حين خطا خطواتٍ خارجَ صفوف أكياس القمح السميكة والعالية رآه يتبوّل على جدران القمح. فقفز نحوَه وضربه بقضيبٍ حديديٍّ على رأسه، ثمّ ارتمى فوقَه يلكُمه. ولمّا فقد وعيه، لوى حبلًا على عنقه وضغط حتّى كاد يفصل رأسه عن كتفيه. ثمّ سحبه جثّةً هامدةً ورمى به فوق جثّتَي رفيقَيه. وهكذا انتهت المعركة وانتهى معها رهانُ المصارعة إلى الأبد.

جلس يدخّن سيجارةً. كان يتنفّس بطلاقةٍ مرتاحَ البال! وكأنّ الحقد والثأر اللّذَين في صدره بدآ يتبخّران. بدا سعيدًا وهو ينهي سيجارتَه ويجمع

أشياءه. سلبهم بنادقهم ومسدّساتهم وكلَّ ما يملكون من أسلحةٍ وتسلّل باتّجاه جبل العنز. كان يسير نحو الكهف في ثباتٍ وثقةٍ مفرطةٍ وهو يقول: «أمّا الآن فقد انتهت لعبةُ المصارعة وبدأت حربُ البربريّ»، ثمّ أخذ يُغنّي: «صبّ الرّشراش والنوّ غزيرة...» ولمّا انتشى منها رقَص وحيدًا بين الأشجار حتّى تبلّل عرقًا. وعندما خارت قواه، زحف داخل الكهف ونام بعُمق.

(4)

فجأةً سقط الألمانيُّ الأخير من السّماء!

سقط ذلك الجنديُّ النّازيّ في جبل العنز كما يسقط خيرٌ أو يقع شرٌّ. لن أقول شيئًا عن ذلك وسأحتفظ برأيي لنفسي. يمكنك أنت أيضًا بعد نهاية الحكاية أن تقرّر ما إذا كان سقوط الجرمانيّ الأخير أمام كهف الكونبطا خيرًا أم شرًّا. لكن من الأفضل، وأنا هنا أقدّم لك نصيحةً بحكم خبرة السّنين، أن تحتفظ برأيك لنفسك. كن أنت دومًا على يقين وليكن العالم في حيرةٍ.

اجتمع الاثنان فجأةً في ظلمة الحفرة الكبيرة كأنّهما كانا على موعد. ولمّا انتهيا من جريمتَيْهما قَدِمَا إلى المكان. كان ذلك في بداية صائفة 1943. أقول في تلك السنة، وأحسبُني من الصّادقين. وكما ذكرت لك سابقًا، أنا هنا لا يهمّني التّاريخ بقدر ما تهمّني الحكاية. وإن حدث أن ذكرتُ لك شيئًا يخصّ هذا التاريخ بأرقامه وأحداثه، فأنا في الحقيقة مجبرٌ على ذلك. يمكنك أن تصدّق ما تشاء من التفاصيل أو تكذّبها. فذلك أمرٌ يخصّك.

أذكر تلك السنة جيّدًا لأنّ عمّتكَ مريم وُلِدت في بداية ربيعها. يقولون إنّ ولادة البنت غالبًا ما يعقبها خيرٌ وبركاتٌ. وقد آمنت بذلك لأنّني عشتُه بالتّفصيل. كان موسمًا رائعًا وخصبًا. لم أرَ في حياتي سنابلَ القمح تلك، ولا تلك الثّمار على اختلاف أنواعها: التّين واللّوز والمشمش والتّوت. أكلنا من كلّ شيء حتّى شبعنا. وأكلت الطيور

والحيوانات والحشرات حتّى شبعت، ثمّ نمنا جميعًا في سلام آمنين. إذا شبعت البطون عمّ السلام والهدوء، وإذا جاعت أزهرت الجريمة.

كان موسمَ الفرح والمتعة، بنى النّاس فيه بيوتًا جديدةً، وتزوّج كثيرون، ولم نسمع أنّ أحدًا مات فيه أو قُتِل. فلم تُحْمَل النعوشُ ولم ندخل المقبرة إلّا لزيارة ضريح الوليّ الصّالح محتفلين بالزّردة... دخلناها فاتحين أبوابَ الفرح، راقصين ومُنشِدين. وظللنا على تلك الحال حتّى وقت الواقعة ونزلتْ علينا كجُرمٍ سماويّ يسقط فجأةً ويَنْتَثِر.

كنّا في بداية الصّيف، وقد بدأ موسم الحصاد باكرًا، وأكياس قمح السيّد بودان تتكدّس في كلّ مكان: في الفيرمة، في هنشير جبل بوكحيل، على الطّريق الفرعيّة التي تصل إلى المدينة، وكذلك أمام ديوان الحبوب وفي محطّة القطار على طول سكّة الحديد. السيّد بودان الذي أصابته الصّدمة، لم يتصوّر مطلقًا أنّ كونبا، عامله المفضّل والمدلّل سيقوم بتلك الفعلة. كان الشعور بالذّنب باديًا على ملامحه، لأنّه تركه حُرًّا، فتمادى كالعفريت. أمّا مدام كريستال فكانت تردّد: «أنبوسيبل... أنبوسيبل..!». ثمّ تضع يديها على رأسها وتقول: «أنبوسيبل... أنبوسيبل..!».

ومن هول الصّاعقه، كان الضّابط السوفاج يُطلق رصاصه في الهواء ويردّد: «سأُدخِل مسدّسي في مؤخّرة ذاك البربريّ، سأشرّح ابن المومس». أمّا الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج، فقد دفن الجنود الثلاثة في مقبرة الرّوم، ثمّ خطب في

النّاس برصانةٍ وهدوءٍ! لم يتوعّد يومَها أحدًا من أهل القرية. واكتفى بالقول إنّ الجنود ماتوا في سبيل الواجب.

السيّد بالاج عسكريّ يمارس مهنتَه على طريقة رجال السياسة. لم يرد مزيدًا من المواجهة مع الأهالي، ولاسيّما بعد أن أصبح اسمُ كونبا يجوب كلَّ دوّار وكلَّ بيتٍ وكلَّ جلسةٍ، جلسة رجالٍ أو أطفالٍ أو نساء. وقد تردّد صدى تلك الحادثة في الجبال والأودية والسهول وانتشر مع الرّياح الغربيّة والرّياح الشرقيّة. تناقلتها الأفواه في الأسواق والمحافل وزادَ النّاس في عدد القتلى ونسجُوا وقائع كثيرةً ومثيرةً، حتّى إذا تجاوز خبر الحادثة حدودَ الكاف باتّجاه الجزائر قالوا إنّ كونبا فجّر ثكنةً عسكريّةً فرنسيّةً وقتل ثلاثين جنديًّا واستولى على العتاد العسكري! انتشر الخبرُ وغمر المكانَ كالطوفان. وهذا ما كان يخشاه السيّد فرنسوا بالاج الذي اعترف في قرارة نفسه بأنّ الحادثة جريئةٌ وستعقُبها أحداثٌ أخرى أشدّ جرأةً ودمارًا.

دَعْنِي أَقُلْ لك إنّ تلك الحادثة جعلتنا نشعر بشيءٍ من النّخوة ولذّة الانتصار، بنوعٍ من الفخر والعزّة. كنّا دائمًا مهزومين ومقهورين ومُطيعين كنعاجٍ بائسة. فصار في قريتنا رجلٌ ضَرْبَتُهُ قاتلة. صار يمكن للدّماء الفرنسيّة أن تسيل بسهولةٍ، كدماء رجالنا وحيواناتنا، دماء سيدي عبد الله، ودماء الحمار الذي كان يحرث الأرض. «فرنسا أيضًا يمكن أن يُمرَّغَ أنفُها في التّراب. يمكن إذلالها!» كنّا نقول هذه الجملة في سرّنا، وحين يختلي

بعضُنا ببعضٍ نقولها ونحن نبتسم، ثمّ جهرنا بها علنًا ومرّاتٍ عديدةً حتّى اجتاحتنا القهقهات. قلناها واثقين وبنبرة المنتصرين: «مسكينة فرنسا»!

أنتَ أيضًا يمكنك أن تشاركنا فرحتنا وإن مرّت عليها عقود. فقُلْ: «مسكينة فرنسا». ثمّ ابتسم!

السيّد بالاج عالج الأمر بهدوءٍ وحزمٍ. بَلَغَنَا أنّه قال: «ليس للأهالي ذنبٌ في وقوع الجريمة». لم يعتقل منّا أحدًا ولم يحقّق مع أحد. ترك المسألةَ شخصيّةً بينه وبين كونبا. وبعد أن علّق ذلك البلاغ للعموم، كوّن جماعةً من رجاله المقرّبين تعمل في السرّ للقبض على الكونبطا حيًّا. كان العمدة منصور الطبّال واحدًا منهم. وقد وعَدَ العمدة بأنّه سيتتبّع أثرَ المجرم ويجده. بعد ذلك نصب السيّد بالاج المدفعَ الكبيرَ في مدخل القرية من جهة الغرب مقابل جبل العنز تمامًا، وأطلق منه قذائف عشوائيّةً ومتفرّقةً أصابت أطرافَ الجبل وعُمقَه. كانت طلقات تحذيرٍ لا غير، الغايةُ منها إثارة الرعب النائم في قلب الكونبطا وإيقاظه من الموت. لكنّ الكونبطا سيخبرني فيما بعد بأنّه كان يضحك عاليًا عندما تبلغ أذنيه تلك الطلقات، يضحك وهو ممدّد في كهفه ويقول: «إنّهم يضرطون الآن»!

بعد أسبوعٍ من تلك الحادثة تقريبًا، كنت جالسًا ليلًا على هضبة الإكليل. كان القمر بازغًا وكلّ شيءٍ ساكنًا وواضحًا. الضفادع تواصل نقيقها في الوادي الكبير، والنّسيم يهبُّ من جهة الجبل حاملًا معه رائحة الصّنوبر... كنت أفكّر وأتساءَل في الوقت نفسه: أين يمكن أن أجد كونبا الآن؟! حتّى

سمعت صافرة الفم تلك. فخفق قلبي وقمت مسرعًا. غادرت الهضبة واتّجهت إلى سفح الجبل. كان هناك ينتظرني بين أشجار الصنوبر والطحالب، مُلَثَّمًا تمامًا، في يده فأس وعلى كتفه بندقيّةٌ. أخذني من يدي وصعدنا نحو عمق الجبل. وعندما وصلنا أمام الكهف كنت أحسبُني دخلتُ جهنَّمَ وما أنا بخارجٍ منها أبدًا! كان المشيُ على المسرب المؤدّي إلى ذلك الكهف كالمشي على سكّينٍ حادٍّ وساخنٍ! سألته: «كيف دخلت هنا؟!»، فأجاب: «ستتعوّد عليه!».

وبالفعل، تعوّدتُ الذهابَ إلى الكهف كلّما حانت الفرصة. كنت أمدّه بالمؤونة مرّةً في الأسبوع تقريبًا، وأحيانًا أخرى بحسب الظّروف. وأنقل إليه أخبارَ الأهل والقرية وأُبلغه رسائلَ دادا صالحة وخطيبتِه زهرة. كانت دادا صالحة تقول في كلّ مرّة: «أخبره بأن يبقى حيًّا فهو آخر ما أملك في هذا العالم»! فأُطمئنها قائلًا: «إنّه أفعى بسبعة رؤوس! ستتغيّر الظّروف ويعود سالمًا». وحين أنصرف إلى نفسي، يصيبني اليأس تمامًا. كنت أخشى عليه، كما أخبرتك سابقًا، أخشى عليه من نفسه أكثر ممّا أخشى عليه من أعدائه!

تسلّق كونبا شجرةَ الصّنوبر العظيمة التي تقع أمام الكهف مباشرة... أغصانها السّميكة تمتدّ في كلّ الجهات وأعوادها متشابكةٌ وكثيفةٌ. تسلّقها بخفّةِ قردٍ حين سمع دويّ الطّائرات يقترب من الجبل... طائرة تطارد أخرى على علوٍّ منخفضٍ جدًّا. كانت النيران تُطلَق في كلّ حدبٍ وصوبٍ، حتّى وقع الانفجار الكبير عندما سقطت الطّائرة

الهاربة في وادي تاسة الذي يقسم الجبل إلى نصفين بين منطقتنا ومنطقة أولاد عيّار. ظلّت تزحف فوق أشجار الصّنوبر حتّى سقطت وتفتّتت وخمدت نيرانُها ودخانُها بالمياه العميقة. ظلّت الطّائرة المطارِدَة تحوم حول المكان، ولمّا تأكّدت من أنّ كلّ شيء انتهى غادرت.

كان كونبا يحبس أنفاسَه ويفكّر، ثمّ قال تلك الجملةَ التي أوقعتني أرضًا من الضحك حين ردّدها عليّ: «الشّياطين تتناكح!» وبعد ساعتين تقريبًا، لمّا شعر بأنّ كلّ شيءٍ صار آمنًا، تسلّل بين الأشجار والطحالب بحذرٍ شديدٍ حتّى سمع أنينًا قادمًا من أعلى الجبل. فلمّا رفع رأسَه رآه معلّقًا بين الأغصان الكثيفة. كان بين حياةٍ وموتٍ. حاول بصعوبةٍ تخليصه من بين الأغصان التي اضطُرّ إلى قطع بعضها حتّى تدحرج أرضًا. جرّده من مسدّسه وسكّينه وجرّه باتّجاه الكهف وهو يقول: «يبدو أنّه صيدٌ ألمانيٌّ ثمين... سأحتاج إلى هذا الخنزير المحرّم!».

داخل الكهف، خلع كونبا حذاءَ ذاك الجنديّ وقيّدَ رجلَيه ويدَيه. خلع سترته العسكريّة البنّية اللون وتفحّص صدرَه وظهرَه. كان يحمل كدماتٍ وجروحًا. أمّا الضّرر الأكبر فقد أصاب جبينَه ورقبتَه التي بَدَتْ شبه مسلوخة. جرّه إلى الخلف ووضع كتفه على جدار الكهف وهو على حالته تلك، شبه مغمًى عليه. أخذ الإناء من فوق الجرّة وسكب في فمه قليلًا من الماء، لكنّه لم يشرب منه شيئًا بل مال رأسه على اليمين وسقط أرضًا. وقف كونبا حائرًا وهو يقول لنفسه: «إنّه يموت ببطءٍ». جرّه

فوق حصيرٍ ولفّه بعد ذلك بغطاءٍ صوفيٍّ. ثمّ خرج وجلس أمام الكهف، وظلّ هناك يُدخّن سيجارةً ويفكّر في أمر هذا النّازيّ.

دعني الآن أحدّثك قليلًا عن الكهف المعزول عن العالم! ألم أَقُلْ لك إنّ كونبا كان أثناء شغله مع السيّد بودان يدبّر أمرًا مّا؟! ألم أَقُلْ لك إنّه كان يبيع القمح لأولاد عيّار وأولاد جلاص وعروش أخرى؟! ألم أَقُلْ لك إنّه كانت بينه وبين سيموني الإيطاليّ زوج ماريا المالطيّة أمورٌ سرّيّةٌ؟!

لمّا دخلتُ الكهفَ صارت الأمور واضحةً في ذهني تمامًا. رأيتُ صناديق خشبيّةً مليئةً بالأسلحة والذّخيرة المختلفة. بعضها في أكياسٍ وبعضها مُلقًى على الأرض عند نهاية الكهف. كان كونبا يبيع القمح والأسلحة لتلك العروش! يتسلّم الأسلحة من سيموني بطريقةٍ لا أعلمها، ويخزّنها في الكهف ثمّ يبيعها قطعًا بحسب الطلب: بنادق، ديناميت وقنابل يدويّة. وكانت تلك الأسلحة تُهرَّب داخل أكياس القمح على دفعاتٍ صغيرةٍ جدًّا. الآن علمت أنّ كونبا كان دائم التّردّد على الكهف. وعرفتُ أنّ المهرّبين كانوا يتنكّرون في هيئة باعةٍ متجوّلين: باعة الحبوب والملح والتّوابل والأقمشة. والمهمّة الكبرى التي كانت تنتظر كونبا بعد أن جمَع عددًا كبيرًا من العتاد هي نقل الأسلحة إلى الجبال الأخرى. كان يتهيّأ لبداية مهمّته الجديدة: البائع المتجوّل، صاحب البغل الرّماديّ الضّخم. فقد لمحتُ داخل الكهف، في نهايته تحديدًا، حيث يميل إلى ضيق شديدٍ، فؤوسًا ومعاول وخناجر وحبالًا... وأشياء أخرى

مغطّاةً كما ينبغي.

داخل الكهف توجد حياةٌ هادئةٌ ودافئة... شموعٌ زيتيّةٌ، وقنديلان، إذا تعطّل أحدُها يُضَاءُ الآخر، حصيرٌ كبيرٌ يسع ثلاثة أشخاصٍ أو أربعة، وأغطيةٌ صوفيّةٌ وجرّةُ ماءٍ كبيرةٌ وأخرى صغيرةٌ، إناء من الطّين موضوعٌ فوق الجرّة الكبيرة، ليس لشرب الماء فقط بل لشرب اللّبن أيضًا... وأوعيةٌ أخرى من الطّين ومن خشب الزّيتون للطّبخ.

في مدخل الكهف على اليمين حطبٌ مقطوعٌ بعنايةٍ. وقد صنع الكونبطا من أعواد الصّنوبر بابًا يضعه أمام الكهف ليلًا كي لا تدخله الذّئاب والخنازير والثّعالب. عندما يكون الباب موضوعًا على الكهف لا تكاد تعلم أنّ شيئًا وراءه. باب الكهف يفتح باتّجاه الشّرق، لذلك لا تُدركه رياح الشّتاء وأمطارُه القادمة من الغرب. الشيء الوحيد المزعج هو أنّ هذا الكهف لا تدخله الشمس، فترتفع رطوبته صيفًا وشتاءً. الغار الكبير لا يبتعد كثيرًا عن قمّة جبل العنز، فإذا سرتَ يسارًا ثمّ انحدرتَ إلى أسفل في تلك الغابة الكثيفة يمكنك أن ترى الجسر الفرنسيّ المبنيّ فوق وادي تاسه، وهو يربط بين جبل العنز وجبل أولاد عيّار. كما يمكنكَ أن تلمح السكّة الحديديّة الممتدّة على طول الجسر. وغالبًا ما يسير القطار ببطءٍ شديدٍ حين يعبر تلك المنطقة. أمّا الوصول إلى الكهف فيصعب حتّى على الجنّ والشياطين. لا أحد تقريبًا يغامر بدخول تلك المنطقة.

كان كونبا في كهفه سعيدًا ومرتاحَ البال، يشعر بأنّه أدّى واجبه كما ينبغي بعد موت أبيه

وتسفير أخيه. أصبح يقول: «أنا وفرنسا متعادلان... قتلٌ بقتلٍ!». ثمّ بدأ يفكّر في الجولة الحاسمة. ذاك الرّجل لا يرضيه التّعادل في معركة أبدًا. بدأ يتنفّس بطلاقةٍ وحرّيّةٍ، حتّى سقط هذا الجنديّ أمامه. أذكر أنّه قال: «حتّى الأشياء السّاقطة من الجحيم يمكن أن تكون نافعة!».

كانت قد مرّت ليلةٌ ونصف يومٍ تقريبًا على سقوطه، لمّا دخلتُ الكهف مساء. كنتُ أحمل ما تيسّر من المؤونة: سلّةً فيها خبزُ شعيرٍ وزيتُ زيتونٍ وجرّةٌ صغيرةٌ من اللّبن. كان يستلقي فاتحًا عينيه ينظر إلى أعلى، لا يكاد يتحرّك، ويسعل من حينٍ إلى آخر. أظنّه لم يتحمّل رطوبةَ الكهف الشّديدةَ ورائحةَ المكان. ربط كونبا رأسه بخرقةٍ مضمّدًا جراحَه. ولمّا سألته عنه، قال: «خنزير ألمانيّ، ظننته في البداية ضابطًا فرنسيًّا قذفه الألمان فوق رؤوسنا، لكنّ لكنته الفرنسيّة الغريبة وزيّه العسكريّ جعلاني أدرك بسرعةٍ أنّ بعض الظنّ إثم». ثمّ حدّثني بلغته الفاحشة عن تفاصيل المعركة ونكاح الشياطين.

سألت كونبا: «ماذا ستفعل به الآن؟!».

فأجاب بحماسٍ: «لم أحسم بعدُ في أمره، لكنّه سينفعني بالتأكيد».

اقتربت من الجنديّ النائم وخاطبتُ كونبا بالفرنسيّة عمدًا: «هذا أسيرٌ عندنا، وعلينا أن نعامله بإحسانٍ وكرم».

فقال وهو يسكب زيت الزّيتون في صحنٍ من الفخّار: «من دخل كهف الكونبطا فهو آمنٌ.

سأدعه يستريح حتّى يُشفى، وبعد ذلك أنظر في ما يمكنني أن أفعل به». ثمّ رفع رأسه قائلًا: «يجب أن تأتي غدًا بضمّاداتٍ وأدويةٍ من محلّ التمريض وتحمل رسالةً سرّيّةً جدًّا إلى سيموني. أحتاج إلى سيموني في أسرع وقتٍ. يجب أن أراه». ثمّ تمدّدنا خارج الكهف، وظلّ يسألني عن حال أمّه وأخواته البنات وزهرة حبيبة قلبه.

غادرتُ الكهفَ متخفّيًا وأنا أفكّر في أمر ذلك الجرمانيّ الذي سقط في جبل العنز فجأةً. فقبل تلك اللّيلة لم أرَ ألمانيًّا في حياتي. وإنّما قرأتُ عن الألمان في كتب التاريخ فحسب. قرأت كيف خرج الوندال من بلاد جرمانيا مجتازين البحرَ المتوسّط عبر إسبانيا ليحتلّوا قرطاج مدّةَ ألف سنةٍ أو أكثر، وليكونوا سببًا في سقوط روما. ولم يذكر التاريخ أنّهم عادوا إلى بلادهم، بل جعلوا من هذه الأرض موطنًا. ثمّ شرعتُ أحصي كلّ الأقوام التي استعمرتنا حتّى وصلت إلى فرنسا. فأدركتُ أنّ هناك سرًّا في هذه الأرض يجعلها مغريةً وجذّابةً إلى هذا الحدّ!

وأنا أسير بين الشّعاب الضيّقة، تذكّرتُ ما قاله لنا الشّيخ حسين ونحن نناقش أمرَ الاستعمار. كنّا يومَها نحاول أن نختار: أيّهما أفضل لنا: الألمان أم الفرنسيّون؟! في تلك الفترة كنّا مجبَرين على التّعامل مع أحدهما، أي «التّعامل مع عذاب الله أو الطوفان!» حسب عبارة الشيخ مصطفى الدرويش. أغلبنا فضّل الوقوف وراء فرنسا، وآخرون وهم أقلّيّةٌ مالوا إلى صفّ الألمان ومنهم الكونبطا طبعًا. وكان الشيخ حسين ينصحنا دائمًا

بالتحلّي بالحكمة والصّبر وعدم التهوّر، وكلّما تكلّم عن الاستعمار يحاول إقناعنا بالوقوف إلى جانب فرنسا في أيّامها الصّعبة عساها بعد ذلك أن تردّ لنا الجميل بأجمل منه وتغادر أرضنا بشرف. يومَها رفض كونبا، وقال: «لا يشرّفني التّعامل مع الجبناء!». وهو بطبيعة الحال يقصد ما فعله هتلر بالفرنسيّين لمّا دخل بجيوشه باريس على نحوٍ مذلٍّ ومهينٍ لم يحدث في تاريخ الحروب إلّا نادرًا. «عدوُّ عدوِّي صديقي!»، بهذا المنطق كان «كونبا يفكّر». ثمّ إنّ ما يربطه بفرنسا ثأرٌ شخصيٌّ تجاوزَ مسألةَ الاستعمار. قال لي مرّة: «حتّى إن غادرت فرنسا اليوم، فسألحق بها غدًا لأطعنها بخنجري هذا ثمّ أعود».

الشّيخ حسين، كما قلت لك، يفهم كثيرًا في السياسة. يتابع الأخبارَ بانتباهٍ شديدٍ... غالبًا ما يسحب لاقطَ ذبذبات الإرسال من مذياعه الصغير إلى أقصاه أو يصعد المرتفعات لالتقاط محطّات مختلفة. كان المذياعَ الوحيد الذي رأيته في حياتي. يقال إنّ شعبان صاحب المقهى اشتراه من اليهوديّ ميشال لمّا كان يتردّد على العاصمة لبيع القطع الأثريّة. يحدّثنا الشّيخ حسين في السّياسة، لكنّه لا يمارسها. يقول إنّها مقرفةٌ تلوّث الدّين وتجبر صاحبَها على الكذب والنّفاق. لذلك رفض منصبَ العمدة رغم إجماع النّاس عليه.

وكان الشّيخ حسين يردّد في أكثر من مناسبة: «ليست لهتلر سياسةٌ واضحةٌ مع العرب والمسلمين، إنّه رجلٌ غامضٌ وستكون نهايتُه غامضة». أخبرنا أيضًا بأنّ هتلر قال في أحد

خطاباته العنيفة والصّاخبة: «العرب قومٌ يحتلّون المرتبة الرابعة عشرة، بعد القمل».

في الحقيقة، لا أعلم ما إذا كان هتلر قال ذلك حقًّا أم لا. وَهَبْ أنّه قالها فعلًا، فقوله هذا لن يزعجني أبدًا. فأنا لا أعرف أَصْلِي ولا يهمّني كثيرًا، والحقّ أنّي لا أريد الخوضَ في مسألة كهذه. لطالما كانت أرضُنا منفتحةً على الجميع وللجميع، كسهلٍ منبسطٍ يتّسع لكلّ شيء. وكلّ من مرّ بها استراح فيها وأكل من ثمرها وشرب من مائها واستنشق هواءها بطلاقةٍ. وحين ينام ليلًا تأتيه الرغبة في المعاشرة. أرضنا عبارة عن مقوٍّ جنسيٍّ رهيبٍ. لذلك نحن أبناء سفرٍ، والأصل لا يعنينا بتاتًا. بل من الأفضل ألّا نخوض في هذا الأمر حتّى لا نحرج أجدادَنا وجدّاتِنا. دع هذا الأمر مخفيًّا ومجهولًا. النّبش في الأصول كالنّبش بعودٍ يابسٍ في روث البقر، عندما تحرّكه، تخرج رائحته الكريهة.

أظنّ أنّ هتلر قال تلك الجملة صراحةً وعلنًا وبصوتٍ جهوريٍّ! قالها أثناء خطاباته الصّارخة تلك، قالها غاضبًا واللّعابُ يتطاير من بين شاربيه. حتّى إن هو قالها في وجوهنا، أترانا كنّا قادرين على ردّه؟! لا، إطلاقًا. كان سيدوسنا ويمرّ إلى شعبٍ آخر أكثر جاذبيّةً منّا يخوض معه تجربة الحرب. الرّجل القويّ غالبًا ما يختار عدوًّا يليق به. أمّا نحن وبكلّ صراحةٍ -وهذا سرٌّ بيني وبينك طبعًا- نحن يليق بنا القمل. عندما أنظر اليوم إلى أهل قريتي وهم يدبّون على الأرض بلا وجهةٍ، أتذكّر هتلر فأبتسم، ثمّ أردّد وأنا أشير إليهم بإصبعي: «هؤلاء

هم القوم الذين يحتلّون المرتبة الرابعة عشرة، بعد القمل».

أقول هذا بلا خجلٍ أو حرج... أقوله وأنا أعي جيّدًا ما أقول. لأنّ هتلر القويّ النّظيفَ مات ببشاعةٍ، والقمل لا يموت! ها هو القمل يعشّش في رؤوس أهل قريتنا ويتكاثر. لو سألتني، هل رأيت قملهم؟! سأقول لك: «أقسم لك بالحيّ الذي بعث النّور في الكون والقلوبِ أنّني رأيت قملهم». سأصف لك بعد حينٍ ذاك القمل الذي يلعب الغمّيضة على أسطح رؤوسهم.

أمّا الآن، فَلْنَعُدْ إلى الجرمانيّ الأخير، الجنديّ القويّ النّظيف الذي سقط فجأةً في كهف الكونبطا.

في صباح اليوم التالي، اشتريتُ الأدويةَ كما أمرني «كونبا». وأنا أغادر محلَّ التمريض، صادفني ذلك الكلب، العمدة منصور الطبّال. «هل أصابك مكروهٌ؟!»، وقف يسأل. أجبت: «لا، إطلاقًا، جراحٌ بسيطةٌ أصابت الأطفال وهم يلعبون». تسمّر في مكانه يتأمّلني وأنا أمضي بسرعةٍ نحو محلّ ماريا بحثًا عن سيموني لأسلّمه الرّسالة. حدّثتُ نفسي بأنّ عليّ أن أَحْذَرَ هذا الحيوان المقرف البشع. لأنّ الذكاء لا يعرف طريقًا إلى عقله إلّا حين يستيقظ الشرّ.

لمّا رآني سيموني، وكان جالسًا في محلّ الأقمشة، ضحك عاليًا وقال: «كنت أنتظرك». قلت في سرّي: «أمّا الآن، فقد وقعت في حفرة الشّياطين وما أنا بخارج منها إلّا بمصيبة». ثمّ دعوت الله أن يفرّج همّي.

في مساء اليوم ذاته عُدْتُ إلى الكهف ومعي الدّواءُ والسرُّ الذي همس به سيموني في أذني.

حتّى لا أطيل عليك، تعافى ضيفُنا وصار يتكلّم ويأكل ويستحمّ ويغسل أسنانَه البيضاء النّاصعة كلّ صباحٍ. كان طويلَ القامة، بكتفَيْن عريضَتَيْن وابتسامةٍ جميلة. وحين يمارس الرّياضة كلّ صباحٍ جريًا وقفزًا بين الأشجار، يتأمّله كونبا قائلًا: «خنزير ألمانيّ قويّ!» كان يصعد حتّى قمّةِ الجبل، يقف هناك يتنفّس بعمقٍ فاتحًا ذراعَيه، ثمّ يبدأ بتحديد جهات الدّنيا الأربع... ويشير إلى هدفه، ثمّ يقول: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السّوداء». وبعد أن تخلّص من بدلته العسكريّة، أصبح يلبس مثلنا. بل وضع على رأسه عمامةً بنّيّة اللّون زادت وجهَه ضياءً وجمالًا فصار من الصّعب القول إنّ هذا الرّجل ذو أصول ألمانيّة. دعني أَقُلْ إنّه صار متوسّط الملامح ولاسيّما بعد أن صبغت أشعّةُ الشّمس الحارقةُ وجهَه باحمرارٍ يميل إلى السمرة قليلًا. ثمّ توطّدت علاقته بكونبا وصارا صديقَين حميمَين. تقابلا كذئبين في غابة مليئة بالصّيّادين، فاقتسما الحياة بجسدَين وقلبٍ واحدٍ.

كان اسمه «مارك»، أمّا لقبُه فغالبًا ما يغيب عنّي كما أخبرتك من قبل. كنّا كلّما نطقنا لقبه، ضحكنا عاليًا، لأنّ له معنى قبيحًا في لغتنا العربيّة! الآن أتذكّر الكلمة القبيحة، ولا أتذكّر الاسم. لذلك سأكتفي بالقول هو مارك الجرمانيّ. صار في ما بعد «جرمي»، كما بدأ كونبا يناديه، ثمّ أنا، ثمّ سيموني وماريا بعد ذلك. «جرمي» هو آخر الجنود النّازيّين في قريتنا. عندما رأيته أوّلَ

مرّةٍ كان يلبس لباسًا عسكريًّا بُنّيًّا، أظنّ أنّ الخوذة طارت من فوق رأسه أثناء السقوط. ولم تكن ملامح وجهه تبدو ألمانيّة كما تتصوّر. أظنّه بقي أيّامًا طويلةً في الصّحراء. في الحقيقة لم يحدّثنا خلال فترة تعارفنا الأولى في تفاصيل كثيرةٍ، وأنا وكونبا لم نزعجه بالأسئلة. كلُّ ما ذكره، وباقتضابٍ شديدٍ، هو أنّه كان من ضمن طيّاري الجنرال رومل الذين شاركوا في حرب العلم، ثمّ انتقل إلى معسكر المحور في سيسيليا، ومن هناك شارك في عددٍ من العمليّات في ليبيا والبحر المتوسّط ومناطق مختلفةٍ من تونس. وكانت آخرها عمليّة الوطن القبليّ.

لمّا حاصرت جيوش الحلفاء قوّات المحور في الوطن القبليّ، استسلم كثيرون منهم، وقُتِل من قُتِل واختفى من اختفى. وكان «جرمي» من الطيّارين الفارّين والنّاجين إذْ قفز من طائرته بأعجوبةٍ قبل تحطّمها. فأشجارُ الصّنوبر الكثيفةُ والطحالبُ منعت اصطدامَه بالأرض فنجا من الموت بقدرة القدير. أخبرنا في ما بعد بأنّه كان الطيّار الخلفيّ في تلك الطّائرة الحربيّة. كانت مهمّته رميَ القنابل من السّماء على معسكرات العدوّ. أمّا القائد فقد قُتِل عند سقوط الطائرة وتفجّرها. لقد قام «جرمي» بمغامرة انتهت بعمرٍ جديدٍ. فالطائرة الفرنسيّة المطارِدة عادت أدراجَها حين رأت الدخان وانفجارَ الطائرة المحطّمة. أظنّها كانت قادمة من الوطن القبليّ. ففي قريتنا لا يوجد مهبط طائرات، والمهبط الأقرب كان يقع بين مدينة تبرسق ومدينة سوق الثلاثاء بالقرب

من الطريق الرئيسيّة التي تربط العاصمة بمدينة الكاف. كان بالأساس مهبطًا للحالات الطّارئة.

تلك الصائفة انتهت بهزيمة المحور وانتصار الحلفاء، انتهت على أرضنا نحن، لأنّني لم أكن أعلم بتفاصيل الحرب الرئيسيّة في أوروبا. كلّ ما قيل لنا وقتَها يؤكّد أنّ ألمانيا انهزمت وفرنسا انتصرت، فرنسا التي ارتخت يدها قليلًا إذ انشغلت عنّا بحربها مع الألمان. لم تكن الأخبار تأتينا بكثافةٍ من العاصمة. كان الوضع متوتّرًا جدًّا، وكنّا في حالةِ ترقّب. حتّى إنّ حكومة فيشي لم تصل سلطتها فعليًّا إلى قريتنا. بقي الوضع كما هو عليه تمامًا: المسؤولون الفرنسيّون الكبار في أماكنهم، السيّد بالاج بقي هو الحاكم العسكريّ، وظلّ المعمّرون منشغلين بالأرض كأنّ شيئًا لم يكن.

بقينا نحن أيضًا نعمل منضبطين وملتزمين بخطاب الضابط السوفاج الذي لم يشمله التّغيير أو التّرحيل أو الموت. بل إنّه ازداد بعد تلك الصائفة قرفًا وظلمًا وجبروتًا وكان يتوعّد دائمًا بتفريغ رصاصات مسدّسه كلّها في مؤخّرة الكونبطا.

قبل تلك الصائفة، قدمت الكثير من العائلات الفرنسيّة اللّاجئة واستقرّت بقريتنا. ثمّ رحل أغلبها إلى العاصمة، ولاسيّما عائلات الضبّاط والجنود، وأقاربهم. كانت تلك العائلات هاربةً من جحيم النازيّين ومن استعمار هتلر المذلّ لفرنسا. وقد كنّا نسأل، ونحن في حيرةٍ، كيف لهذه الأمّة العظيمة -فرنسا- هذه الإمبراطوريّة التي تستعمر أكثر من نصف إفريقيا وأجزاء في الشّرق

وآسيا... كيف يحدث أن تسقط هكذا بسرعةٍ وبتلك الطريقة!؟ كنت أتخيّل الفرنسيّين وهم يتألّمون... أرى ذلّهم وهوانهم في عيونهم... أراه في تقاسيم وجوههم وأسمعه حتّى في نبرات أصواتهم. كانوا أذلّاء على أرضهم، أذلّاء على أرضنا، أذلّاء على كلّ تلك الأراضي التي يملكونها أو يستعمرونها. وكان الجنرال شارل ديغول يصرخ من لندن ويتوسّل المساعدة.

انتهت تلك الصّائفة بتقهقر المحور، لكنّ رأس الأفعى ما يزال في برلين. «وعندما تكون برلين حيّةً فإنّ كلّ شيءٍ ممكنٌ». هكذا قال جرمي.

في تلك الصّائفة كانت الأمور داخل الكهف تزداد وضوحًا يومًا بعد يومٍ. ظلّ «جرمي» كعادته هادئًا جدًّا ولا يتكلّم كثيرًا. كان في أغلب الأحيان مطيعًا للكونبطا ولا يناقشه على الإطلاق. يتجوّل صباحًا حتّى يطلّ على ضفاف الوادي الكبير، يشاهد من بعيدٍ القطار الذي يعبر الجسرَ الفرنسيَّ، ثمّ يعود إلى الكهف. في المساء يصعد إلى قمّة الجبل، يتأمّل الأماكن ويُنهي جولتَه بتلك الجملة المعهودة: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السوداء».

سألته مرّةً عن سرّ تلك الغابة؟! ذكر لي أنّها المنطقة التي وُلِدَ فيها بجنوب ألمانيا. ترك أمَّه وأباه وأختَه التي تصغره بثلاث سنواتٍ عندما جُنِّد في جيش الطيران بعد أن كان طالبًا في كلّيّة الهندسة. الآن مرّت على ذلك خمس سنواتٍ أو أكثر... لكنّها بمقدار خمسين سنةً كما يقول. كانت الأحداث متسارعةً جدًّا وسارت بطريقةٍ جنونيّةٍ.

لم يعرف خلالها الراحة الجسديّة ولا الذهنيّة. ولم يتصوّر أنّ الأمور ستصل إلى هذا الحدّ. اليوم بدأ يفكّر بعمقٍ. وغالبا ما كان ينظر إلى السماء أو ينبش التّراب بعودٍ يابسٍ. وفي بعض الأحيان يتسلّق شجرة الصّنوبر العظيمة التي تنتصب أمام الكهف مباشرةً من جهة اليسار. يظلّ يتنقّل بين أغصانها غصنًا غصنًا، وعندما يتعب يتمدّد على غصنها الكبير، غصنٍ عريضٍ يتّجه إلى الغرب كأنّه جذعٌ منفصلٌ قائمٌ بذاته. يضع الجرمانيّ ظهرَه عليه، ورجلاه إلى أسفل، ويداه على صدره، ثمّ يغمض عينيه ويستسلم كالأموات.

سأعود بعد قليلٍ إلى ذلك الغصن الكبير. هو أيضًا سيكون له شأنٌ في حكايتنا... سيكون شاهدًا على جريمة. فالحرب كونيّةٌ كما نقول، وحتّى الأشجار والأحجار والحيوانات كانت مجبرةً على دخولها!

كنت أسأل «كونبا»: «فيمَ يفكّر جرمي؟!»، فيجيبني: «فَلْنَدَعْهُ يَسْتَرِح الآن، ستكون له مهمّاتٌ صعبةٌ حالما أتّفق مع سيمون».

كان كونبا يناديه أحيانا بـ«الجرو جرمي». أسأله: «هل هو جرو كلابٍ؟!»، فيضحك عاليًا ويقول بالفرنسيّة وهو يشير إلى جرمي: «لا، إنّه جرو خنازير». لكنّ ذلك لا يغضب الجرمانيّ مطلقًا. بل كان يبتسم ويجيب: «أمّا أنت فَجَمَلٌ أحمق». فيهجم عليه كونبا وهو يردّد:

«أتريد أن تصارع الجمل؟!». ثمّ ينظر إليّ سائلًا: «أتريد أن تشاهد نزالًا بين خنزير من الشّمال وجملٍ من الجنوب؟!». كانا أحيانًا يتصارعان فعلًا حتّى

يتدحرجا إلى أسفل. ثمّ يستلقيان أرضًا. ولكنّهما سرعان ما يعودان إلى الكهف.

في غار الذئب أصبح للكونبطا رفيقٌ. وكان قبل ذلك يختبئ حينًا ويظهر آخر. أمّا الآن، وبعد الظهور المفاجئ للجرمانيّ فقد أصبح أكثر حذرًا. قبل ذلك كان يهاجم ولا يبالي، أمّا الآن فكأنّي به غيّر خطّته وأصبح حريصًا على الاختباء. في الحقيقة، لم أكن أعرف ما يدور برأسه حتّى تمّ ذلك اللّقاء الأوّل مع سيموني الإيطاليّ.

(5)

طال انتظار البائع المتجول...

طال الوقتُ على كونبا وهو ينتظر داخل الكهف بعد أن بلّغتُه رسالةَ سيموني السرّيّةَ جدًّا. طال الوقت حتّى كاد صبرُه ينفد، وكاد يغامر برمي نفسه في الجحيم، لولا ذلك الصّيد الثّمين الذي نزل في كهفه صدفةً فصار يلازمه كأنفاسه ليلَ نهار.

كانت الشمس بازغةً في النهار، واللّيالي مضاءةً، والحركة كثيفةً. في الأثناء سافر سيموني سفراته تلك. كان يتنقّل كرحّالةٍ بين تونس وإيطاليا والجزائر والمغرب، وبين مناطق أخرى عديدةٍ من العالم لم يذكرها لنا. وكان لا بدّ من الانتظار، انتظار ليلةٍ تتلبّد فيها السّماء بالسّحب الرّعدية وتغيب الشّمس والقمرُ وكلّ العيون المفتوحة التى زرعها السيّد فرنسوا بالاج في عمق القرية وأطرافها.

في تلك اللّيلة الخريفيّة، تسلّل كونبا متنكّرًا إلى بيت سيموني، و«جرمي»خلفه يتبعه كطفل. كانت تلك أولى مغامراته خارج الكهف. دخلَا البيتَ القائم في أطراف المدينة مباشرةً بعد نهاية حقول الزّيتون. بعد مغادرة الجبل سارَا في المسلك الفلاحيّ الموازي لسكّة القطار. كانت أشجار الصبّار تحيط بالسكّة من الجهتين أمّا المسرب فتكاد تخفيه أشجار الأكاسيا الخضراء المتشابكة الأغصان، تلك الأشجار الكثيفة زرَعها المعمّران «سيباستيان» و«بودان» لتثبيت التّربة

وحمايتها من الانجراف، وجعلاها سياجًا لحقول الكروم من أجل حمايتها من الماشية السائبة.

الطريق الفلاحيّة آمنةٌ جدًّا وتوفّر لسالكها فرصةً كبيرةً للاختباء إذا حدث أيّ طارئٍ. وقريبًا منها يكمن وادي تاسة، وهو معروف بمغاور عديدةٍ وضيّقةٍ إذا دخلها شخصٌ صَعُبَ التفطّن إلى وجوده. أتصوّر أنّ كونبا خبيرٌ بتلك المسالك ويعرف من أين يدخل وكيف يخرج ومتى يفعل ذلك.

داخل البيت جلس كونبا وسيموني في المطبخ يتحدّثان بأصواتٍ خافتةٍ جدًّا كأنّهما دخلا في الموضوع مباشرةً. يمكنني القول إنّهما يشرّحان ذلك السرّ. أمّا «مارك» فجلس على طرفِ أريكةٍ في الصّالون يتأمّل اللّوحاتِ المعلّقةَ على الحائط. شدَّت انتباهَه لوحةٌ تحمل رسمًا لقاربٍ خشبيٍّ، نصفُه في البحر ونصفُه الآخر على الرّمل، والمُجذّفان يتمدّدان في وسطه يمينًا ويسارًا كجناحَي طائرٍ عاجزٍ عن التّحليق في سماء الحرّية. ظلّ ينظر إلى تلك اللّوحة وكأنّه كان يحدّث نفسه: «أنا مثل هذا القارب: نصفي حيٌّ، ونصفي الآخر ميّتٌ». ثمّ سرح في عمق زرقة البحر، حتّى سألته ماريا وهي تمدّ إليه كأس نبيذٍ: «هل أعجبتك الصّورة؟!». واسترسلت في الحديث من دون أن تنتظر منه إجابة: «هذه كلّها رسوماتي. اللّيل هنا طويلٌ ومملٌّ وفي الخارج لا يوجد شيء. ثمّ إنّ سفرات سيموني العديدة جعلتني أقضّي أيّامًا وليالِيَ طويلةً وحيدةً، بالإضافة إلى أنّني أحببت الرّسم منذ صغري. كنت أتمنّى أن أصبح رسّامةً معروفةً، أتنقّل بين موانئ العالم وأرسمها».

قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامةً عريضةً كأنّها سعدت بوجود شخص انتبه إلى الشّيء الذي تحبّ الحديث عنه. وظلّت تتحدّث عن تفاصيل الرّسم وعن كيفيّة مزج الألوان وعلاقتها بالضّوء والفصول ونفسيّة الإنسان. ذكرت له ألوانَها المفضّلة والمناطق التي تمنّت زيارتَها ورسمها. بعد ذلك حدّثته عن الرسّامين الكبار الذين تفضّلهم حتّى انتهت إلى الحديث عن الرسّام الألمانيّ «أوغوست ماكي»، الرسّام الذي زار تونس وظلّ يتتبّع الضوء ويستدرجه إلى لوحاته من سيدي بوسعيد إلى القيروان.

لم يتحرّك الجرمانيّ من مكانه تلك اللّيلة. ربّما كان يسأل نفسه: هل تعلم هذه الثرثارةُ أنّ من تُحدِّثه جنديٌّ نازيٌّ متنكّرٌ؟! وكيف سيكون ردّ فعلها لو علمت بذلك؟! وبالخصوص بعد أن أخبره الكونبطا بأنّ «ماريا» مالطيّةٌ ذات أصولٍ يهوديّةٍ. كان مرتبكًا وشبهَ جامدٍ. ظلّ يستمع مطأطئًا ولا يكاد يرفع رأسَه للنظر في عينيها، كأنّه يشعر بالخجل أمامها. كان يضمّ كفّيْه وقد تشابكت أصابع يدَيه محاولًا تحريكها بطريقةٍ تنمّ عن توتّرٍ بالغٍ. ورغم ذلك حرّك شفتَيه وسألها: «كم يبعد البحر من هنا؟» فأجابت بسرعةٍ وهي تضحك: «أتريد الهرب على متن ذلك القارب؟!». فازداد ارتباكه. ثمّ سأل مرّةً أخرى لتبديد ذلك الشّعور المقرف الذي اجتاحه محاولًا استرجاع هدوئه وثقته بنفسه: «هل تعرفين أين يعيش الرسّام الألمانيّ أوغوست ماكي الآن!» فقالت له: «للأسف مات جنديًّا في الحرب العالميّة الأولى!».

في تلك اللّحظة اختار «مارك» الصّمتَ إلى الأبد. ظلّت «ماريا» تتكلّم وتبتسم وتشير بيديها ذات اليمين وذات الشمال، أمّا هو فلم يكن يستمع إليها مطلقًا. ثمّ بدا عليه الحزن وبدأ يشعر بالضّيق، وكأنّه اكتشف أنّ هذه الرسّامة الملعونة، زوجة هذا المافيوزيّ الإيطاليّ سيموني تاجر السّلاح والحشيش، هذه المرأة التي تبدو غبيّة، ترتّب لأمر مّا. وحينما سمع كونبا يضحك بصوتٍ مرتفعٍ جدًّا تراجع عن خيالاته تلك وظلّ ينظر إلى كونبا وكأنّه يقول: «حياتي معلّقةٌ بهذا البربريّ الأحمق». ثمّ عاد يسرّح بصره داخل الصالون حتّى وقعت عيناه على ذلك الكمان الموضوع فوق خزانةٍ بنّيّةِ اللّون تبدو مثل تحفةٍ أثريّة، تحفةٍ مملوءةٍ بالأطباق والصحون والأكواب. ولمّا وجّه عينيه صوبَ الكمان، عادت ماريا من جديدٍ وسألته: «أتريد العزف؟» فزمّ شفتيه كما لو أنّه يريد أن يقول: «تبًّا لهذه الشريرة التي لا تكفّ عن ملاحقتي!»، ثمّ أجاب: «لا.. لا... إطلاقًا». ولعلّه أكمل الجملة في صدره: «أريد فقط عزف لحن نهايتي في هذا المكان المقرف من الأرض».

ذلك الكمان سيكون منبعًا لمعزوفة رهيبة هزّت جبلَ العنز... هزّتني أنا أيضًا وحتّى ذلك العنيف كونبا. ولكن دعنا لا نتعجّل الآن، فسوف يأتي دور الكمان عندما تستقرّ الأمور وتسكن المشاعر في القلوب الموكلة إليها.

في الأثناء رسم سيموني الخطّة مع الكونبطا. «الجرماني سيفيد جدًّا!». هذا ما اتّفقا عليه. أوصى سيموني كونبا بأن يستفيد من خبرات

هذا الجرمانيّ ويتعلّم منه، فهو يبقى جنديًّا نظاميًّا تعلّم وتدرّب ثمّ جرّب الكثير، وصمتُه يخفي الكثير من القوّة رغم معرفته بأنّه وقع في شبه أسر. سيموني يفكّر بطريقة رجال المافيا، ويبرم صفقاته حتّى مع الشّياطين. ثمّ إنّ الكونبطا يمسك بخيوطٍ كثيرةٍ ومهمّةٍ في هذه اللّعبة يستحيل معها تقريبًا أن يقدم سيموني على عمَلٍ يضرّ به وبالجرمانيّ. «الأسلحة متوفّرةٌ ويجب أن نتحرّك الآن!». قالها سيموني وقام ليُعِدَّ القهوة بنفسه، القهوة التي تجعل العقل ينشط بعد النّبيذ.

سيموني الإيطاليّ هو من علّمنا كيفيّة إعداد القهوة كما ينبغي، وعلّمنا كيف نحتسيها... وبفضلها صار صديق الجميع من أهالٍ وفرنسيّين. ضحكاته العالية تخفي خبثًا كثيرًا في أعماقه. هو رجل قصيرٌ وممتلئٌ، شعرُه أسود طويلٌ يمشطه إلى الخلف. يضع عليه زيتًا لامعًا وفي غالب الأحيان يربطه. أمّا في الشّتاء فيضع على رأسه «مارسياز» بنّيّةَ اللّون ويلبس «جاكيت» من الجلد الأحمر.

عندما جعل السيّد بالاج من قريتنا مدينةً، جاء سيموني من العاصمة وفتح محلًّا كبيرًا لبيع الأقمشة. كان يتعاطى التجارة، يبيع بالتّفصيل وبالجملة. بالإضافة إلى أنّه يجلب ملابسَ أنيقةً جلديّةً وعطورًا وحقائب يدويّةً وغيرها، تحت الطّلب، لنساء العسكريّين الفرنسيّين. هو رجلٌ ذو علاقاتٍ كثيرةٍ ومتشعّبة. وقد علمتُ أنّه كان صديقًا للسيّد بودان، وهو الذي دلّه على قريتنا،

ثمّ لحقت به ماريا التي كنّا غالبًا ما نراها مع السيّدة كريستال.

كان «سيموني» و«ماريا» يتشاجران أغلبَ الأوقات بصوتٍ مرتفعٍ في المتجر. ويمكن لأيّ شخصٍ قريبٍ منهما أن يفهم أنّ ماريا ليست سعيدةً تمامًا. أحيانًا أسأل نفسي ما الذي جمع بينهما؟! فقد كانت «ماريا» تقاربنا سنًّا في ذاك الوقت، أمّا «سيموني» فكان في الأربعينات من عمره.

كان «ميشال»، خال ماريا، يتردّد على زيارتها من حين إلى آخر. عرض عليها أكثر من مرّةٍ العودةَ إلى العاصمة، لكنّها كانت ترفض دومًا، حتّى كدنا نظنّ أنّها هاربة من أمرٍ خطيرٍ هناك. لكنّها في الحقيقة أحبّت المدينةَ وهدوءَها وتأقلمت مع الحياة البسيطة حتّى صارت لا تكاد تسافر مطلقًا. كان ميشال صاحبَ مصاغاتٍ عديدةً بالعاصمة، وله بشعبان صاحبِ المقهى علاقةٌ شبهُ سرّيّةٍ ومشبوهةٌ، عرفتُ بعضَ تفاصيلها لمّا وقعَتْ تلك الحادثة في مقبرة الرّوم، وسأحدّثك عنها عندما يحين وقتها. فتلك الحادثة جعلتنا أنا وكونبا نكتشف أنّ شعبان كان يسرق قطعًا أثريّةً ويحملها إلى ميشال في العاصمة.

بعد ذلك اللّقاء، شرع البائعان المتجوّلان في نقل الأسلحة إلى الجبال الأخرى. وفي الأثناء تحصّل «الجرمانيّ» على بطاقة هويّةٍ جديدةٍ: «زكرياء المالطي!». قال سيموني إنّ الجرمانيّ مارك مات إثر تفجّر طائرته. أمّا هذا الذي يعيش بيننا الآن فهو «زكرياء». فصدّقنا ذلك، حتّى إنّني كنت

أشعر بأنّه صار أكثر سعادةً وهو يتقمّص شخصيّة «زكرياء المالطي» متخلّصًا من «مارك الجنديّ النّازي».

كانت العشائر هي التي تموّل عادةً شراءَ ما يُنقَل من أسلحةٍ إلى المناضلين في الجبال وعلى الحدود الجزائريّة. والكونبطا كان رجلَ سيموني في منطقتنا، والآن أصبح يساعده في ذلك زكرياء المالطي. كانا في الظّاهر يبيعان القمح والشّعير أو الزيتون أو الملح أو أيّ بضاعة أخرى متوفّرة. أمّا الأسلحة فهي البضاعة الرّئيسيّة.

دعني الآن أُنْهِ الأمور داخل الكهف بسرعةٍ. أمّا أنت فحاول دائمًا أن تتذكّر ذلك القطار الذي يسير باتّجاه المشنقة. افعل ذلك حتّى يأتي أجل التّابوت... صندوق الأموات الذي كرّموه ووسّموه وعطّروه وزيّنوه بالورد، ثمّ بعثوا به من العاصمة إلى قريتنا في موكبٍ عظيم.

(6)

موسم الثّلج...

إنّه موسم الدفء في الدّاخل... ودعني أُسَمِّهِ أيضًا «موسم الموت البطيء».

يزحف الخريف بأمطاره الغزيرة المفاجئة فيجرف كثيرًا من أمتعتنا وقليلًا من أحلامنا. ثمّ تبدأ أيّام الحرث. ما أعظم تلك الرّائحة! رائحة التراب بعد الحرث، وكأنّ الأرض إذْ تُجرح تبوح بما خبّأت من أسرار. وكم كان كونبا يعشق ذاك التراب، كان يجري حافي القدمين، يتمرّغ كحمارٍ متوحّشٍ، يغمس يدَيه في الأرض ويرمي التراب عاليًا في السّماء، كأنّي به يستحمّ. وعندما يتعب، ينام، فيطيب نومُه.

تمرّ أيّام الخريف كما تمرّ كلُّ سنةٍ، رتيبةً كالعادة، مطرٌ، فاستبشارٌ، فحرثٌ، فانتظار... ثمّ يأتى الشّتاء. وليته لا يأتي أبدًا. إنّه يسجننا في أكواخنا، ويدمّر بطوننا وعظامنا. حتّى مشاعرنا يعبث بها كيفما يشاء! كانت تلك السنة باردةً كأنّ قطب الشّمال جاء مع ريح الغرب واكتسح قريتَنا ببرده وزمهريره. غطّى الثّلجُ جبلَ العنز والمرتفعاتِ والحقولَ واشتعل في كلّ بيت موقدٌ. أمّا أنا فهجرت هضبةَ الإكليل. تركتُها للثّعالب والذئاب الجائعة. ودخل «كونبا» و«جرمي» مستنقعَ الأيّام الغامضة والثّقيلة. كلّ ما كانا يقدران عليه هو الاختباء للبقاء على قيد الحياة. خزّنَ «كونبا» ما يكفي من المؤونة والأغطية تحسبًّا لأيّ طارئٍ، ولاسيّما بعد أن صار ذهابي إلى هناك نادرًا جدًّا. فقد سدّ الثّلج

كلّ المسارب وأغلقت الأوحالُ والسّيولُ المنافذ، وتربّصت الذّئاب في كلّ مرتفع.

كانا قد نفّذا عددًا من عمليّات تهريب الأسلحة قبل قدوم تلك الأيّام البيضاء والسّوداء في الوقت نفسه، بيضاء في النّهار بالثّلج وسوداء في اللّيل بالظّلام والهواجس والآلام... حتّى سُدّت الطرقُ واستحال العبور. سافر سيموني كعادته هنا وهناك. الآن لا بدّ من الترقّب حتّى انتهاء الشّتاء.

لا شيء غير الترقّب! ترقّب أمور تأتي بها الأقدار أو الصُّدَف، أو بفعل فاعلٍ لا يوقفه الشّتاء. أيُّ شيءٍ تافهٍ يحدث هنا أو هناك يمكنه تحريك المياه الرّاكدة وتغيير مجرى الأحداث. فنحن في كلّ الأحوال نقف على هامش الأحداث، في طرف العالم المنسيّ، في المَنْطِقَةِ السّوداء من تاريخ البشريّة. هنا، في مؤخّرة الكرة الأرضيّة، في سلّة مهملات الحكايات البالية، يمكن لمجرّدِ شظيّةٍ تائهة أو كلمةٍ طائشة أو طلقةٍ عشوائيّةٍ أن تُغيّر كلَّ شيء في قريتنا.

الحرب الحقيقيّة تدور في أوروبا، والحدث الرئيس هناك، التّاريخ والانتصار والهزيمة والقرار.. كلّ شيءٍ يمرّ من هناك! أمّا هنا، فإنّنا ننتظر ظلَّ الأحداث وصداها ورائحتَها الكريهة فحسب.

داخل الكهف الدّافئ، اشتعلَ الموقد وتدثّر كلٌّ منهما ببرنسٍ. كانا يجلسان حول الجمرات يتحدّثان حتّى يتعبا، ثمّ يحاولان النّوم. وعندما يتمنّع النوم ويجتاحهما الأرقُ، ينظران في الظلام اللّامتناهي حتّى بزوغ أشعّة الشمس المتثاقلة.

بعد كلّ تلك العمليّات، ملّ الجرمانيّ وتعبَ ولم يعد يقوى على شيءٍ. شعر بالمهانة والعار، ولا شيء تغيّر في حياته. كان طيّارًا نازيًّا يرمي القنابل من السّماء على مخلوقات الله بلا رحمةٍ، فصار اليوم مهرّبَ سلاحٍ، أو عميلًا لمافيوزيّ اسمه «سيموني» ورفيقًا لبربريٍّ يظنّ أنّه يحرّر أرضه بمجرّد حَمْلِ بندقيّةٍ على كتفَيه!!

الشّتاء في هذه البلاد ثقبٌ أسودُ من الفراغ والصّمت... شتاءٌ لياليه طويلةٌ حزينة، لكنّه منح الجرماني فسحةً من التفكير في أمره وإعادة النّظر في معنى حياته وقيمتها. ماذا يفعل هنا؟! في هذا الغار؟! في هذا الجبل؟! في هذه البقعة من الأرض؟! وما الهدف من حياةٍ لا أمل فيها ولا حلم! ولعلّه بدأ يُفكّر في الموت.. الموت الذي كان يوزّعه على المخلوقات حينما كان كالنسر الجارح في السّماء. وعندما نزل الأرض أصبح كلُّ همِّه أن يهرب من الموت! ذات ليلةٍ والكون صامتٌ وساكنٌ كأنّ الأرواح غادرت أجسادَها وصعدت تسبح في السماء السّابعة، هاربةً من بشاعة الأرض ولاجئةً إلى نور السّماء، لمحتُه مُطرِقًا وقد تربّعت على وجهه ملامحُ الموت. كان يفكّر ساهمًا وكأنّه يقول لنفسه: «أنت ميّتٌ أيّها الجرمانيّ، فلا تكابر! هل كنت تظنّ أنّكَ نجوتَ بتلك القفزة الملعونة من السّماء إلى الأرض؟!».

ليت تلك الرّوح التي سقطت على الأرض صعدت إلى السّماء! ليت هذا الثّلج لم يهطل! هذا الثلج الذي يوقظ في دماغه ذكريات وطنه ويعزف على أوتار حنين مدمّر. كان كلّ ليلةٍ يحدّث الكونبطا عن

احتفاله بعيد الميلاد مع عائلته وأقاربه ورفاقه. يحدّثه عن تفاصيلَ كثيرةٍ لم يكن كونبا يفقه منها شيئًا، كونبا الذي لا يعرف كيف يُنْصِت إلى رجلٍ مُتْعَب، فما بالك ببذل الجهد المضاعف لفهم تلك اللكنة الفرنسيّة التي كان جرمي يلفظ الكلمات بها كمن يحدف مخاطبَه بالحجر! لذلك كان يجيبه بشخيره في غالب الأحيان، فيبقى «الألمانيّ الأخير» وحيدًا كدبٍّ جريحٍ وضائعٍ، ينزف ثرثرةً!

قبل ذلك، وفي تلك المرّات النّادرة التي زرتهما خلالها في الكهف حاملًا إليهما المؤونة، لاحظتُ عليه إحباطًا رهيبًا. رأيت الإحباط في عينَيه وجسده. قرأته في شروده وهذيانه، بلغته الألمانيّة غير المفهومة التي يحدّث بها نفسه أو يعنّفها بها! لم يعد يضحك أو حتّى يبتسم. لم يعد يحكّ أسنانه كعادته في الأيّام الأولى. حتّى شهيّته في الأكل أصبحت معدومةً. يأخذ قطعة خبزٍ ويسير قليلًا في الجبل، وعندما يقترب من سفح القمّة الشّاهقه المغطّاة بالثّلج يحدّد جهات الدنيا الأربع، يسمّيها بأسمائها، ثمّ يقول جملته المعهودة تلك: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السّوداء!».

في المرّة الأخيرة التي وصل فيها كعادته إلى هناك، لم يقل تلك الجملة! كأنّه يئس من العودة. يومَها جلس على الثلج، احتضن ركبتَيه وبكى حتّى علا شهيقُه. ولمّا عاد إلى الكهف، كانت عيناه محمرّتَين لامعتَين كزجاجٍ مطليّ بالدّماء. وحين سألته عن حاله، لم يُجِبْ ولم ينظر إليّ. لم يسمعني مطلقًا، كأنّ أذنيه مملوءتان

بضجيجه الدّاخلي. شعرتُ آنذاك أنّه يموت ببطء. ثمّ صرتُ أقول لنفسي كلّما غادرت الكهف: «لن أراه ثانيةً». لقد خشيتُ ذلك حقًّا. وخشيتي كانت صادقةً، حتّى حدثت تلك المصيبة الأليمة.

لقد تعلّم جدّكَ كيف يقرأ الأرواح ككتابٍ مفتوح! تعلّم اختراق الأشياء والنّفاذ إلى جواهرها وماهياتها... إلى أعماقها... إلى المناطق الجامدة فيها.. إلى تلك المنطقة الصّلبة التي تتكسّر عليها كلّ الأكاذيب والأقنعة والمساحيق.

لعلّكَ لا تُصدّقني وتقول في سرّكَ: «كيف يقرأ المرء النفوس ويُدرك ما يجول في قراراتها السحيقة؟ كيف يشعر بما تشعر به ويعرف ما تفكّر فيه من دون أن تنطق؟» ولكنّك لا تملك الجرأةَ لتقول ذلك علنًا. ولو أسعفتك شجاعتُك يومًا وطرحتَ عليّ هذه الأسئلة السخيفة، لقلتُ لك: فَلْتذهب الحقيقة إلى الجحيم. فلا شيء أكثر حقيقةً من سلطة الخيال. إنّما الحكواتيّ كالنّور، كالحلم، كالهواء، يدخل الديار ويتسلّل إلى الصدور والأفئدة، ويلتقط الوقائع والأحداث من نهر الزمن قبل أن تضيع. فما الإنسان من دون هواء؟ وما التّاريخ بغير حكاية؟ لاشيء، مجرّد جثّةٍ هامدة. حتّى الله عندما خلق الكون جعَله حكاية، وليس أقدر على حبّ الله واستكناه عظمته من الحكواتيّين! ذلك ما علّمني إيّاه سلطانُ الحكواتيّين وكبيرُهم في تربية الخيال وصناعة السحر، سيّدي ومولاي سي المقدّم.

دعني أَقُلْ لك إنّني تدرّبت على ذلك كثيرا. جلساتي في هضبة الإكليل وحيدًا في اللّيل

جعلتني أنتبه إلى تلك التّفاصيل التي لا أراها تحت ضوء الشّمس وفي ضجيج الحياة اليوميّة وترّهاتها المؤذية لصفاء الرّوح ونقائها، أنا الذي سافر كابن بطوطة، كالمستكشفين الأوائل... أبحرتُ بخيالي في مجاهل البحار وفيافي اليابسة، سافرت حتّى رأيت العالم عن قرب. أقسم لك بالذي بعث النّور في الكون والقلوب أنّني رأيت العالم يرقص في كفّ يدي اليُمنى. تأمّلته حتّى احتقرته واستصغرته وصرتُ أراني أعظم منه. «أنا العالم!»، صرختُ بها عاليًا حتّى اخترق زئيري قلبَ الجبل العظيم وعُمْق الوادي الكبير. «أنا العالم!»، ردّدتها بثباتٍ ويقينٍ. ومنذ تلك الصرخة الخارقة، صرتُ كلّما جلست على هضبة الإكليل تحت ضوء القمر، يأتيني العالم ويمثُل بين يديّ. يُقْبِل عليّ ذليلًا ومكشوفًا، عاريًا كأنّه بلا سرّ. يأتيني صاغرًا، ويهبُني نفسَه، فأقضي منه وطري!

في تلك اللّيلة، ندف الثلج في جبل العنز طويلًا، ندف بتلك الكثافة التي كان يندف بها في الغابة السّوداء. وظلّ يندف كأجنحةٍ ملائكيّةٍ شفّافةٍ ترفرف بين السّماء والأرض! وقف «الجرمانيّ» أمام الكهف يمدّ يدَه ليلمسَه ويشمّ رائحته. وقف حتّى صار كشبحٍ أبيض أو كميّتٍ ملفوفٍ بكفنٍ من ثلج. ولمّا بدأت أطرافه تتجمّد، عاد إلى الكهف. أوقد فتيلًا زيتيًّا وأحاطه بأعواد صنوبر، ثمّ تربّع حولها، واستغرق في حديث طويل. بدا كأنّه يحدّث «كونبا» المشغول بخليط من الشّخير والضراط! استرسل ولم يسكت مطلقًا. تذكّر ليلة عيد الميلاد، فتحدّث عن أمّه كيف كانت

تطبخ، وعن أبيه وهو يجهّز شجرة الصّنوبر، وأختِه الصّغرى التي تعدّ الهدايا..

تحدّث كيف كان يجلب الحطب من الخارج ويوقد الكمينا، تحدّث عن دفء العائلة والمكان والاطمئنان. كان العالم آمنًا وبسيطًا وجميلًا! ظلّ هكذا حتّى احترق الفتيل وخرج دخانُه وصار كلّ شيء أسود. شعر بأنّه لم يعد قادرًا على التنفّس. ضاق به المكان وضاقت به نفسه. كم هو كبير هذا الجبل! كبير في العين وضيّق في القلب!

هذه الأغصان تحميه وتوفّر له دفئًا ومخبأً آمنًا، لكنّها صارت تلتفّ حول عنقه وتخنقه، صار يتنفّس ببطءٍ وصعوبة. صار الصمت بئرًا عميقةً وضيّقةً وأصبح الصّبر جارحًا. من المؤكّد أنّه كان ينزف من الدّاخل، ويقاوم بعسرٍ شديد. فجأةً نظر حوله في كلّ الاتّجاهات، كأنّه يبحث عن مخرج. لعلّه اعتقد فعلًا أنّه قادر على العودة إلى الوراء. فجأةً وقف كالألف في حالة استعدادٍ. ثمّ غادر الكهف إلى الخارج. وقف تحت جذع شجرة الصنوبر وبدأ يتنفّس بصعوبة، وأخذ يصرخ، ثمّ استدار ناحية الجذع وسدّد إليه لكماتٍ حتّى جُرِحَتْ يداه وسال منهما الدّم. واصل الضرب والصّراخ حتّى خارت قواه. ولمّا جثا أرضًا على ركبتيه، قال: «يجب أن ينتهي كلّ شيء هذه اللّيلة... أنا من بدأ هذا، وأنا من سينهيه!». ورفع رأسه إلى الجذع الممتدّ إلى جهة الغرب، وكأنّه يقول: «هذا كافٍ. يكفيني ربط الحبل بطريقةٍ جيّدةٍ حول عنقي. سأتنفّس في البدء بصعوبةٍ... سأختنق... ثمّ أصير حرًّا!».

لم يخطر ببالي أنّه كان يقصد ذلك حقًّا، لم أتصوّر

مُطلقًا أنّه سيأخذ الحبل ويتسلّق شجرة الصنوبر الكبيرة. يبدو أنّه جهّز نفسه كما ينبغي. لقد اكتملت الفكرة في ذهنه، فلفّ الحبل حول عنقه، وألقى بنفسه في الجحيم!

(7)

«فا فنكولو»، أيّتها الحياة!

تلك هي الجملة التي كان سيموني يردّدها وهو يضحك عاليًا ويشير في الوقت نفسه بوسطى يده اليسرى. أظنّه قالها أيضًا وهو يلفظ نفَسَه الأخير! لكنّه لم يجد من الوقت ومن القوّة ما يكفي ليرفع إصبعه الوسطى من يده اليسرى ويحرّكها بشدّةٍ وثبات كما كان يفعل دائمًا. ولن يضحك عاليًا أيضًا. «فا فنكولو أيّتها الحياة!» قال جملته الأخيرة، ثمّ نام جثّةً هامدةً على سكّة الحديد والدّماءُ تسيل من أذنَيْه ومنخَرَيْه كيُرْبُوعٍ مخنوق.

في ذلك الصّباح الباكر المتجمّد، كان الجميع يجرون نحو محطّة القطار ويصيحون: «سيموني مات!».

كنت على الكونتوار في مقهى شعبان. ترشّفت الرّشفة الأولى والثّانية والثّالثة تباعًا. تلك هي عادتي مع قهوتي الصباحيّة الأولى، الفيلتر السّوداء السّاخنة. فزع الحرفاء والمارّة وساروا جميعًا نحو المحطّة.

«سيموني مات!». هذه الصّيحة... هذه الحادثة... لن تعجب «الكونبطا» أبدًا. وبعد أن تأكّدتُ من الأمر ورأيت الجثّةَ مغطّاةً وهي ملقاةٌ على سكّة الحديد في انتظار قُدُومِ «ماريا» والسيّد «فرنسوا بالاج»، بدأتُ أفكّر في الذّهاب إلى الكهف على عَجَلٍ لنقل هذا الخبر. ثمّ تراجعت، وقلتُ في نفسي: «عليّ أن أهدأ ريثما تتوضّح

الأمور وأجمع ما يكفي من تفاصيل الجريمة المفاجِئة». أقول لك «مفاجِئة» لأنّ قريتنا آمنةٌ نسبيًّا ونادرًا ما تحدث فيها مثل هذه الجرائم. كانت تقريبًا الجريمةَ الثّانيةَ والوحيدة بعد مقتل الجنود الفرنسيّين الثّلاثة. لكن لو سألتَني: «هل فاجأكَ الأمر شخصيًّا؟»، لَقُلتُ لك: «في الحقيقة، لا!» كنت أنتظر موت سيموني بطريقة أو بأخرى، في قريتنا أو في غيرها من الأماكن الأخرى. ولو سألتني: «هل أحزنَكَ الأمر؟»، لَأجَبتكَ: «طبعًا». حزنتُ لماريا المسكينة التي ستصبح أشدّ وحدةً من ذي قبل، وفكّرتُ في مستقبلها بقريتنا. وخفتُ في الوقت ذاته من ردّ فعل الكونبطا. فماذا سيفعل الآن بكلّ تلك الخطط من دون سيموني؟! بل ما الفائدة من وجود الكونبطا في الجبل بلا أسلحةٍ؟! كلّ ذلك جعلني أحزن على موت سيموني. وكيف لا أحزن وهو الذي جلست معه وعلّمني طبخَ القهوة واحتساءها!؟

«سيموني مات»! ردّدناها جميعًا ونحن نسأل القَدَرَ لماذا يموت الرّجل الطيّب سيموني الإيطاليّ ولا يموت الضّابط السوفاج الفرنسيّ؟! مات الرّجل الخطأ في الوقت الخطإ والمكان الخطإ. لقد أزعجتني رؤية جثّته ملقاةً على سكّة الحديد ككلبٍ أو خنزيرٍ بلا قيمة. إذا كان لا بدّ من موته، فكان أولى أن يموت بعيدًا عنّا بطريقةٍ لائقة حتّى تكون ذكراه أجمل في عقولنا وقلوبنا. ذلك المشهد جعلني أتأسّف وأحزن وألعن وأخاف... أخاف على مصير كونبا وماريا والجرمانيّ، فتلك الأرواح الثلاث سيكون مصيرها مختلفًا بعد الآن.

مات الرّجل السّمين الأنيق الذي كان يضحك دائمًا ويسافر دائمًا، مات تاجر القماش والعطور والأسلحة، وتاجر أشياء أخرى كثيرة لا نعرفها، الإيطاليّ الذي علّمنا شرب القهوة، وعلّمنا عدم الخوف من الفرنسيّين! هذا لا يعني أنّه كان في صفّنا وضدّ الاستعمار، كلّا، لا أقصد ذلك مطلقًا. فقد كان في صفّ نفسه فحسب. يلهث وراء صفقاته وشبكته التي كوّنها كعنكبوتٍ ماكر، لكنّه شخصٌ يمكن التّعايش معه. وفضلًا عن ذلك لم يكن سيموني فاشيًّا، بل كان يكره موسيليني ويتمنّى موته، وكان يراه «نيرون الجديد الذي سيُحرق روما، ثُمّ يُحرق خصيتَيه»، كما قال لنا مرّةً. استغّل الحرب ليصير غنيًّا. الحرب تصنع الفقراء، ولكنّها تصنع الأغنياء أيضًا. وسيموني واحدٌ منهم. كان يتحدّث بصوتٍ عالٍ في لغة فرنسيّةٍ إيطاليّةِ اللكنة، مع القليل من الكلمات العامّيّة التونسيّة، وينهي حديثَه ككلّ مرّةٍ، بـ: «فا فنكولو أيّتها الحياة!».

أمر السيّد بالاج بدفنِ الجثّة سريعًا بعد الاتّفاق مع ماريا التي أصابتها هستيريا من البكاء والرّعب. لم نسمع بأنّ الحاكم العسكريّ فَتَحَ تحقيقًا في الأمر أو وَجَّهَ تُهَمًا لأشخاصٍ أو جهاتٍ معيّنةٍ. كلّ ما قاله يومَها: «في الحرب يموت أبرياء كثيرون، وأصدقاء كثيرون أيضًا. وسيموني كان صديقًا لنا!». قال تلك الكلمة وسارت العربة بالتّابوت إلى المقبرة المسيحيّة الواقعة حِذْوَ الآثار الرومانيّة، هناك على الطريق التي تصل القرية بمدينة سوق الثلاثاء.

بعد ظهر ذلك اليوم، سارت العربة وتبعناها من الخلف. وسارت ماريا خلف جثّة زوجها. بدت حزينةً من دون أن تذرف الدّموع. كانت تضع وشاحًا أسود على رأسها يتدلّى حتّى كتفيها. وكانت السيّدة كريستال تمسك بذراعها اليسرى. سرت أنا من الخلف، وكانت الخطى على شيءٍ من السرعة، حتّى إنّ كثيرين تخلّفوا عن موكب الدّفن. كنت أسأل هل كان ذلك من أوامر السيّد بالاج أيضًا؟! تُرى هل أمسك خيطًا من خيوط تجارة الأسلحة؟! كلُّ ما فهمته هو أنّ الرّجل كان يريد دفنَ سيموني والقضيّة بسرعةٍ. الضابط السوفاج كان يقود ذلك الموكبَ العسكريّ. وحين نظرت في عينَيه والجثّةُ تُدَلّى إلى قبرها رأيتُ فيهما جريمةً. اخترقتُ روحه كما اخترقتُ روح الذئب وروحَ الثّعبان وروح الجنّ. أقسم لك أنّ شعوري كان صادقًا. توجّه الكلب إلى ماريا وأمسك بيديها وانحنى أمامها معزّيًا ومتأسّفًا. لم ترفع رأسَها، ولم تنظر في عينَيه. قال لها: «أنا دائما في خدمتك!»، ثمّ أخذ جنودَه وعاد مسرعًا إلى المدينة.

عندما غادر الجميع، وقفتُ أمام قبر سيموني المغطّى بالتّراب، القبر الذي وضعتْ عليه ماريا إكليلًا من الزهور. نظرتُ في قبره حتّى كدت أراه يبتسم ويقول: «فا فنكولو أيّتها الحياة!». ثمّ سِرْتُ خلف ماريا ومدام كريستال عائدًا. ولمّا وصلنا القرية، قالت لي ماريا بصوت خافت: «أريد أن أرى كونبا. رتّب لي لقاءً معه». وتفرّقنا...

غادرَتْ ماريا تائهةً ومصدومة. صحيحٌ أنّها لم تكن سعيدةً مع سيموني كما ذكرتُ لكَ من قبل،

ومع ذلك لم تكن تتمنّى موتَه بطبيعة الحال. أمّا الرجل الوحيد الّذي كانت تتمنّى موته بشدّة فهو الكلب «السوفاج»، فلطالما كان ذلك القذر يتحرّش بماريا في محلّها، ولاسيّما خلال الأيّام التي يسافر فيها سيموني. وقد كان السوفاج يحسد الإيطاليّ ويحقد عليه بسبب زوجته الجميلة. مازلتُ أذكر إلى اليوم تلك الخصومة الّتي نشبتْ بينهما في حانة سيباستيان. يومَها قال السوفاج لسيموني: «سأفجّر رأسك بمسدّسي أيّها المافيوزيّ». فضحك سيموني عاليًا وأجاب: «فا فانكولو أيّها الملعون، إن كنتَ ثعلبًا فأنا ذئبٌ!».

كانت علاقتُهما متوتّرةً دومًا. وكان سيموني يقف أمام السوفاج ويُسْمِعُه كلامًا فاحشًا، لكنّني أظنّ أنّ ذلك الضّابط كان يشكّ في أمر سيموني، وأحسب أنّه أخبر السيّد فرنسوا بالاج بأنّ سيموني يدبّر أمورًا ضدّ الفرنسيّين، فوضعوه تحت المراقبة. ولم تكن تلك التّجارة التي يديرها سيموني تقتصر على قريتنا، بل كانت تمتدّ إلى العاصمة ومدنٍ أخرى. أقول لك إنّ سيموني كَبُرَ أكثر من اللّازم. وقد جعله الجشع لا يرى ولا يحسب الكثير من تفاصيل حياته جيّدًا. وهذا بالضبط ما كان يزعج ماريا حتّى صارت لا تطيقه. «ليتنا بقينا تجّارَ أقمشةٍ وعطوراتٍ وقهوة!»، ذلك ما قالته لكونبا ذات يوم.

لكن، هل أمر السيّد بالاج بتصفيته؟! أقول لك: نعم. أقولها وأنا في منتهى اليقين من ذلك. كان هدفُ الحاكم العسكريّ هو التخلّصَ من تاجر سلاحٍ يموّل الثوّارَ في الجبال. وكان هدف

الضابط السوفاج الانفراد بماريا! تقاطعت المصالح، فقُطِعتْ عُنُقُ سيموني.

هذا ما جال في ذهني وأنا عائدٌ من موكب الدّفن. لم يبقَ لي إذَن إلّا تدبير زيارة إلى الكهف وإخبار كونبا. هو أيضًا سيكون له رأيٌ في هذا الأمر.

وأنا عائدٌ من موكب الدّفن سألتُ نفسي: هل دخول مقبرة المسيحيّين حلالٌ أم حرامٌ؟ وهل يحقّ لي زيارة موتاهم؟ حتّى كدت أبحث عن الشّيخ حسين لأسأله في الأمر. ثمّ تراجعت عن ذلك لأنّ هذه المعلومة لن تفيدني كثيرًا مادمتُ أحبُّ سيموني وحضرتُ موكبَ دفنه ودخلت مقبرة المسيحيّين وطلبت له الرحمة.

وأنا عائد من المقبرة المسيحيّة خلف ماريا وكريستال، فكّرت طويلًا في الموت وفي الجنّة والنّار وفي الخير والشرّ. فكّرت في كلّ ذلك حتّى تذكّرت ذاك الطّبيب الذي قال لي يومًا: «ستموت ببطءٍ!»، سألته بسخريّةٍ واضحةٍ: «أهو بطء الأيّام أم بطء السنوات؟!». كان يظنّ أنّه أرعبني أو جاء بمعلومةٍ جديدةٍ إلى العالم. وواصلَ: «نحن جميعًا نموت ببطءٍ!».

ثمّ بدا جدّيًا أو كأنّه يرثي لحالي إذ قال: «من الأفضل أن تبترها... هذه السّاق التي نخرها المرض الخبيث ستدمّر الجسد كلّه!».

صحت في وجهه: «هذا مستحيلٌ يا دكتور، جسدي واحدٌ ومتضامنٌ مع نفسه، إذا تألّم منه عضوٌ سهرَتْ من أجله باقي الأعضاء. سينفطر

قلبي على فراق تلك السّاق! ستبكي العين، وتذبل السّاق اليمنى من الوحدة. على هذا اتّفقنا: حياة للجميع أو موت للجميع!». ثمّ غادرت العيادة.

في البدء، لم أكن أحبّ هذا الجسد الذي زُرِعت فيه روحي. كنت أمقت عِلَلَهُ وآلامَه وضعفَه، أتخيّله أحيانًا جسدًا مُستَعْمَلًا وقديمًا جدًّا، جسدًا عانى الويلات. كلّ نقطة في جسدي عانت الألم. أقول هذا قبل أن تزرع فيه روحي. وأحيانًا أخرى أتخيّل أنّه كان جسدَ جنديٍّ من العصور الغابرة. الأقرب أنّه جسدُ جنديٍّ قرطاجيٍّ من أولئك الجنود الذين رافقوا حنّبعل في حصاره لروما. هذا الجنديّ لم يكن محاربًا كبيرًا، لكن من المؤكّد أنّه كان يتمتّع بدرجةٍ كبيرةٍ من الحظّ والصّبر. بالحظّ وحدَه ابتعدَ عنه الموتُ، وبالصّبر وحدَه انتصر على آلامه. لقد قطع كلّ تلك المسافات البعيدة في رحلة الشّتاء والصّيف، وعاد إلى قرطاج سالمًا إلّا من بعض الخدوش والكدمات. كلّ ما في الأمر أنّه كان يتألّم من الداخل. ولم يكن آنذاك يعرف معنى ألم الدّاخل. فقد كان يتصوّر أنّ الرّوحَ والجسدَ واحدٌ. كان مزارعًا بسيطًا، يجلس على الهضبة كلّ مساء، حتّى جُنِّدَ قسرًا لخوض تلك الحرب. وعاد ذلك المزارع البسيط إلى هضبته بكثيرٍ من الشوق والحنين. بعد سنواتٍ عديدةٍ، علم المزارع أنّه انتصر انتصارًا باهرًا في حربه على الرومان. انهزم حنّبعل، وانهزمت قرطاج، ولكنّ المزارع البسيط مازال يرفع راية النّصر فوق هضبة الإكليل.

فَلْيَذْهَبْ ذلك الطّبيب إلى الجحيم إذَن، وَلْيبقَ

ألمي قائمًا حيًّا لا يموت. لقد أخبرني أوّلَ الأمر بأنّه مجرّد روماتيزم، بردٌ سكن بين العظم والغضروف، ثمّ تطوّر فجأةً ليصير التهابًا في المفاصل. أعترف بأنّه ألمٌ مقرفٌ، مسامير غير مرئيّةٍ مزروعةٌ في الدّاخل. سألت الطّبيب مرّةً، ماذا أفعل لهذا الصّداع الذي يجتاح رأسي المزدحمَ بالأفكار المثقلة بالهموم؟! هل أقطعه أيضًا؟! ترى هل ينفع معه البتر؟!

حين اجتاحَ الألمُ أسفلَ عضلاتي من جانبي الأيسر، عاودتُ زيارة الطّبيب مُجدَّدًا. فقال لي: «تخلّص منها، ومن الأفضل لك أن تعيش بكلية واحدة». قلت له، كما يقول سيموني بالضّبط وبنبرة الإيطاليّين... نطقتها مُمَطَّطَةً وناعمةً وبابتسامةٍ عريضةٍ، لكن من دون أن أحرّك إصبعي الوسطى: «فا فاااانكووولووو دكتور»!

ذهبت أبحث عن الشّفاء بين أحضان الطبيعة، في الأعشاب، في الأشياء النّاعمة، أبحث عن الشّفاء داخل جسدي ذاته. إلى أن قرأت معلومةً تقول إنّ المشروبات الكحوليّةَ والبيرّةَ تحديدًا تفيد جدًّا في مرض الكلى وتساعد على سقوط الحصى وتنظّف المثانة والمسالك البوليّة. فقلت في نفسي: «لا بدّ من سبيل إلى ذلك». وطبّقت الأمر بسرعةٍ وجدّيّةٍ.

قبل صلاة الظّهر، اتّخذتُ مكانًا في حانة سيباستيان. وعادةً ما تكون الحانة فارغةً في تلك الفترة. تقريبًا كنت أنا والنادل فقط. أمّا الزبائن فقد أخبرني بأنّهم يتوافدون على الحانة بعد وقت العصر وحتّى وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل. لم أشرب

قبل ذلك خمرًا قَطُّ! ضحك النّادل وهو يضعها فوق طاولتي: «لا شكّ أنّ سهم العشق أصابك في العمق!» قلت له وأنا أسكب الجرعة الأولى في كأسٍ طويلةٍ: «لا، بل أصابني ألم الكلى». وأقسمت ثلاثًا كي يصدّقني. في الحقيقة لم أترشّف البيرة الأولى، بل تجرّعتها على ثلاث مراحل. الجرعة تليق أكثر بالمريض حين يتناول دواءه، وأنا كانت نيّتي خالصةً! قبل شربها قرأتُ كلَّ أدعية الشّفاء، دعوت بالشّفاء لنفسي ولجميع مرضى المسلمين ومرضى العالم بأسره. ولمّا أنهيت القوارير الثّلاث الأولى على جرعاتٍ مختلفةٍ، غادرت. أقصد غادرت لمّا سمعت أذان صلاة الظهر!

في الحقيقة سكن ألم الكلى وألم المفاصل وألم الرأس، كلّها معًا ودفعةً واحدة. شعرت بنشوةٍ غريبةٍ وسعادةٍ لا أقدر على وصفها. شعرت بنفسي خفيفًا ورشيقًا. تخفّفتُ من الهموم والأدران. وعندما غادرت إلى هضبة الإكليل راودتني رغبةٌ كبيرةٌ في الرقص. فرقصت بالفعل حتّى انتشيتُ، وردّدتُ أشعارًا وأغاني كثيرةً كانت نائمة بين جوانحي. غنّيت طويلًا وبصوتٍ عالٍ. تُرى أين اختفى ذلك الخجل الجبان المكابر الذي كان يكبّلني دائمًا؟! يومها غنّيت «نيران جاشي شاعله ميقوده».

كرّرت الذهابَ إلى حانة سيباستيان ثلاثة أيّام متتالية حتّى ضبطني الشيخ حسين متلبّسًا ذات يوم. كنت خارجًا من الحانة في طريقي إلى المسجد. صفعني من الخلف وهو يقول: «بول سيباستيان الذي تشربه لن ينفعك».

بعد مدّةٍ عاودتني كلّ الآلام، ألم المفاصل والكلى وصداع الرأس معًا. أوجاعي لا تأتي فرادى. يا لَجُبْنِها! جاءت الفرقة النحاسيّة للآلام مسلّحةً بآلاتٍ مختلفة، كمنجة وبيانو وناي. يمكنكَ أن تضيف إلى ذلك آلاتٍ أخرى. لكنّ المعزوفة هي ذاتها: الألم. هذه المرّة قلت للنادل: «أريد شيئًا أقوى»، جرعةً تخترق دمي في لحظاتٍ حتّى تنسيني هذا الهمّ.

وضع أمامي قارورةَ نبيذٍ أحمرَ. كانت رشيقةً مثيرةً وناعمة. ثمّ قال لي: «أمّا هذه، فلا بُدّ لها من فراشٍ وثيرٍ في المعدة». فقلتُ له: «تصرّف». وبعد لحظاتٍ وَضَعَ أمامي صحنًا من «ستيك» العجل المشويّ، وجَعَلَ فوقَه بصلًا وبقدنوسًا وتوابل أخرى وهو يقول: «كل واشرب بهدوء. تلك هي طقوسها». قلت له: «وصلاة الظهر؟!». فأجابني: «يمكنك أن تصلّيها مع العصر.. على المذهب الحنفيّ».

طبّقتُ نصائح ذلك النّادل بحذافيرها طمعًا في شفاءٍ قريبٍ وأبديّ، حتّى أخذني من يدي، وقال: «اليوم يكفي يا سي الطاهر. اذهب الآن وحاول أن تستلقي قليلًا».

قلتُ: «لا، أنا ذاهب إلى المسجد لصلاة العصر. تبًّا لم أسمع الأذان!» أجاب: «لقد صلّى الناس العشاء منذ فترةٍ».

سِرْتُ في الطريق بخطًى متثاقلةٍ. ولمّا هممتُ بدخول المسجد، سمعتُ الشيخ حسين يقول لي: «أقسم أنّي أشمّ منك براز سيباستيان». ثمّ دفعني قائلًا: «اذهب واستحمّ».

غبت عن العالم تمامًا حتّى سمعتُ تلك الحكايات في اليوم التّالي... حتّى جدّتك رحمها الله قالت لي لمّا استيقظنا صباحًا: «ألا تستحي؟!».. رجوتُها مرارًا أن تحدّثني عمّا اقترفتُه، فأبَتْ، حتّى ماتت المسكينة. يومَها رآني أحدُ الرّعاة وأنا أتمرّغ في الحرث كحمارٍ. وإحداهنّ رأتني أستحمّ بجانب البئر. قالوها جميعًا: «الطاهر مسكين... أصابه سحر».

تلك التّجربة جعلتني أعرف لماذا حرّم الله علينا ذلك المشروب الأحمر الساحر.

في الحقيقة، نحن لَسْنَا لَهَا ولا نفقه شربَها كالفرنسيّين. إنّهم يعطونها حقّها يا مولاي! يجعلون لها طاولاتٍ وكراسيَّ وشموعًا وأزهارًا وموسيقى وعطورًا. هم أولى بها منّا. فأهل الخمرة أدرى بطقوسها. وكان ذلك آخرَ يومٍ أدخل فيه حانةَ سيباستيان.

تجربة الخمر جعلتني أتقرّبُ إلى الله! كنتُ أجلس وحيدًا في اللّيالي المظلمة كعادتي على هضبة الإكليل، أُطيل النظر إلى النجوم حتّى تصير جمراتٍ قريبةً من عينيَّ، وتصير عيناي زجاجتَين مبلّلتَين بدموعٍ غريبةٍ، ليست دموعَ النّدم كما تظنّ، بل هي دموعُ الرّهبة والشّوق... لمّا أطلت النظرَ وذرفت تلك الدموعَ، جاءني الأمر بالفرح، فلبّيتُه، واستجبتُ له في الحين، وقمت أرقص.

كنت أرقص وكان الله يبتسم!

هل يفرح الله لعبده؟! نعم، يفرح!

عندما أجلس على هضبة الإكليل وحيدًا، تصير العتمات التي في داخلي والظلمات التي في

الخارج غيماتٍ... غيماتٍ ناصعةَ البياض وشفّافةً. ثمّ أحلّق إلى حيث أريد... أخترق تلك المناطق التي يقال إنّها لا تفتح أبدًا. أقول لك بكلّ فخرٍ: لقد استطعت امتلاك بعضٍ من مفاتيح الأسرار. نعم، فعلتُها هناك على هضبة الإكليل في ليالي الشّتاء الباردات.

أمّا أنتَ، فإنّ الله ينتظرك في مكان مّا، فحاول أن تكون في الموعد. حاول أن تكون لائقًا بذلك اللّقاء. أمّا إذا أصابك ألمٌ شديدٌ... فلكي تنساه، حاول أن تجد لك ألمًا أشدَّ منه... فإنّه لا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ.

ها قد جاوزتُ الثمانين من عمري. لم أَمُتْ بعدُ كما أخبرني ذلك الطّبيب الذي أراد الشّروع في قتلي بالتّقسيط. ساعدني الألم على الاستمرار في الحياة، جعلني أكافح وأغتنم كلّ لحظةٍ، جعلني أشعر بأنّني حيٌّ وأقاوم. وها أنا اليوم أفتقده جدًّا. منذ مدّةٍ لم يعد الألم يعزف على أوتار جسدي. أشعر بأنّ كلّ شيء فيّ مُخَدَّرٌ حتّى أكاد أقول إنّ النهاية قريبةٌ! فمادمتُ لا أتألمّ، فهذا يعني أنّني بدأتُ أموت.

وعندما أجلس وحيدًا في اللّيالي على هضبة الإكليل أصبحتُ لا أنظر إلى السماء بل أطيل النّظر في الأرض. فأنا أنتمي إلى هناك... إلى حيث أنظر.

لستُ خائفًا من الموت. فقد درّبتْني أوجاعي على كلّ لحظة عسرٍ. كلّ ما في الأمر أنّي سأشتاق إلى تلك الجلسة المسائيّة على هضبة الإكليل، سأشتاق إلى الرّشفات الثلاث الأولى من قهوة

الفيلتر الصّباحيّة في مقهى شعبان، سأشتاق إلى رائحة الصّنوبر التي تهبّ مع النّسيم عند بداية كلّ مساءٍ، سأشتاق إلى رائحة تراب أرضنا المباركة. وأنتَ أيضًا سأشتاق إليك. كنتَ تعرف دائمًا كيف تنصت إليّ... أنا وأنت متشابهان. نحن أصحاب الكلام وللأرض ربٌّ يحميها.

اعذرني إن حدّثتك عن نفسي من حين إلى آخر وتركت صاحبَنا الكونبطا ينتظر وهو محمول على متن القطار إلى المشنقة. فلْنَعُد الآن إلى صاحبنا «كونبا».

وبالفعل، بعد موكب الدّفن مباشرةً سِرْتُ إلى الكهف. ماريا قالت: «يجب أن أرى كونبا». ولا بدّ لي من حمل تلك الرسالة. ألم أَقُلْ لك منذ البدء إنّ مهمّتي ليست سهلةً على الإطلاق؟ ليس من السّهل مطلقًا اتّخاذ تلك الطريق المؤدّية إلى الجحيم، فكلّما سرت فيها شعرت بأنّني من المعذّبين في الأرض.

لمّا وصلتُ كان سكونٌ رهيبٌ يعمّ الكهف. كان الوضع شبه جنائزيّ، «جرمي» ملقًى على الأرض، وحول عنقه جروحٌ وعلى خدّه الأيمن كدمةٌ تميل إلى اللّون البتروليّ. كأنّ الدّم جفّ في ذاك المكان من جسده. كان مغمض العينين ساكن الجسد. نظرتُ إلى كونبا، فرأيت على وجهه علاماتٍ غريبةً، مزيجًا من الغضب والحزن. كان يكسر أعوادًا يابسةً بأسنانه ويقذف بها في عنفٍ. سألته في حُرقة: «كونبا، ما الأمر؟!».

«انظر ماذا فعل الخنزير الألمانيّ بنفسه!»، أجاب دون أن يلتفت إليه.

اقتربت من «جرمي» الذي كان أشبه ما يكون بالجثّة الهامدة. وحينما وضعتُ يدي على صدره، فتح عينيه بصعوبةٍ ونظر إلى أعلى.

«إنّه حيٌّ!.. إنّه حيٌّ!!..»، ردّدتُ حتّى قاطعني كونبا.

«حاول البارحة الانتحار... هناك!»، قال ذلك وهو يشير إلى غصن شجرة الصّنوبر السّميك الذي يمتدّ إلى جهة الغرب. ثمّ أضاف: «وقد ترك لي الخنزير رسالةً مكتوبةً بالألمانيّة، وضعها تحت إناء الماء كي أنتبه إليها، ووضع في قفاها ما يبدو أنّه عنوان. من يظنّني هذا اللّعين؟ هتلر أم فرانسوا بالاج؟ حتّى مدير مكتب «البريد والبرق والهاتف» يعجز عن إرسالها. على كلّ حال، سأحتفظ بها كتذكار. من يعلم فقد أزور الغابة السوداء ذات يوم؟» قال الجملة الأخيرة ساخرًا وهو يُشير إلى الألماني.

لحظةَ رمى «جرمي» نفسَه محاولًا الانتحار، خرج كونبا صدفةً للتبوّل خارج الكهف. كانت مثانته تعجّ بالماء العَكِر كما كان دماغ «جرمي» يعجّ بالأفكار السوداويّة المميتة. فجأةً رأى جسده معلّقًا بين السّماء والأرض. فاستلّ خنجره الذي لا يفارق حزامَه وارتمى على الحبل بقوّةٍ وقطَعَهُ بضربةٍ واحدةٍ كالبرق. سقط «جرمي» أرضًا وكانت فيه بقايا أنفاسٍ. خلّص كونبا الرقبة بسرعةٍ من الحبل السّميك، ولكمه لكمةً فظيعةً على خدّه الأيمن وهو يقول: «الجنديّ لا ينتحر أيّها الجبان... الجنديّ يموت واقفًا».

في الحقيقة كنت أعلم أنّ «جرمي» سيقوم بحركةٍ غير متوقَّعة، لكنّي لم أتصوّر قطُّ أنّه سيحاول وضعَ حدٍّ لحياته بتلك الطريقة المهينة. كنت أتوقّع كلّ يومٍ هروبَه، ولاسيّما بعد أن خبر الثّنايا والممرّات والدّروبَ حاملًا مع كونبا شحناتِ السّلاح والذّخيرة إلى الثّوار. حتّى إنّني كنت أسأل: «ماذا ينتظر؟ لماذا لم يحاول الهرب إلى الآن؟!».

ثمّ أخبرت كونبا بأنّ سيموني وُجِد صباحَ اليوم جثّةً هامدةً فوق سكّة الحديد يكاد يخفيه الثّلج لولا تلك الدّماء الحمراء التي تدفّقت من جنبه ورقبته ودلّت عليه العابرين. لم يصدّق أوّل الأمر. خالني أمازحه مزاحًا ثقيلًا. وعندما تأكّد من صدقي، لم ينبس ببنت شفة. تناول فأسه واتّجه إلى جذع شجرة صنوبرٍ، وراح يضرب الجذع بكلّ عنفٍ وقوّة. كانت جنبات الغابة تهتزّ لضرباته، وكان رجع صدى الضربات كبيرًا جدًّا حتّى خلتُ أنّ عاصفةً رعديّةً تجتاح المكان وتهزّ أرجاءَ وادي تاسة. فعل ذلك وهو يقول: «السوفاج... سأقطّع لحمه، سأهبه للذّئاب... سأريه غضب البربريّ، ابن جبل العنز. أقسم بالذي نفخ الرّوح في الجسد لأبترنّ أطراف ذلك الضابط اللّعين وأقطّعها إربًا إربًا. سأجعل الأرض ترتوي من دمه المتعفّن».

استرسل يلعن ويسبّ ويشتم، حتّى طوّقته بذراعيّ من الخلف وأخذت الفأس من يديه. سقط أرضًا مغشيًّا عليه. وعندما أخبرته بأنّ ماريا تريد لقاءه، استفاق ونهض كمَن مسّته النّار، فاستعاد وعيه وفتح أذنيه ليسمعني.

«الآن بدأت حَرْبُكَ الحقيقيّة يا كونبا، يجب أن

تتعقّل»، قلت له ذلك وأنا آخذه إلى داخل الكهف وأمدّ إليه ما حملته من مؤونةٍ. أبى أن يأكل... شرب فقط كأسًا من الماء. ثمّ قال، وهو شارد الذّهن: «هذا يوم نحسٍ. سيموني ماتَ و«جرمي» حاولَ الانتحار. لم يعد لي من سببٍ للبقاء في هذا الكهف!».

في الأثناء سأل جرمي: «هل مات سيموني حقًّا؟!»، كرّر ذلك مرّاتٍ عديدةً وهو يحاول النّهوض.

أجابه كونبا: «أمّا نحن فقد انتهينا وانتهت مهمّتنا الآن!».

حين تأمّلتُ «جرمي» الذي استوى جالسًا، شعرتُ بأنّ الدم سرى في وجهه وفي كامل شرايين جسده حتّى خُيّل إليّ أنّه سعيد. فقد كان «جرمي» يشعر بأنّ سيموني يستغلّه، وتلك المهمّة فُرِضَت عليه وما كان له أن يختارها أبدًا أو يرضى بها. كان يمقته ويحقد عليه في سرّه. وكان مجبرًا على السّير في تلك الطريق المظلمة.

ظلَّ مذهولًا وقتًا طويلًا، ثمّ قال: «أنا جائع». وأكل يومَها كخنزيرٍ لم يعرف الأكلَ منذ أسابيعَ طويلةٍ. منذ عرفته، لم أرَه يأكل بتلك الطّريقة قطٌّ. ربّما كان يثأر لتلك الأيّام التي لم يَذُقْ فيها شيئًا... وربّما للأيّام القادمة. ثمّ خرج يتمشّى خارج الكهف كأنّ شيئًا لم يَكُنْ. قال وهو يغادر الكهف: «أحتاج إلى الهواء البارد...».

بقيتُ وكونبا وحيدَين، نتحدّث في أمر رسالة ماريا. كان الوضع في المدينة متوتّرًا جدًّا، وكانت

العيون مزروعةً في كلّ مكان. قال كونبا: «مقتل سيموني فخّ! وفكرة ذهابي ليلًا للقاء ماريا فيها مجازفةٌ كبيرةٌ. لن أَهَبَ السوفاج فرصةً لتصفيتنا جميعًا هكذا بكلّ سهولةٍ. سأغادر الجبل، لكن ليس الآن. لا بدّ من سلخ ذلك الكلب أوّلًا».

صمت برهةً، ثمّ قال: «يجب أن تأتي ماريا إلى هنا، جِئني بها إلى الكهف».

«إذا أصابني مكروه، اتّصلي بكونبا»، تلك هي الجملة التي كان سيموني يردّدها على مسامع ماريا. وماريا لا تنسى أبدًا. كانت تنتظر تنفيذ تلك الوصيّة. وكان قلبها يحدّثها بأنّ ذلك المكروه سيحصل يومًا، وأنّ الأمر مسألة وقتٍ.

وبالفعل، حَدَثَ ما لم أتصوّره قطُّ. نعم، سرت بماريا إلى الكهف. سرتُ بها مرّاتٍ عديدةً حتّى صارت لا تصبر على ذلك. تغيّرت حياتُها تمامًا، وبدأت تفكّر في السّفر بعيدًا لبناء حلمها الجديد على إحدى ضفاف المتوسّط البعيدة. كانت كلّما تحدّثت عن ذلك امتلأت عيناها فرحًا وفاضت شوقًا. وقد وضعت ماريا خطّةً محكمةً لذلك، لكنّها نسيت تدخّلَ القدر وعبثه في مخطّطات البشر.

انقضت أيّام الشتاء الباردةُ وذابت الثّلوجُ الكثيفة. لم يبقَ منها إلّا تلك البقعة النّاصعة البياض الّتي تظلّ متجمّدةً فوق قمّة جبل العنز، أو «الجحفة» كما نسمّيها نحن. كلّ شيءٍ ذابَ، الثّلجُ والحزنُ والقلقُ والذّكرياتُ الكئيبةُ. كأنّي بالحياة أطلّت من جديدٍ على أصحابنا. جاءت من بعيدٍ بنورٍ يضيء الطرقاتِ المظلمةَ وكذا الأفكار. كانت لكلّ منّا طريقٌ، ولكلّ منّا فكرةٌ. فنبت الأمل

مبكّرًا في قلوبنا وفي قلب الأرض كشمس ربيع ذلك العام. ها هي الشّمس تطلّ من جديدٍ... نشعر بدفئها في أجسادنا ومشاعرنا، فتنتابنا رغبةٌ عنيفةٌ في الحبّ.

نعم، مازلنا قادرين على الحبّ. وحين يأتي الحبّ يصير كلّ شيءٍ جميلًا، ويصبح كلّ مستحيلٍ ممكنًا.

(8)

مدام كريستال.

حان وقتُ الحديث عن تلك السيّدة. أكاد أشمّ رائحتها الآن... أكاد أستمع إلى ضرب كعبها العالي على الرّصيف. كم كنت أستمتع بذلك! كانت تلك الضربات على الأرض متناسقة تمامًا مع دقّات قلبي. وكان ذلك يجعل روحي ترقص مع طيفها الملائكيّ. كم يطيب ذكرها، وكم أشتاق إلى ذكراها!

تلك السيدة الباذخة... أيقونة القرية.

دعنا الآن نأخذ استراحةً من أخبار الحرب والأموات، هدنةً... استراحةَ محاربٍ قديم.

دعنا من ذلك القطار الذي يحمل كونبا إلى المشنقة، دعنا من الضابط السوفاج، دعنا من سيباستيان فإنّه سيموت هو الآخر... وعندما يحين وقت مدام كريستال، يتدفّق الدّم في عروقي. فتلك المرأة السّاحرة غيّرت وجه المدينة وغيّرت معها كلّ شيء.

«فلتذهب فرنسا إلى الجحيم، إلّا كريستال... فلتذهب معنَا إلى الجنّة»، هكذا قال الشيخ حسين. إنّه لَصَادِقٌ وأَمِينٌ. لمّا قال تلك الجملة، صرت أحترمه أكثرَ لأنّي غالبًا ما تصوّرته من المتشدّدين. لقد بيّن لي أنّه يعطي الأشياء حقَّها، وينزّل الأمور منازلَها. وهكذا أعطى السيّدة كريستال حقَّها ووهبَها جنّةً بعرض السماوات والأرض، حتّى إنّ كلّ مَن رآها دعا لها بالجنّة. كلّ القلوب أحبّتها: قلوب رجال قريتنا

ونسائها وأطفالها وقططها وكلابها، حتّى الحدائق والطرقات والجدران. لقد تركت كريستال في كلّ ركنٍ بسمةً وعطرًا وحلمًا.

أذكر ذلك اليوم الذي سألتني فيه عن اسمي. حدث ذلك عندما كان كونبا يعمل مع زوجها السيّد بودان، أجبتها بحياء: «لو بروبر»، وأنا أقصد «الطاهر»». كنت أظنّ وقتها أنّ الأسماء أيضًا تُتَرْجَم. ضحكت عاليا وهي تردّد: «موسيو لو بروبر!».

صرت في عين السيّدة كريستال «موسيو لو بروبر»، وكان ذلك يسعدني كثيرًا.

وعندما فتحت مكتبة المتوسّط، صرت أساعدها تقريبًا كلَّ يومٍ بعدما أفرغ من قضاء شؤوني.

ثمّ صرت صديقًا لها. قالت لي ذلك بعظمة لسانها: «نحن أصدقاء». أتتصوّر أنّ من البساطة أن أكون صديقًا لكريستال، السيّدة الفرنسية؟! لا، إطلاقًا. إنّ ذلك لَشَيءٌ عظيمٌ! بل إنّي حين أكون معها أرى نفسي صديقًا لفرنسا كلّها. في الحقيقة كنت أعتزّ بتلك الصّداقة، أقصد فرنسا التي رأيتها في عينَي كريستال.

كانت تلك السيّدة طويلةً ونحيفةً، شعرها القصير يميل إلى السّواد شتاءً، وإلى البُنّيّ صيفًا، ابتسامتها عريضةٌ وجميلةٌ تكفي كلّ الجالسين أمامها والنّاظرين إلى وجهها المشرق. وكلّ من يراها يقول إنّها كانت تبتسم لي أنا وحدي. «كانت تملك سحرًا يثير دماء الإنسان». سأكون صادقًا معك، هذه الجملة ليست لي. قرأتها في مكان

مًا، وها أنا أستعملها هنا لوصف تلك السيّدة.

في أحد الكتب، قرأت أيضًا عن زهرةٍ لا تنبت في قريتنا، زهرةٍ نحيفةٍ وطويلةٍ وأنيقةٍ تعيش طويلًا، زهرةٍ تتفتّح في كلّ الفصول وبألوان مختلفة. بحثت عنها في الحقول والغابات، فلم أجدها، حتّى جاء ذلك اليوم الذي رأيت فيه مدام كريستال تسير مع ماريا في شارع المحطّة. جريت إلى كونبا وسألته: «من هذه؟»، أجاب: «كريستال، زوجة المعمّر بودان، لَحِقَتْ به مؤخّرًا لتستقرّ في قريتنا بعد أن كانت مقيمةً بالعاصمة». لمّا رأيتها، أقسمت أنّها هي... نعم هي، الزّهرة التي قرأت عنها في ذاك الكتاب ولا تنبت في قريتنا، زهرة الأوركيد الجميلة، الزهرة التي يكفيها قليلٌ من الماء وقليلٌ من التّراب وقليلٌ من الهواء لتحيا طويلًا. الآن، صارت تنبت في قريتنا وفي قلوبنا.

بعد أن استقرّت في قريتنا مع السيّد بودان ببيتها الجديد في «الفيرمة»، تردّدتْ أوّلَ الأمر كثيرًا على العاصمة لأنّ لها طفلَين يدرسان هناك. ولمّا غادرا للدراسة في باريس، استقرّت السيّدة بشكل تامٍّ في القرية. بعد ذلك فتحت محلًّا للتمريض، ثمّ أضافت إليه قسمًا للتّوليد. فيما مضى كنّا نذهب إلى الكاف. كانت الطريق صعبةً وغالبًا ما يتسبّب انعدام المواصلات في موت أمّهاتٍ كثيراتٍ وأطفالٍ كثيرين. أذكر عندما كتبنا اللّافتة ووضعناها على واجهة المحلّ، رفعتها أنا وكونبا لتعليقها: «بيت الصّليب للتمريض». ولمّا مرّ الشّيخ حسين من أمامها ورأى شعار الصليب، قال لها: «أيّتها السيّدة الفاضلة، ألا تعلمين

أنّ عيسى هو الرّحمة المهداة لكلّ النّاس؟! ألا تعلمين أنّه كان طبيب البشريّة جمعاء؟!» اعتذرت وقالت إنّها لم تقصد المساس بديننا. ثم غيّرنا الاسم إلى «بيت السلام للتمريض». كانت تحترم الشيخ حسين احترامًا كبيرًا، وصارت تستشيره في بعض التّفاصيل خوفًا من رَدِّ فعل بعض الأهالي أو سوء فهمهم للأمور. إنّها ترى جيّدًا، وتشعر، وتقدّر الأمور كما يجب. كانت صادقةً، فصدّقها النّاس.

خلف البريد مباشرةً، توجَد قطعة أرضٍ شبه مهجورةٍ. كنّا نربط فيها حميرنا يوم السّوق الأسبوعيّة. ولمّا رأتها مدام كريستال، قالت: «أمّا هذه فستكون حديقة المدينة ومكتبتَها». ثمّ اشتغلنا ليلًا نهارًا وبلا مقابلٍ لتهيئتها، كما أرادت السيّدة كريستال بالضّبط. زرعنا سورًا جميلًا من أشجار السّرو واليوكاليبتوس، ثمّ اعتنت هي بالأزهار. كنّا نحن نحفر، وهي تزرع. في مدخل الحديقة كتبَتْ باللّغة الفرنسيّة واللّون الأزرق: «Le jardin méditerranéen»(1). وفي وسط الحديقة، بَنَت مدام كريستال، بعد الاتّفاق مع السيّد فرانسوا بالاج، أربعَ غرفٍ، جعلت إحداها للمكتبة، وكتبت عليها: (2)«La bibliothèque méditerranéenne»، والأقسام الثلاثة الأخرى أطلقت عليها اسم المدرسة الفرنسيّة. كانت المدرسة النظاميّة التونسيّة الأقرب توجد في الكاف، وقد شُيّدت حديثًا غير بعيدٍ عن المدرسة الفرنسيّة التي درسنا بها. وكان الشيخ حسين يدرّس اللّغة العربيّة في المسجد مع تحفيظ

القرآن. أصبح الأطفال المهتمّون فيما بعد يتردّدون على المدرستَين في الوقت نفسه. أقول المهتمّين لأنّ بعض الأولياء ظلّوا يُورّثون أمّيّتهم العمياء كَقَمَلِهِم الذي كان يتنقّل بين رؤوسهم بكلّ حرّيّة.

قبل أن أعود إلى الحديث عن «مكتبة المتوسّط»، لا بدّ هنا من التوقّف لِأُوفِيَ السيّد بودان حقّه. هو الشّخص الوحيد الذي موّل مشروعَ الحديقة الكبيرة التي تتوسّطها المكتبة. «ذلك الكافر رجلٌ طيّب!»، يقولها الشيخ حسين وهو يتجوّل داخل الحديقة، ثمّ يقطف منها بعض الزّهور ويضعها في مدرسته بالمسجد.

قالت بعض النّفوس المريضة إنّ السيد بودان لم يفعل ذلك حبًّا فينا، لكنّه كان يبحث عن سببٍ لإلهاء زوجته التي تحبّ العودة دومًا إلى باريس والاستقرار هناك مع طفليها. كنتُ أشعر بأنّها ترى في الاستعمار عارًا وشيئًا شائنًا. ما كنتُ أظنّها راضيةً عن الأمر، لكنّها لم تقل ذلك الكلام أمامي علنًا، أمّا أنا فقد سمعت صداه يتردّد بين جوانحها وفي أعماق نفسها لمّا صرنا صديقَين وشريكَين في المكتبة.

يمكنكَ أنتَ أيضًا أن تغضب وترفع صوتَك قائلًا: «إنّ السيّد بودان بنى كلَّ ذلك المجد من خيرات أرضنا، من قمحها وشعيرها وزيتونها، ومن عرق عمّال الأهالي». يمكنك أن تقول ذلك وأكثر. سأتقبّله منك بصدرٍ رحبٍ كما تقبّلتُ كلامَ تلك النّفوس المريضة، لكنّني سأرفع صوتي غاضبًا وأرفع عصاي مهدّدًا العالم كلّه، ثمّ أقول: «هل

رأيتَ اليوم فلّاحًا واحدًا من أهلنا يهيّئ حديقةً أو يبني مكتبةً أو مدرسةً أو يمدّ طريقًا أو جسرًا؟!».

أقول ذلك بصوتٍ عالٍ وبثقةٍ في النّفس. أمّا الآن، وبعد أن هدأتُ، فلنَعُدْ إلى السيّدة كريستال. حين سلّمتني مفاتيح المكتبة، أقسم لك أنّي شعرت بنفسي تسلّمت مفاتيحَ الجنّة أو مفاتيحَ المدينة الفاضلة، أو واحدةٍ من تلك المدن الأسطوريّة الباذخة. شعرتُ بأنّني أصبحت ذا شأنٍ وقيمةٍ. أمّا وقت الفراغ الذي كنت أقضّيه جالسًا على هضبة الإكليل في انتظار أن يأتيني العالم بين يديّ، فقد ودّعته بلا أسفٍ، ودّعته وداعًا لائقًا وجميلًا، لأنّني عوّضت ذلك بجمال الكتب والمجلّدات. وكم كانت رائحتُها أخّاذة!

فجأةً أمطرت كتبًا من حيث لا ننتظر. أمطرت بغزارةٍ كأمطار الخريف المفاجئة: أمطارٌ وحرثٌ وزرعٌ وكتبٌ وسفرٌ بين الرّفوف. ماذا نريد أكثر من ذلك؟! تدفّقت الكتب من العاصمة ومن مدنٍ أخرى. وصلتنا كتبٌ من المغرب والجزائر ومن فرنسا أيضًا! قريتُنا التي لا تشبه شيئًا، تلك القرية التي تتبرّز على نفسها وتنام في الظّلام وحيدةً بلا نورٍ وبلا طرقاتٍ صارت مدينةً جميلةً... وتقرأ الكتب.

على الرفوف الخشبيّة التي دهنّاها باللّون الأزرق السّماويّ، تعرّفت إلى عناوين عديدةٍ ما كان لي أن أسمع بها على الإطلاق: قصص، روايات، أشعار، فلسفة، أدب، تاريخ، فنّ. فعشّشتُ في ذلك المكان كعنكبوتٍ. أذكر أنّ أوّل كتابٍ قرأته كان مقدّمةَ ابن خلدون. ولمّا كدت أنهيه، وضعت السيّدة كريستال كتابًا فوق طاولتي

وهي تقول: «يجب أن تقرأ هذا أيضًا».

كان جزءًا من ديوان «أزهار الشرّ» لبودلير. وجاءتني بكتبٍ أخرى عديدةٍ ذكرتها في كرّاس مذكّراتي، وستجد ذلك الكرّاسَ في الصندوق الخشبيّ كما اتّفقنا. كدت أشعر بالخجل لمّا أهدتني السيّدة كريستال كتاب «ألف ليلة وليلة» وكتاب «النّبي» لجبران خليل جبران. أهدتني الكتابَين وهي تقول: «هذه أفضل الكتب العربيّة في مكتبتنا!». يومَها شعرت بالخجل لأنّني لم أكن أعرف تلك العناوين. ثمّ تحوّل ذلك الشّعور بالخجل إلى شعورٍ أشدّ قرفًا، عندما حدّثت نفسي بأنّهم يعرفون ثقافتنا وتاريخنا أكثر منّا، بل هم من اكتشفونا تاريخيًّا. قلت ذلك لأنّني تذكّرت أيضًا تلك المجموعة الفرنسيّة من العلماء والباحثين الذين زاروا قريتَنا وخيّموا أيّامًا معدودةً على أطراف مقبرة الرّوم، ثمّ غادروا إلى آثار مدينة سوق الثلاثاء والمدينة الأثريّة بدُقّة.

أمّا مفاتيح المكتبة التي تسلّمتها من السّيدة كريستال، كما يتسلّم المرء تاجًا ملكيًّا، فسأعود إليها بعد حينٍ. لا أريد الآن أن أتذكّر لحظةَ العار تلك... لا رغبةَ لي في ذكر أولئك السذّج وأولئك المقمّلين. دَعْهُم الآن يحترقوا في الجحيم ببطء. إنّهم لم ينضجوا بعد. وعندما يحين وقتهم، سأضعهم على السّندان وأضربهم بالمطرقة السّوداء كما يفعل الحدّادون.

أنت أيضًا ستتمنّى فعلَ ذلك عندما يأتيك خبر مصير المكتبة.

دعني الآن أستمتع بتلك المفاتيح الفضّيّة اللّون،

وأستمتع بصحبة السيّدة كريستال، بزهرة الأوركيد التي نبتت في أرضنا، وكلّ صباحٍ تشرق على قريتنا كشمسِ ربيعٍ مليءٍ بالأزهار والأنوار، تلك المرأة الرّاقية التي تحطُّ على كتفَيْها العصافيرُ، وتحوم حولها النّحلةُ إذ تحسبها زهرة.

كنت أعتني صباحًا بشؤون بيتي وشغلي، وعندما يحين وقتُ العصر أدخُل المكتبة حتّى آخر المساء، وأحيانًا أبقى هناك حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من اللّيل. ثمّ أعود إلى بيتي حالمًا بسفرٍ جديدٍ بين الرّفوف. نسيتُ أن أَذْكُرَ لك ذلك الشّغل الذي كنت أقوم به صباحًا. لمّا قُسِّمَت الأرضُ بالعدل بين المعمّرَيْن، سيباستيان وبودان، ولمّا ضيّق علينا في رزقنا، وأَمَرَنَا الضّابطُ السوفاج بالعمل والانضباط وهدَّدَنا بتفريغ رصاصات مسدّسه في مؤخّراتنا، وإذْ لم يعد يوجَد مرعًى للمواشي التي بِعْتُها كلَّها، بدأتُ أبحث عن ذلك الشيء الذي يقيّمونه بميزان الذّهب والفضّة. في الحقيقة، لا يوجد شيءٌ اسمُه فقرٌ. الأصل في الإنسان هو الثّروة! وليس للفردِ في فَقْرِهِ ذنبٌ وهو صغيرٌ، أمّا إذا كَبُرَ فهو مسؤولٌ عن كلّ ما يملك.

بينما كان أولئك السذّج ينامُون في محطّة القطار وتحت شجرات اليوكاليبتوس المنتصبة أمام مقهى شعبان وجدار مقبرة الوليّ الصّالح، حملتُ كيسًا ونزلتُ المنحدراتِ، ثمّ صعدتُ الهضابَ ودخلت الحقولَ والغاباتِ بحثًا عن نبتة الكبّار. كنتُ أجمعه بشغفٍ، وعندما تُشرِق الشمسُ أَمُدُّ يدي سالمةً فتعود متألّمة. مع كلّ حبّة كبّار يحدث خَدْشٌ، وقطرةُ دمٍ، لكن كانت جيوبي

تمتلئ بالمال الطيّب الحلال والمبارك. كنت أجمع الأكياسَ وأحملها إلى سوق الثلاثاء حيث أبيعها هناك بالجملة للتُجّار. وكان أولئك التجّارُ يبيعونَه بدورهم للمعمّرينَ الذين يبعثون به إلى فرنسا. ولمّا شعرت باستغلالهم زرتُ السيّد بودان يومًا في الفيرمة. واقترحت عليه شراء الكبّار بكمّياتٍ كبيرةٍ، فرحّب بالفكرة. وبعد ذلك أصبح لي شركاء في قطف الكبّار ولاسيّما من النّسوة، أولئك الكادحات والعاملات من الفجر حتّى المساء. أقول لك لولاهنّ لفسدت هذه البقعة من الأرض ومَن عليها! كنت أشتري منهنّ وأبيعُه للمعمّر. وحين ينتهي موسم جمع الكبّار أنصرف إلى جمع الحلزون على أطراف الوادي الكبير. لن أحدّثك عن تفاصيل تجارة الحلزون، لأنّ السيّدة كريستال ما تزال تنتظر. فأرجو المعذرة. أنت أيضًا لو عرفتها لما كان لك أن تتركها تنتظر. خلاصة الحكاية أنّني صرت من الأغنياء بالقوّة النّاعمة وبالحكمة التي اكتسبتها. «مَن أوتي الحكمة، فقد أوتي خيرًا كثيرًا»، هكذا يقول القدير في كتابه الكريم. وهذه أيضًا أعظم الآيات عندي. ليت تلك الغربان الناعقة تفهم هذا.

كُنْ غنيًّا، لكن إيّاك أن تكون غنيًّا كأغنياء قرطاج. تلك اللّعنة القديمة مازالت تلاحقنا! هذا الوطن ابْتُلِيَ بأغنيائه وأغبيائه معًا. يُقال إنّ أولئك الأغنياء باعوا حنّبعل لروما بثمنٍ بخسٍ، عندما زجّوا به في تلك المعركة الخاسرة في جهة زامة، وهي لا تبعد عنّا كثيرًا من هنا. أكاد أشتمّ رائحة الخيانة مع رطوبة الآثار القديمة. وسأعود إلى

زامة المنحوسة عندما يسقط فيها ذاك الرجل الذي حاول الهرب. يومَها قلت لهم: «اختاروا كلّ الطّرق إلّا طريق زامة!»، لكنّهم أَبَوْا ذلك. فأصابتهم اللّعنةُ... لعنةُ أغنياء قرطاج!

داخل المكتبة، وفي الأوقات التي يكون فيها السيّد بودان مشغولًا بالفيرمة وبالعمّال وبالأرض، كانت علاقتي بالسيّدة كريستال تتوطّد أكثر فأكثر. ماريا أيضًا لم تكن تزورها كثيرًا، كانت مشغولةً بمحلّ الأقمشة، وبذلك العشق الذي أخذ جسدَها وروحَها معًا.

أقسم لك بالذي خلق القلوب وبثّ فيها المشاعر وهيّأها كما ينبغي للحبّ أنّ ذلك العشق غدّار. «إنّه كلب من الجحيم»، كما قرأت في مكان مّا. غدر بماريا وجعلها تلهث كجرٍو عطشان، جعلها تفكّر في الإبحار بتلك القوارب التي رسَمَتْها.

أمّا أنا فقد استعنت بكلّ ما أملك من حكمةٍ وصبرٍ لأنتصر عليه، جرحَتْ شجرةُ الكبّار أطرافي، فسالت الدّماء لأصير من الأغنياء، وجرح حبُّ كريستال قلبي، فصرت من العشّاق، ولكنّني عرفتُ طريق النجاة. كاد يصيبني سهمُ كريستال في صدري لولا أنّي انحنيت برأسي المملوء بالحكمة يمينًا وتركت قلبي يتألّم على اليسار.

كانت حين تراني في المكتبة تسألني ككلّ مرّةٍ، هل أكلت جيّدًا؟ هل نمتَ جيّدًا؟ السّؤال الذي يسأله كلّ الفرنسيّين عادةً. وعندما تريد نصحي تقول: «كُلْ جيّدًا وَنَمْ جيّدًا». فهمت من ذلك أنّ الفرنسيّ لا يكون طيّبًا ومبدعًا إلّا إذا شبع. أمّا إذا جاع فإنّه يقترف كلّ القذارات والفظاعات، وربّما

كانت تلك حال كلّ الأوروبيّين. أمّا نحن فنصوم الدّهرَ ونسهر اللّيلَ ولا نتأثّر، كجِمَالٍ لا يعنيها جفاف الصّحراء ولا سفر الليالي. ثمّ صارت تحدّثني عن أشياء تخصّها. وعندما تهمّ بالمغادرة، تقبّلني وتقول لي وهي تبتسم: «إلى غَدٍ، صديقى لوبروبر». في الأثناء أبقى جامدًا ولا أتحرّك، أستمتع بتلك اللّمسة وذلك العطر. وعندما تغادر، أجلس على الكرسيّ وأنا أكاد أتعرّق، ثمّ أتنفّس ببطءٍ حتّى أعودَ إلى رشدي.

لا أعرف كيف ضاع منّي الصّبرُ وتاهت الحكمة، لا أعرف كيف تفتّحت الأبوابُ والأحضانُ حتّى أصابتني تلك الرّعشة، رعشة انتفضت لها كلّ أطرافي، حتّى أطرافي الميّتة والأماكن المنسيّة من جسدي أصابتها الانتفاضة.

كانت تصرخ، نعم تصرخ من الأعماق، وتقول بالفرنسيّة، «أُنْكُورْ مسيو لوبروبر.. أونكو... أنكور...» ثمّ تردّد ذلك بحرقةٍ وشغفٍ، فأستجيب ككلبٍ يخدم سيّدته كما ينبغي.

كنت أتوقّف عند كلّ تفاصيل جسدها أكتشفه وأتهجّاه بشفتيّ متتبّعًا الخريطة المفضية إلى النّبع... ولمّا صاحت بصوتها الحنون: «مسيو لوبروبر!»، انبهرتُ بقدراتي في الحبّ.. بل إنّني اكتشفت نفسي بحقٍّ عندما اكتشفتُ قارّةً جديدة اسمها كريستال، ألم يقل صاحب كتاب النبيّ الّذي أهدتني إيّاه حبيبتي كريستال: «أنا كولومبس نفسي وفي كلّ يوم أكتشف قارّةً جديدة فيها»؟

أذّن المؤذّن لصلاة الفجر... كنت مبلّلًا ومقرفًا! اللّعنة... اللّعنة... اللّعنة... ردّدتها ثلاثًا واستعذتُ

من الشّيطان وطهّرت نفسي وصلّيت. ثمّ سرت إلى مقهى شعبان لأحتسي القهوة الفيلتر. في الحقيقة احتسيتها بنشوةٍ حتّى إنّني دخّنت معها سيجارةً رغم أنّني لست من المدخّنين.

لمّا دخلت المكتبةَ، لم أكن قادرًا على النّظر إلى عينَيها. كنت خجلًا من نفسي، لأنّني لم أفكّر يومًا في ممارسة الحبّ مع السيّدة كريستال، لا... لا... أبدًا... مستحيلٌ أن يحصل ذلك. الجنس جنابةٌ، حرام! لذلك نحن نغتسل منه كلّما مارسناه. الشّيطان أغواني بها في المنام، لأنّه عجز عن ذلك في الواقع. كانت علاقتنا طاهرةً وأشدّ طهارةً من اسمي الطّاهر «لو بروبر»، وقد كانت علاقتنا «بروبر». لكن لو سألتني: هل أحببتها؟ لقلت لك: نعم. أقسم لك بالقدير الذي بعث المشاعر في جسد الإنسان أنّني أحببتها. أنت أيضًا كنت ستحبّها!

سألتها مرّةً عن السيّد بودان، أقصد سألتها عمّا إذا كانت تحبّه. فقالت وهي مشغولة بترتيب الكتب: «إنّه زوجي». سألتها مرّةً أخرى: «ماذا يعني ذلك؟» فنظرت إليّ مليًّا، ثمّ همّت بجمع أشيائها لتغادر. قلت لها وهي تجذب بابَ المكتبة وتتركني وحيدًا: «أعتذر مدام... لعلّي أزعجتك». ولمّا تلاشت، شعرت بالقرف، شعرت بأنّني لا أفهم النّساء.

نظرتها تلك قسمتني إلى نصفين. كأنّي بها سكبتْ على جسدي سطلًا من الماء البارد جمّد كلَّ شيء فيّ. لمّا عادت في اليوم التالي، كانت تبتسم، لكنّي كنت أعلم ما تقوله في سرّها:

«موسيو لو بروبر لا يمتلك ما يكفي من الخبرة في أمور الحبّ والنّساء»! أقسم لك أنّها على حقٍّ. فأنا لم أعرف الحبّ أصلًا ولا أفهم النّساء. تزوّجت ابنةَ خالتي، لأنّي كنت أحبّ أمّي وأبتغي رضاها عنّي. ولمّا توفّيَت، تزوّجت أختَها التي تصغرها حبًّا في أطفالي. كنت أريدهم أن يتربّوا عند خالتهم، ذلك أفضل من أن تربّيهم امرأةٌ غريبة. أمّا قلبي فلم يكن له صوتٌ، حتّى ظهرت أمامي السيّدة كريستال! لكنّي تفطّنت إلى سحرها في الوقت المناسب وحسمت الأمر لصالحي إذ علمت أنّني سأخسر من جميع النواحي. ودرّبت نفسي على الموت.

إيّاك ثمّ إيّاك أن تكون حكيمًا في الحبّ. كن معه كالمجانين... أمّا الحكمة فتصلح لكلّ شيء إلّا الحبّ.

وأنا هنا لا ألوم نفسي فحسب، بل ألوم هذا المجتمع البائس الذي ترعرعتُ فيه. نحن لم نتعوّد الحبّ ولم نتدرّب عليه. وإن خالجتنا صدفةً مشاعر مختلفةٌ فإنّنا غالبًا ما نتركها جانبًا أو ندوسها كالدّواب. كنت صغيرًا ولا أذكر أحدًا من حولي قال لي أحبّك وقبّلني ووضعني في حضنه. لا أذكر أحدًا مسح بكفّ يده بحنانٍ على رأسي. لا أذكر أحدًا وضع قطعة حلوى في جيبي أو حتّى قطعةً من الطباشير الملوّن. كان الجميع يزأرون في وجهي: «كن رجلًا قويًّا وناجحًا». أمّا الحلوى فكانت للبنات، وكنتُ أنا أتفتّت من الداخل. حتّى أمّي كانت تأخذني من يدي عندما نقطع الأوحال والأودية الفائضة، وحين نكون في أمانٍ تتركني

وحيدًا. أحاول الإمساك بيدها من جديدٍ فتقول لي: «كن قويًّا أنتَ رجلٌ الآن». وكنت أتفتّت من الداخل. حتّى إنّني دخلت المسجدَ مرّةً وأنا طفلٌ، ولمّا كنت متعبًا أخذني النعاس ونحن ننتظر صعود الإمام على المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، وحين رآني أحدهم ضربني بحجر التيمّم حتّى أستيقظ وهو يردّد: «كن رجلًا، كيف تنام في المسجد؟!». غادرتُ المسجدَ وتركتُ ذلك المصلّي يصرخ والإمامُ يصرخ والعالمُ يصرخ في أذني ويقول لي: «كن رجلًا قويًّا وناجحًا».

لمّا كبرت صرت أقول تلك الجملة لنفسي: «كن رجلًا قويًّا وناجحًا. وأضفت إليها: وكُن حكيمًا!».

وكنت أتفتّت من الداخل وأتشقّق كطينٍ يابس.

أمّا السيّده كريستال، فسأعود إليها بعد حينٍ، لمّا قبّلتني آخر مرّةٍ ثمّ غابت إلى الأبد... في يوم حزين لا أريد أن أتذكّره، في ذلك اليوم كنت أشعر بالخوف وأنا أستمع إلى الخطبة التي ألقاها الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج... وأثناء تلك الخطبة تذكّرتُ حمار سيدي عبد الله الذي قتلته شظايا اللّغم.

هل انتهينا من الحبّ الآن؟ لا، إطلاقًا. ها هو يعصف بماريا في جبل العنز وفي البحر المتوسّط. وها هي تلك البنت العاشقة التّائهة تجهّز قارب الرّحيل. لطالما ظننتُها بسيطةً بلهاء، ولكنّها كانت أعمق ممّا تصوّرت. تلك المرأة كانت عطشى إلى الحرّيّة والحبّ كأرضنا. لقد رأيتها بعينيّ تمارس ذلك الشّيء... الشّيء الذي لن أسمّيه... رأيتها تمارسه تحت أشجار الصّنوبر وعلى ضفاف

الوادي الكبير وداخل الكهف. رأيتها تمارسه في برد الشّتاء وفي حرّ الشّمس، وحين تغنّي العصافير في كلّ مكان، وحين تغيب الشّمس ويبزغ القمر. رأيتها تمارسه بنهمٍ حتّى ارتفعت آهاتها وشهيقها وضحكاتها وتنهيداتها. رأيتها تمارسه بطرق «بيزار»! اعذرني، لن أقول غريبةً، فكلّما تحدّثنا عن ذلك الشيء احتمينا بلغةٍ غير لغتنا واختفينا خلف ستارٍ من الكلمات على الرغم من أنّ أسلافنا صنّفوا فيه أكداسًا من المجلّدات. سأقول «بيزار» إذن بكلّ ما في الكلمة من «بيزار»!

ولا تضحك، فأنتَ أيضًا كنت ستقول: «بيزار»!

(9)

عندما يزهر الحبّ...

في الحرب تولد الصّداقات الغريبة... وفي الحرب يزهر الحبّ!

نفّذتُ طلبَ كونبا، ورَتَّبْتُ أوّلَ موعدٍ لماريا معه في الكهف...

حدثَ الأمرُ بعد أن هدأت الأمور في القرية ودُفِنَتْ قضيّةُ موت سيموني الإيطاليّ إلى الأبد. وكان بذلك آخر إيطاليّ أراه. كنتُ أناديه بالرومانيّ الأخير. رحل ولم يترك لنا غير مقبرة الرّوم وعادة شرب القهوة. عاش كذئبٍ إيطاليّ وماتَ مغدورًا بمكيدةِ ثعلبٍ فرنسيّ، الثعلب الذي غابَ فجأةً عن الأنظار. كان غالبًا ما يأخذ كتيبتَه ويسير باتّجاه العاصمة شرقًا أو باتّجاه الجزائر غربًا. وعندما تيقنّتُ من غيابه رتّبتُ ذلك الموعد، بعد أن ذابت الثّلوج وتفتّحت الأزهارُ وغنّى الطّيرُ وبرزت الشّمسُ كوجه كريستال الجميل.

دخلت ماريا الكهفَ وجلست إلى كونبا. رأيتُه يسلّمها رزمةً من المال، وهي حصيلة صفقات الأسلحة. رأيت نقودًا وفضّةً وذهبًا، ورزمةً من الجلد الأحمر مملوءةً بالقمح. سلّمها كونبا كلَّ ذلك وهو يقول: «يجب أن نثأر لسيموني، يجب أن نُنْهِي أمرَ السوفاج، وسأشرح لك ما يجب عليك فعله». ثمّ أخذَها إلى الخارج يُحَدِّثُها وَهُمَا يسيران ببطءٍ نحو قمّة جبل العنز. كلّ ما علق بذاكرتي أنّني سمعت ماريا تقول: «أنا خائفة»، فيجيبها كونبا: «حياتنا مرتبطةٌ بموت ذلك القذر...

يجب أن يموت كي نحيا جميعًا في أمان».

في تلك الأمسية رسمَ كونبا خطّتَه المجنونة. ثمّ أصبحت ماريا تتردّد على الكهف من حينٍ إلى آخر. كانت تطلب منّي مصاحبتَها إلى هناك عندما تحين الفرصة وتكون الظروف مناسبةً. فأرفض أحيانًا، وأوافق أحيانًا أخرى لأنّها صارت كثيرةَ الإلحاح بشكلٍ جعلني أشعر بالخجل أحيانًا وبالخوف أحيانًا أخرى.

وكلّما رافقتها إلى الكهف كانت تجلس إلى «جرمي»، وهي في غاية السعادة، وفي طريق عودتنا كانت تمشي معي وكأنّها ترقص. في البداية ظننتُهما يُكملان حكايتهما عن الرّسام الألمانيّ «أوغوست ماكي» الذي مات في الحرب العالميّة الأولى. وسوف يتوقّفان. لكن ما حصل بعد ذلك لم يكن يخطر على بال أحدٍ، حتّى إنّني حذّرتها ذات يوم قائلًا: «ماريا، لا تتردّدي كثيرًا على الكهف، إنّ العيون مفتّحة كشمس النّهار وقمر الليل». ولمّا أبت وازدادَ عِنادُها وإلحاحُها، سألت نفسي: أَيُعْقَلُ أنّها وقعت في الحبّ المستحيل؟! «أنبوسيبل! أنبوسيبل...» كما تقول مدام كريستال. لا... هذا مستحيل!

خلّصها الموتُ من ذلك المافيوزيّ الإيطاليّ، وها هي الآن تقع في شراك جنديٍّ نازيٍّ! ماريا الغبيّة، ماريا الطائشة... هذا ما قلته في سرّي عندما عجزتُ عن صدّها.

أَيُمْكِنُ لمثل هذا أن يحدث؟! حبٌّ وسطَ الدّمار؟! نعم يحدث! حدث ذلك في قريتنا وأمام عينيّ. في الحرب تولد الصّداقات العجيبةُ وفي الحرب تبدأ

القصصُ المثيرة. ينبت الحبّ كما ينبت الفطر البرّيّ في الرّماد فيصير نافعًا... ويوزّع دفئه على القلوب والأجساد.

رأيت «جرمي»، الجنديّ النّازيّ... رأيته يعود إلى الحياة ويبتسم ابتسامةً عريضةً. رأيته نَشِطًا رشيقًا. حتّى تلك الجملة التي كان غالبًا ما يردّدها: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السّوداء» غابت تمامًا، ولم يعد ينطق بها مطلقًا، لأنّ حلمه طفق الآن يتشكّل ويتحوّل إلى حقيقة، وحلمه يكمن في ذلك القارب الذي يتمدّد على الرّمال في انتظار المبحرين، الهاربين من الموت والفارّين إلى الحياة. الوجهة القادمة حينئذٍ هي البحر! والمهمّة الآن هي الخروج من ضيق الجبل إلى فسحة البحر. من هنا فقط تبدأ طريق النّجاة... هذا ما قرّراه سرًّا، ثمّ أعلنَاه على رؤوس الأشهاد.

كنتُ أظنّ ذلك الخنزير جلفًا جامدًا لا يتّسع قلبُه للمشاعر والحبّ. كنت أظنّه آلةً ألمانيّةً صمّاء لا تحسن غير القذف، حتّى سمعتُه بأذنيّ يقول لها: «انفخي فيّ من روحك الطاهرة، روح العصافير والأزهار!». ثمّ نفخت فيه فعلًا بالقبلات، فعاد ملاكًا جميلًا يحمل النّور، ونسيَ كلَّ تلك الآثام والآلام.

ما لا نستطيع تغييره بالسّلاح، يمكن أن نغيّره بالحبّ...

لكن قبل أن أعود بك إلى تفاصيل تلك الرّحلة البحريّة التي بدأت تتشكّل وتكبر وتصير جميلةً وممكنة... قبل أن أدخل بك في أمواج تلك الفكرة

العاتية، دعني الآن أُنْهِ أمرَ الضّابط السوفاج، دعني أكنُسه من حكايتنا لتصيرَ طاهرة، دعني أطرده كشيطانٍ رجيم.

بعد وفاة سيموني، صار ذلك السوفاج يتردّد صباحًا مساءً على محلّ ماريا. وأيّامَ يكون بلا مهمّةٍ، فإنّه يكاد يرابط أمام عتبة المحلّ ككلبٍ لئيمٍ جائعٍ بلا كرامة. «ماريا أنا أحبّك... ماريا لا أتصوّر حياتي من دونك... أنت اليوم لي... أريد أن أتزوّجك» ذلك ما أخبرتني به المسكينة وهي تقلّد صوته باستهزاء.

يظلّ يردّد تلك العبارات المستهلكة حتّى يغادر كمتسوّلٍ رخيصٍ، لأنّه لم يجد منها غيرَ الجفاء والرّفض. بل كم مرّةً قالت له بصوتٍ عالٍ، وكما يقولها سيموني بالضّبط: «فا فانكولو سوفاج!».

ولمّا قابلَتْ كونبا وأخبَرتْهُ بذلك، قال لها بكلّ حزمٍ وثقةٍ: «أمّا الآن فقد حان وقته، حان وقت قطف الرّوح، لقد نضجت الوليمة، تحرّكي بحسب الخطّة». وبالفعل، شرعت ماريا في أخذ الأمور بجدّيّةٍ لأنّ السوفاج صار يضايقها ليلَ نهار وكأنّ صدّها له لا يزيده إلّا إلحاحًا.

دخل يومًا محلَّ الأقمشة، حدّثها في الحبّ والزّواج وبناء حياةٍ جديدةٍ وسعيدة، حتّى إنّه أخبرها باستعداده للتخلّي عن وظيفته العسكريّة من أجلها، والعيشِ معها في المكان الذي تختاره. وحين رفضته ولم تتجاوب معه ككلّ مرّةٍ وهمّت بطرده، احتضنها عنوةً، وحاول تقبيلها، فانزلقت من بين أحضانه كسمكةٍ وهي تقول: «يجب أن نلتقي خارج القرية، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ

على وفاة سيموني، ولا أريد أن يعرف النّاس أنّني على علاقة بك... دعنا نترك الأمرَ سرًّا بيني وبينك حتّى نجد حلًّا مناسبًا». فلمّا سمع ذلك، قفز فرحًا وهو يقول: «أنا جاهز!». وحدّدت له موعد المقابلة خارج المدينة... أقصد موعد القيامة.

لم يمضِ يومان أو ثلاثةٌ حتّى سارت هي باتّجاه سفح الجبل وسار هو وراءَها... بدأ المساء يلملم رداءَه وغابت الشّمس خلف الجبل. سأل السوفاج: «إلى أين؟!»، أجابت: «أبحث لنا عن مكانٍ جميل يليق بلقائنا الأوّل!».

حين غادرا حقولَ الزيتون أخذَها من ذراعها واستسلم برأسه على كتفها ورائحةُ نبيذه تفوح من أنفاسه. كان منتشيًا وجاهزًا كما ينبغي، فقد ظلّ يترقّب ذلك الموعد وهو جالسٌ في حانة سيباستيان حتّى نسي عدد كؤوس النبيذ التي احتساها... مرّت به عبر حقول الزّيتون المتاخمة للمدينة، ثمّ عبرت حقولَ الكروم، ثمّ أشجار الأكاسيا حتّى وصلت إلى شجرة الخرّوب الكبيرة المنتصبة في مدخل الجبل تمامًا... لمّا وصلا إلى هناك كان اللّيل قد حلّ بأسراره وظلماته. كان يحدّثها طوال الطريق عن حبّه الكبير لها منذ أن رآها أوّلَ مرّةٍ دخل فيها المدينة. كان منتشيًا بالخمر والحبّ حتّى إنّه لم يشعر بتلك المسافة الطويلة التي قَطَعَها.

عندما اتّكأت على جذع شجرة الخروب السّميك جدًّا، أخذها من خصرها بيدَيه وقبّلها طويلًا، من شفتيها، ثمّ من أذنيها، ومن شعرها ورقبتها وصدرها... قبّلها بلهفةٍ كسوفاج حقيقيٍّ جائعٍ

وضمآن. وحينما همّ برفع تنّورتها القصيرة وهو يتحسّس فخذَيها الممتلئتين، أسقطته ضربةٌ قويّةٌ على رأسه أرضًا. ولمّا همّ بالنّهوض، لَكَمَهُ الكونبطا على جبينه من جديدٍ، فسقط مرّةً أخرى وبدأ ينزف. ثمّ ارتمى عليه يضربه بعنفٍ حتّى فجّر وجهَه ففارت دماؤه بغزارة. وبعد ذلك سحبه وقيّده إلى جذع شجرة الخروب. تفاجأ السوفاج حتّى إنّه عجز عن تحريك لسانه ولم يقل غير: «إذَن أنت هنا أيّها البربريّ... سأفجّر رأسَك بمدفعٍ أيّها البربريّ... ستدفع أنتَ وأمّك وأهلك وكلّ القرية الثّمن باهظًا».

دفع الكونبطا جرمي وماريا إلى الوراء وهو يقول: «هذا الثعلب من نصيبي، من نصيبِ البربريّ ابن جبل العنز، ابن الوادي الكبير، ابن الرّيح والعاصفة». وفجأةً تغيّر لونُه، وجحظت عيناه واحمرّتا حتّى صارتا كقطعتَي جمرٍ وجفّ فمه ولسانه كصحراء قاحلة. مدّ فأسَه أمامه ثمّ بدأ فعلتَه تلك بهدوء... كانت جريمةً شنيعةً كلّما تذكّرتُها انتابتني الرّغبة في التقيّؤ. كان بإمكان كونبا أن ينهيه برصاصةٍ واحدة، كان بإمكانه أن يخنقه إلى جذع شجرة الخروب، لكنّه فعل كلّ ما تشمئزّ من نقله الكلمات! لقد تفجّر حقدًا وكرهًا ووحشيّةً، لم يكن متوحّشًا في حياته كما كان ذلك اليوم. سالت الدّماء وبُتِرَت الأطرافُ وتناثرت الأشلاءُ في كلّ مكانٍ. وسقطت ماريا أرضًا تتقيّأ. كاد يغمى عليها من هول ما رأتْ. كانت تصرخ متوسّلةً: «كونبا... هذا يكفي! أرجوك!». أمّا جرمي فكان واقفًا يضمّ يدَيه إلى صدره يشاهد من دون

مشاعر. بقي على صمته كما يفعل جنديٌّ نظاميٌّ متمرّس وترك المعركةَ بين الاثنين.

لمّا وضعه أمامه أخذَ فأسه الحادّة وقال: «كيف ألتهمك أيّها الثّعلب؟! أيّها الدّيك الفرنسي! سأبدأ بالأجنحة، ثمّ أنتهي بالفخذين. هكذا يُؤْكَل الدّجاج على الطريقة الفرنسيّة... للأسف ليس لي طاولةٌ ولا كرسيٌّ ولاسكّينٌ ولا شوكةٌ. البربريّ إذا جاع يأكل بفأسه وأظافره!» صاحت ماريا: «كونبا... لا تفعل...» دَفَعَهَا جانبًا حتّى سقطت على العشب، فظلّت هكذا ممدّدةً ورأسُها تحت ذراعيها كأنّها لا ترى ولا تسمع.

سار جرمي خطواتٍ إلى الخلف، وبقي ينظر. كان ينظر فحسب... لا ترى في وجهه أيّة علامة على الفرح أو على الحزن!

صار كونبا نسخةً بَشِعَةً من مَسخٍ أو جنّيٍّ أو شيطانٍ. رفع فأسَه وهوى بها على ذراعَيْه، ثمّ رجلَيْه، ثمّ رأسِه، حتّى لم يعد السوفاج قادرًا على الصّراخ. سالت الدّماء وتقطّعت الأطراف، وظلّ كونبا يضرب والدّماء تطلي وجهه. ظلّ يسبّ ويلعن ويردّد هذه لأخي... هذه لأبي.. هذه لحمار أبي.. هذه لأهل القرية.. هذه لماريا وسيموني.. هذه للجبل.. وهذه لدموع أمّي!

سالت الدّماء في جهات الدنيا الأربع، سالت بغزارةٍ دافئةٍ كأمطار الخريف الجارفة، حتّى وقف عند رأسه رافعًا فأسه وهو يقول: «أمّا هذا الرأس فأهبه لنفسي». ثمّ هوى بالفأس على عنقه، رفع الكونبطا فأسَه إلى السّماء كضبعٍ شديد التوحّش وهو يردّد: «فرنسا لها طائراتٌ ومدافع ودبّاباتٌ،

أمّا البربريّ فليس له إلّا فأسه، إذا جاع أكل بها، وإذا غضب ذبح بها!». كان مكسوًّا بالدّماء كجزّارٍ متوحّشٍ خرج لتوّه من المسلخ... يتقدّم نحو خصمه كجحيمٍ موصوفٍ بدقّةٍ في كتب السّماء والأرض.

بالقرب من شجرة الخرّوب حفر في الأرض بعنفٍ... شجرةُ الرّعاةِ الحزينةُ صارت شاهدةً على جريمة. وبسرعةٍ خارقةٍ رَدَمَ كلَّ شيءٍ حتّى اختفت كلّ الآثار بعد أن غطّاها بالتّراب الطّريّ والطحالب اليابسة. ثمّ سار إلى الكهف. سارت خلفَه ماريا وجرمي، وكان الألمانيّ يأخذ بذراع ماريا التي بَدَتْ شبهَ مغمًى عليها. سار الكونبطا يجرّ فأسَه ورجلَيه كأنّه لم يعد يقوى على شيءٍ... سار في صمتٍ وبلا شعورٍ. ولمّا وصلوا إلى الكهف شربت ماريا ماءً وارتمت على الأرض، وبعد أن استرجعت أنفاسها، صرخت في وجهه: «أنت مجرمٌ، كان يكفي أن تخنقه، أنت لم تقتله من أجلي أو من أجل سيموني، لقد قتلته ثأرًا لنفسك، أنت مجرمٌ... أنت سفّاحٌ!». ظلّ جرمي معتصمًا بالصّمت ولم يقل شيئًا. أظنّه كان يحمل ذلك على ما تقتضيه الحرب. أمّا الكونبطا فقد ارتمى على جنبه يدخّن سيجارةً ويلاحق صهاريج دخانه مبتسمًا حتّى إنّه قال مخترقًا الصّمت الذي خيّم على الجميع: «أنا جائع.. جدًّا». يومَها، أكل كخنزيرٍ بَرّيٍّ، كجملٍ صام الدهر كلَّه. وبعد أن ملأ بطنه، بدأ يغنّي: «صبّ الرشراش والنَّوْ غزيرة». ثمّ نام كصخرةٍ.

في تلك اللّيلة نام الجميع في الكهف بروحٍ أكاد أقول منهزمة! طبعًا، عندما أقول لك الجميع فإنّي أستثني الكونبطا لأنّه لم يكن بشرًا في

ذلك اليوم. وقد كانت تلك هي اللّيلة الأولى التي تقضيها ماريا في الكهف، إذ أرعبتها العودة إلى المدينة. قبل الحادثة كانت تفكّر في الاحتفال بقتل السوفاج ورسم خطّة السفرة البحريّة مع جرمي، ولكنّها وجدت نفسها بعدما رأتْ ما رأتْ متجمّدةَ الأحاسيس وضائعةَ التّفكير، لا تفكّر في غير العواقب. وكأنّها كانت تقول في سرّها: «هل رآني أحدهم وأنا أستدرج السوفاج نحو الجبل؟! ماذا لو علم الحاكم العسكريّ؟».

وهكذا تحوّلت تلك اللّيلة إلى كابوسٍ حقيقيٍّ حتّى أشرقت شمس اليوم التّالي.

في الصباح وجدتُ الكونبطا يجلس بعيدًا عن ماريا وجرمي، كان متّكئًا على جذع شجرة الصنوبر الواقفة أمام الكهف مباشرةً، يكسر الأعواد اليابسة ويرميها يمينًا ويسارًا. ولمّا رآني قال لي مبتسمًا، «كنت وفرنسا متعادلَين، اليوم انتصرت عليها، فليكن الآن ما يكون، ولن أبالي». فتدخّلت ماريا متوجّهةً إليّ بالحديث: «انتصر انتصار المجرمين!».

وأنا أرافقها إلى المدينة روت لي كلّ تفاصيل حكايتها مع السوفاج، وعندما مررنا قريبًا من شجرة الخرّوب، أو مربض الرّعاة كما نسمّيه نحن، نظرت إلى الأرض وأسرعت، لم تقل شيئًا، واكتفت بإشارة من يدها إلى مكان الجثّة المبعثرة تحت الأرض.

وصلت ماريا إلى بيتها واختفت هناك... الأكيد أيضًا أنّ السيّد فرانسوا بالاج كان يتساءل، أين اختفى الضّابط؟ ولن يعلم أبدًا أنّه ينام أشلاء في

أرضنا ذات الدّود الأبيض السّمين. لن يعلم، لأنّ الجريمة حدثت في سرّيّةٍ تامّةٍ وبشاعةٍ مُتْقَنَةٍ! فقد كان الضّابط بالنسبة إلى الحاكم العسكريّ ذلك الشرّ الذي يسلّطه على الأهالي حين يريد ترهيبهم. فهو الرجل المكلّف بالمهامّ القذرة، وسيفُه المسلول على الجميع. وفي كلّ الأحوال لن يجد من يسدّ مكانه بتلك البشاعة.

أقول ذلك لك، وهذا بيني وبينك طبعًا، حتّى لا ينعتنا العالم بالمجرمين لمجرّد قتل عدوٍّ بطريقةٍ وحشيّةٍ على أرضنا. أقول لك إنّ الكونبطا في ذلك المساء أعطى الجريمة حقَّها. استدرجه، ثمّ فاجأه وهو منتشٍ من سكرة الحبّ، متلذّذًا بتلك القبلات واللّمسات والهمسات التي وهبته إيّاها ماريا. كان حالمًا وآمنًا وعاشقًا، ثمّ قتله بلا تشويق... التّشويق الذي نعرفه في السّينما والرّوايات، في حين أنّ الجريمة في أغلب الأحيان واضحةٌ وصريحةٌ كطائرةٍ عسكريّةٍ تقصف شعبًا أعزل من السّماء. أولئك السينمائيّون والرّواة هم المجرمون حقًّا، إنّهم يخترعون الجريمة فتنمو وتتطوّر ككلّ شيءٍ آخر. كانت تلك الواقعة نتيجةً حتميّةً لمعركة بين وحشَيْن، أحدها على حقٍّ والآخر على باطل. لذلك أقول: رغم تلك الوحشيّة المقيتة كان في الأمر عدلٌ كثير.

أمّا ما دار في مكتب السيّد فرنسوا بالاج وداخل الثكنة العسكريّة فالحقّ أنّي لم أتمكّن من معرفة تفاصيله. الوحيد الذي كان يعرف بعض التفاصيل هو العمدة منصور، لكن كان من المستحيل التقرّب منه والحديث معه في مسألةٍ كهذه.

لكنّ مدام كريستال أخبرتني ذات يوم بأنّ السيّد فرانسوا بالاج غاضبٌ من الضّابط لأنّه عاد إلى الجزائر. كلّ ما خمّنه الحاكم العسكريّ أنّ ضابطه تخلّى عن الخدمة العسكريّة وهرب للإقامة في الجزائر العاصمة التي وُلِدَ فيها وترعرع رغم أصوله البلجيكيّة. فانتشر ذلك الخبر في المدينة حتّى صدّقه الجميع. أنا نفسي كدت أصدّق ذلك! فرقص الأهالي في سرّهم وعلنهم فرحًا لرحيل ذلك الشرّير الذي أهانهم وأرعبهم. أمّا أولئك السذّج فقد ناموا في هناءٍ بمحطّة القطار من دون تلك الركلات التي كانت تطال مؤخّراتهم. ولم ينشغلوا إلّا بملاحقة القمل المسافر فوق رؤوسهم.

بعد أيّامٍ معدوداتٍ نسيت ماريا كلّ الأموات، نسيت موت سيموني والسوفاج لأنّها كانت مشغولةً بالإنصات إلى صوت قلبها أكثر من أيّ شيء آخر. شغَلَها ذلك الجرمانيّ وضربها بسهم المشاعر القاتلة حتّى صارت تتخفّى وتذهب إلى الكهف وحيدةً. كانت تقوم بذلك كلّما كنتُ مشغولًا بقضاء شؤوني أو كنتُ أرفض مرافقتها لعدم وجود الأمان، فعلتْ ذلك لأنّ الشّوق ذهب بعقلها وأعمى بصيرتها. أُصيبَتْ بصدمة الحبّ الفجائيّ فعاشت المغامرة غير عابئة بالعواقب. «تلك هي ماريا الغبيّة والمتهوّرة!»، هذا ما كنت أردّده دائمًا.

حين يغادر كونبا لصيد الأرنب والحجل والقنفذ، تختلي ماريا بجرمي في الكهف ولا تملّ من ذلك مطلقًا. كانت تشعر أنّه يفهمها جيّدًا ويصغي إليها كما ينبغي، رغم أنّه قليلُ الكلام. بكلماته

البسيطة تلك يضربها في العمق: في قلبها الخاوي، يعزف على أوتار مشاعرها التي تبحث عن مغامرة حقيقيّة، وفي جسدها الذي جمع بين جمال الشّرق ورشاقة الغرب، ضَرَبَهَا أيضًا في تفكيرها الذي بدا لي غير منطقيّ في غالب الوقت. كيف لفتاةٍ جميلةٍ ووديعةٍ أن تقبل بالعيش مع مافيوزيّ؟ كيف تغامر بعلاقةِ عشقٍ مع جنديٍّ نازيٍّ رغم أنّها تنحدر من أصولٍ يهوديّة؟! كنت أظنّ أنّها ستغرس قي قلبه سكّينًا حاميًا ومسمومًا، لكنّها سقطت كفراشةٍ غبيّةٍ في جحيمه.

سألت ماريا يومًا عن سرّ هذه العلاقة الشاذّة. أقول شاذّة لأنّها كانت في نظري مثل مجامعةِ قردٍ لكلبة. طرحتُ عليها السؤال ونحن عائدان من الكهف، فصمتت طويلًا كأنّها فهمت قصدي تمامًا وقرأتْ ما يجول في رأسي، ثمّ نظرت إليّ نظرةً ثابتةً جعلتني أشعر بأنّي مكشوف أمامها، وقالت بابتسامةٍ خبيثةٍ: «كلّ الرّجال مجرمون حتّى يقعوا في حبّ امرأة!» منذ ذلك اليوم أيقنت أنّها تعلم جيّدًا ما تريدُ من الحياة، بل كانت أقوى من الحياة العاديّة والرّتيبة. فهي تبحث عن المشاعر العنيفة والعاصفة التي تهزّ كلّ شيء فيها. لم تكن الحرب تعنيها بتاتًا وكذلك المخاطر. كان كلّ شيء لا يعنيها، النازيّون والفاشيّون والمحور والحلفاء والمنتصرون والمنهزمون واليهود والنصارى والمسلمون. كانت تعيش ذلك العالم الذي رسمته في لوحاتها، وروحها معلّقة هناك الآن، في القارب الذي ينتظر الإبحار. تلك إذَن هي

ماريا التي كنت أظنّها غبيّةً، تلك المرأة في قلبها بحرٌ وفي عينيها سماءٌ، أمّا تفكيرها فهو مختلفٌ تمامًا.

قالت له أحبّك! قالتها حتّى عاد صداها من وراء قمّة جبل العنز ومن عمق الوادي الكبير، قالتها دون خجل، قالتها أمامي وأمام الكونبطا. ولطالما كانت تقولها للجرمانيّ حين يقبّلها وهي تغادر الكهف إلى المدينة. ثمّ رأيتهما يمارسان الحبّ بتلك الطرق التي قلت لك إنّها «بيزار»! لم أكن أنوي فعلَ ذلك في الحقيقة. حاولتُ أن أنظر بعيدًا، لكنّ عينيّ تغلّبتا على عنقي فلم أستطع الالتفات رغم أنّي تعوّذت من الشّيطان الرّجيم...

كنت جالسًا أمام الكهف أنتظر عودةَ كونبا من رحلة الصّيد لأسلّمه المؤونة، حتّى سمعتُ شهيقًا وتمتماتٍ وآهاتٍ متتاليةً. تصوّرتُ في البداية أنّ ماريا تشكو ألمًا أصابها. وعندما اقتربتُ ببطءٍ، نظرتُ من خلف أشجار الصّنوبر المتشابكة الأغصان فلم يكن غير ذلك الوحش الذي أصابها في قلبها وجسدها معًا.

ولمّا ارتفع شهيقُها متّخذًا شكل أنينٍ يتخلّله صراخٌ تراجعتُ إلى الوراء، وبقيت أتأمّل لحظةَ اللذّة تلك وأنا أتساءل عن أسرار النّفس البشريّة، هذه النّفس الرّهيفة الهشّة التي تبعثرها لحظة حبٍّ وتحيلها إلى شظايا متناثرةٍ بسهولةٍ. ولمّا أصابتها الرّعشةُ بدأت ترفرف بأطرافها كطائرٍ وقع في شباك صيّادٍ. كان جرمي مستلقيًا على ظهره أرضًا وقد ربضت هي بخصرها فوقَ حوضه رافعةً تنّورتها، كأنّها تركب حصانًا بلا سرجٍ. كانت تسرع

وترتعش مثل فرسٍ تسابق لَذَّتَها القادمةَ من جوفِها. ثمّ رأيتها كيف تهدأ رويدًا رويدًا فوقَه. كأنّي بها بلغتْ هدفَها بعد كلّ ذلك الرّكض. ثمّ خفتت حركة جسدَيهما، وبقيا كشبحَين مستلقيَين ومنسجمَين ومنجذبَين بمغناطيس الحبّ، متشوّقَين ومتلهّفين ولا يرتويان أبدًا. سمعتها تتنفّس ببطءٍ وتنحني برأسها وجسدها على صدره، تهمس بكلامٍ غير مفهومٍ. ثمّ ضحكتْ عاليًا كأنّها ارتوت من السّعادة.

قاما متثاقلَين، رفَعَها إلى فوق، مال على جذع الشجرة بظهره، ونامت هي برأسها على صدره وطفقا يتحدّثان... كانت ترفع رأسَها من حين إلى آخر لتنظر في عينيه ثمّ تعود إلى صدره من جديد. وكان يضع يدَه اليسرى على خصرها من الخلف ويدَه اليمنى تمشّط شعرها. فجأةً ابتعدتْ ثمّ ركضتْ فلحق بها جريًا وهو يضحك ويردّد كأنّه يغنّي: «عندما تشرق الشّمس نبحر». كنت أتابع المشهد من بعيدٍ وأنا أتساءل في صمتٍ: «أهذا هو الرجل الذي حاول شنقَ نفسه؟». كم كان جميلًا ورائعًا مشهدُ الحبّ ذاك! كأنّهما حوّاء وآدم لحظةَ نزولهما على الأرض، لحظةَ النزول الأولى التي اكتشفا فيها الحبَّ لمّا التحما بحثًا عن دفء السماء. بعد تلك اللّحظة قالت حوّاء لآدم: «زدني منه!»، فظَلّ يزيدها ألفَ سنةٍ، لكنّها لم تشبع.ماريا أيضًا التصقت بجرمي وقالت له زِدْنِي منه. فظلّ يزيدها حتّى ذلك اليوم الذي تخلّف فيه عن الرّحلة. كانت الصّورة جميلةً جدًّا، لكن وهي معلّقةٌ على الحائط فحسب.

في الطريق وأنا أرافقها إلى المدينة عبر مسالك الجبل والحقول، سألت ماريا عمّا إذا كانت تشعر بالسّعادة. فنظرت إليّ، ثمّ ابتسمت وهي تثبّت الشّال على كتفيها، وبعد ذلك تنهّدت، ولم تقل شيئًا. فقلت لها ممازحًا: «الجرمانيّ شابٌّ رائعٌ لا أعلم كيف سقط من السّماء على أرضنا ليسرق نساءنا؟!»، فضحكت عاليًا وهي تميل إلى طريق شارع المحطّة حيث يقع منزلها. ولمّا ابتعدت قليلًا التفتَتْ إليّ ورفعت يدَها اليمنى تودّعنى، ثمّ تلاشت في أحلامها.

كنتُ سعيدًا لماريا وجرمي، أقول هذا بملء قلبي، ولكنّني كنتُ حزينًا على نفسي. فأنا في الحقيقة لا أعرف تلك المشاعر الهائجة!... لم أجرّبها بتاتًا، رأيتها فقط في وصفة الشّيطان الذي جاءني بمدام كريستال وأنا نائمٌ، فظلّت مناطق كثيرةٌ من جسدي غامضةً ولم أستطع اكتشافها.. جسدي الذي يسكنه ألمٌ ضاربٌ في عمق السّنين، منذ تلك السنوات التي قاد فيها المزارع البربريّ فيلَه وراء حنّبل باتّجاه روما... غريبٌ أمري أنا أيضًا! أريد اكتشاف العالم البعيد، أمّا جسدي القريب الذي تسكنه روحي، فما يزال مجهولًا!

هذا ما جعلني ألجأ إلى هضبة الإكليل. عندما أجلس فوقها ليلًا أعلم أنّني أحبّ الله خالق الكون، وأحبّ كلّ شيءٍ فيه روحٌ! حتّى تلك النّملة التي تصعد فوق رجلي ببطء ثمّ تسقط، ثمّ تحاول الصّعود مُجَدّدًا، وتقرصني. أحملها على عودٍ صغيرٍ وأضعها أرضًا، وأظلّ أتأمّلها كيف تنصرف

بين الأعشاب. أحبّ تلك النّملة وأفكّر في أمرها، ويهمّني جدًّا أن تكون سعيدةً.

أمّا ذلك الشّيء، فلم أفلح في ممارسته كما ينبغي. كنت أتمنّى خوضَ تجارب عميقةٍ، لكنّني عشتها فقط في الخيال. ليس لي إلّا الفنتازيا. آه لولا فسحة الفنتازيا تلك! ولكي أكون صادقًا معك، أقول لك إنّني فكّرتُ مرّةً في تطبيق بعض تلك الطّرق الـ«بيزار» مع جدّتكَ، ولمّا حاولتُ ذلك قامت وضربتني بملعقة عود الزّيتون الطّويلة على جبيني ولعنتني كما تلعن الشّياطين ثمّ طردتنى خارج البيت وهي تردّد: «ألا تخجل؟ ألا تستحي!؟» فنسيت ذلك الشيء إلى الأبد.

«كلّ الرّجال مجرمون حتّى يقعوا في حبّ امرأة!»، هكذا قالت ماريا المالطيّة. أمّا أنا فمُجرمٌ فاشلٌ، وأظنّك كذلك.

إذَن، مات سيموني الذي كان يمدّ الكونبطا بالأسلحة، وانتقم كونبا بقتل الضابط السوفاج، ووقعت ماريا في حبّ الجرمانيّ. لقد بدأت معالم الطّريق تتوضّح...

انتهت مهمّة كونبا في جبلنا وبدأ يفكّر فعلًا في المغادرة، عبر تلك المسالك التي خَبِرَها، إلى منطقةٍ أخرى يعرفها جيّدًا وسوف تكون له فيها مهامّ جديدةٌ.

كان يومًا ممطرًا لمّا جلسنا أمام الكهف، أمطرت السّماء بالرّغم من أنّنا كنّا في بداية صيفٍ حارٍّ. لا نعلم كيف تكوّنت تلك السّحابة فجأةً! تكوّنت كحلمٍ جميلٍ بعد أرق، ونزل الماء مدرارًا من

السّماء، خيوطًا مستقيمةً ومتساوية تصل السّماءَ بالأرضِ، كأنّها نسيجٌ محكمُ الصّنع والتّدبير. لم تكن قويّةً ولاخفيفةً، كانت كمّيّةً معتدلةً ومناسبةً للاستحمام. تساقطت القطرات على رؤوسنا حتّى أرجلنا وهي تداعب مشاعرنا وأفكارَنا.

ثمّ ظهر نورُ الشّمس بعد أن انقشعت تلك السّحابةُ. وصارت أشجار الصّنوبر تلمع وأصبح لونها فاتح الاخضرار... فيما ظلّتْ قطراتُ ماءٍ بيضاء معلّقةً بين الأغصان. وفاحت من الأرض رائحة التّراب والإكليل.

سرنا جميعًا مبلّلين إلى أعلى الجبل، ثمّ انحنينا يسارًا إلى أسفل، حيث يمتدّ الوادي الكبير. كأنّنا سمعنا صوتًا مناديًا رغم أنّ كلّ شيء كان هادئًا وصامتًا. كان النّداء قادمًا من أعماقنا لمّا تطهّرنا بماء السّماء. وكانت مياه الوادي صافيةً، في شكل موجاتٍ صغيرةً جدًّا تنتهي بفقاقيع سرعان ما تتلاشى. نظرنا إلى خيالاتنا وهي ترقص بين الأمواج النّحيلة، ثمّ ارتمينا وسبحنا كحيتانٍ قادمةٍ من بحر الظُّلمات إلى بحر النّور. اغتسلنا من كلّ رذيلةٍ كما يغتسل الهنود في نهرهم المقدّس. ولمّا تعبنا استلقينا على ظهورنا ونظرنا إلى السّماء. كان كلّ شيءٍ صافيًا وواضحًا. وكانت الأفكار واضحةً والثنايا كذلك. لقد بدت تلك اللّحظة مناسبةً لاكتشاف الوجهة الصّحيحة رغم غياب البوصلة.

عندما هبّ نسيم المساء الممزوج برائحة الصّنوبر والإكليل، تمشّينا في صمتٍ ونحن في طريقنا إلى الكهف. صارت السّماء برتقاليّةَ اللّون حين

مالت الشّمس إلى الغروب. وحين وصلنا، دخل جرمي الكهفَ وخرج وهو يحتضن كمانا، الكمان الذي طلبه من ماريا ذات مرّةٍ حين رآه موضوعًا على خزانةٍ في صالون بيتها. وقف بثباتٍ كجنديٍّ، ثمّ ثبّته تحت رقبته. أمسك بعصا القوس وبدأ يعزف لحنًا رائعًا يخترق مشاعر كلّ الكائنات، حتّى الجبل بأشجاره وأحجاره استسلم لتلك المعزوفة السّالبة للألباب والأرواح. أمّا أنا فخُيّل إليّ أنّي أطير مثل سنونو يراقص جذوعَ الأشجار، وأبحر عكس الرّيح. ما هذا السّحر؟! ما هذا الفرح؟! ما هذه السّلطة؟! سلطة الموسيقى واللّحن الخارق! لقد جعل جرمي الكمان ينطق بكلّ تلك الأشياء الجميلة، بالسّعادة، بالحلم، بالطمأنينة الداخليّة، بالقوّة الإيجابيّة التي لا تلد إلّا الحبّ، حتّى إنّي اكتشفت نفسي من جديدٍ. اكتشفت حبّي للموسيقى، فتعرّيت واستسلمت للألحان. صرتُ مكشوفًا وشفّافًا للعالم على نحوٍ لم أعرفه من قبل. سألت نفسي وأنا أضع كلَّ حياتي جانبًا، حتّى أحلامي وأوجاعي وأملاكي وضعتها جانبًا، كلّ شيء صار تافهًا وبلا قيمة... سألت نفسي كيف يترك الإنسان هذا الجمال وهذا الأمان وهذا الزّمن الجميل، ويلهث وراء زمن القنابل والألغام والرّصاص والدّماء؟!

كنت مستغرقًا في هذه التساؤلات بينما كان جرمي يعزف على أوتار الرّوح. كنت أبكي من الدّاخل ذاك الزّمنَ الذي ضاع منّا سُدًى، أبكي على قدر فرحي بالأشياء التي تجعلنا نفيض حبًّا. حتّى ذاك العنيف الكونبطا استسلم واستلقى

بظهره فوق الأرض وعيناه تنظران إلى السّماء كأنّي به يتأمّل شيئًا مّا. كنت أعرف أنّه يفكّر في زهرة والحياة والحبّ وأشياء أخرى لم تكن تخطر على باله قبل اليوم. أمّا ماريا فاتّكأت بظهرها على جذع شجرة الصّنوبر الكبيرة، ثمّ طَوَتْ ذراعيها على صدرها. كانت تبتسم ودموعُها تنساب خلسةً على خدّيها. كانت منبهرةً وتنظر نظرة عاشقةٍ. أكاد أرى روحَها الخفيفة التي صارت كورقة شجرٍ تتلاعب بها النسائم هنا وهناك، لقد اخترقتها نسماتُ ذلك اللّحن ولم تترك لها فرصةً للمقاومة.

لمّا انتهى جرمي من العزف، فتحَ عينيه ووضع الكمان على الأرض ببطءٍ شديدٍ كأنّه ما يزال في حالة خشوع، ثمّ انحنى واقفًا يبتسم. انصرفنا إليه وصفّقنا طويلًا. في الحقيقة، أنا وكونبا سرنا خلف ماريا، ولمّا صفّقت صفّقنا ولمّا انتهت انتهينا. صفّقنا بطريقةٍ هادئةٍ ولائقةٍ حتّى كدت أشعر أنّني داخلَ قصر ملكيّ تُقَامُ فيه سهرةٌ باذخةٌ. قالت ماريا: «برافو.. برافو!!»، فردّدت أنا وكونبا: «برافو!».

بالتّأكيد كانت ماريا تعلم لمن يعزف جرمي. أمّا أنا فسألته: لمن هذا السّحر الرائع؟!

فقال وهو يحتضن ماريا التي وضعت رأسَها على صدره واستسلمت كقطّةٍ يراودها النّعاس: «جزءٌ من السمفونيّة التاسعة لبيتهوفن... أنشودة الفرح!».

نظرت إلى كونبا قائلًا: «إنّه بيتهوفن يا ابن عمّي!.».

قال كونبا وقد فارقته سكرة الموسيقى: «الله أكبر!.. الله أكبر! بيتهوفن في جبل العنز!».

ثمّ ضحكنا طويلًا، ولم نعد إلى الواقع إلّا عندما سمعنا الطّائرات الحربيّة الفرنسيّة تخترق الجبلَ متّجهةً إلى الغرب. وفي تلك اللّحظة بدأت الطّلقات العشوائيّة من المدفع الكبير الرابض في وسط القرية. كانت ثلاث طلقاتٍ متتالية ثمّ خمد كلّ شيء.

جرينا إلى داخل الكهف وتحدّثنا طويلًا حتّى خرجنا بفكرةٍ واضحة. عليك أن تتطهّر أوّلًا حتّى تأتيك الأفكار النّافعة! وقد تطهّرنا في الوادي الكبير حين سبحنا، وطهّرتنا الموسيقى فاكتسح النّور قلوبنا.

كأنّي بالأشياء اكتملت ونضجت... كأنّي بالسّاعة الأخيرة في الكهف اقتربت.

ثمّ دقّت ساعة الفراق.

(10)

موسم الرّحيل...

كان على تلك الجماعة الصغيرة أن تتفرّق لتحيا. وكان عليّ أنا أن أفارقهم بدوري. تلك مشيئة الطّريق، وكان لا بدّ من مواصلة السّير لأنّ المكوث صارَ مستحيلًا.

مرّت أيّام القرية هادئةً، وكذلك لياليها. مرّت سنةٌ تقريبًا على هزيمة المحور في بلدنا، المحور الذي بدأ يتقهقر بصفةٍ متسارعةٍ إلى الشمال وينكمش على نفسه كأفعى. «برلين هي جُحر الأفعى، وبرلين ما تزال حيّةً وكلّ شيءٍ غير مضمون»، هكذا قال لنا الجرمانيّ يومًا. في الأثناء سيطرت فرنسا مجَدّدًا على كامل البلاد وأصبح الوضع آمنًا نسبيًّا، لكنّ البحر لم يكن هادئًا. فالطائرات مازالت تراقب المياه بكثافة، ولا بدّ من الانتظار قليلًا لبداية رحلة النّجاة.

مرّت سنةٌ أخرى من الانتظار كان جرمي خلالها يدرّب كونبا على القنص فصار قنّاصًا ماهرًا، وفي الأثناء ظللنا ننتظر حتّى جاءتنا الأخبار السّعيدة مع بداية صيف تلك السنة. إذ أُعلِن عن نهاية الحرب في أوروبا بعد أن مات موسيليني وهتلر وسقطت برلين. فقال جرمي: «الآن انتهى كلّ شيء... ولا بدّ من التحرّك».

أمّا بلدنا، فقد بقي الوضع فيه على حاله، بل ازدادت فرنسا عنفًا وقسوةً في مواجهة حركات التحرّر التي بدأت تظهر من تحت الأنقاض. وأنتَ تعرف التفاصيل.

قرّر جرمي وماريا الهروبَ عبر البحر إلى سيسيليا. ولا أعرف في الحقيقة ما كانا ينويان فعله بعد ذلك. هل كانا ينويان الإقامة في إحدى الضيعات التي يملكها سيموني هناك؟ أم كانا ينويان الهجرة إلى أحد بلدان أمريكا اللاتينيّة كما فعل عددٌ من الجنود الألمان هربًا من الملاحقات القضائيّة؟! أظنّ أنّ الهويّة المالطيّة المزوّرة التي سلّمه إيّاها سيموني عندما تنكّر في هيئة تاجرٍ متجوّلٍ ستساعده على العبور إلى أيّ مكانٍ يرغب «زكرياء المالطي» في الذهاب إليه.

أمّا كونبا، فقرّر مغادرة جبل العنز والالتحاق بإحدى السلاسل الجبليّة الأخرى. هو يعرف جيّدًا أين يذهب، ويعرف بالضبط أين تقيم تلك الجماعات التي يتعاون معها، لأنّ مهمّته انتهت في جبلنا، بل أنهاها وهو ما يزال على قيد الحياة. في الحقيقة لا أحدَ كان يتصوّر ذلك. لقد أدّى مهمّئه كما يجب حتّى جعل لاسم جبلنا قيمةً ومعنًى في قلوب النّاس، لكن لو سألتني: هل كان كونبا من الفلّاقه؟ لقلت لك: لا طبعًا! وكلّ من قال ذلك فهو مخطئ تمامًا.

لم يكن كونبا فلّاقًا، فقد يكره الانضمام إلى أيّ تنظيم من التنظيمات، هو يتعاون معها لكنّه لا ينتمي إليها. كان كونبا مناضلًا حرًّا طليقًا، يفعل ذلك بدافع غريزة الثّأر والشّهامة والدّفاع عن الشّرف، فقط... فقط، لا غير.

إذَن، بدأ الاستعداد لتلك الرّحلة. وكان لابدّ من جمع ما يكفي من المال. فمغادرة جبل العنز ليست بالأمر السّهل بعد كلّ ما وقع. والمال

الكافي يجعلك تشتري طريقًا آمنةً بأكملها. كان لا بدّ من الاستعانة بالمهرّبين ولاسيّما في خصوص ماريا وجرمي.

فجأةً سأل جرمي: «أين توجد مقبرة الرّوم؟»، يقصد الآثار الرومانيّة. فردّ كونبا: «خلف الضفّة الأخرى من وادي تاسة، وأنت ذاهبٌ إلى مدينة سوق الثلاثاء تحت سفح جبل بوكحيل». جبل بوكحيل كان يسمّى أيضًا جبل أولاد سليط، لكن بعد رفض أولاد بوبكر تلكَ التّسمية، لأنّ كلّ عرشٍ كان يريد السّيطرة على الجبل، وبعدما تقاتل العرشان وقع تغيير تلك التّسمية إلى جبل بوكحيل، وبوكحيل هو وليٌّ صالحٌ مجهول الهويّة. ثمّ سأل كونبا: «ما علاقة تمويل هروبنا بمقبرة الرّوم أيّها الخنزير الأحمر؟! تريد أن تنبش على روح سيموني الرومانيّ؟!»، فأجاب جرمي وهو يبتسم: «بل روح الكنوز الرّومانيّة الثّمينة أيّها الجَمَل».

قلت لك إنّ ذلك الألمانيّ يملك خلفَ صمته ما يكفي من الذّكاء والفطنة لقطع بحار العالم. قال ذلك حتّى خُيّل إليّ أنّ جرمي وماريا يرقصان على سفينةٍ عظيمةٍ في عرض البحر. ثمّ تذكّرتُ الكلام الذي سمعته بخصوص ثروة شعبان الطّائلة والمفاجئة، وشعبان هذا هو الأخ الأصغر لدادا صالحة وخال الكونبطا. قيل إنّه كان يحرث ليلًا قطعةَ أرضٍ عند أطراف مقبرة الرّوم على بغلةٍ هرِمة، حتّى لمع تحت التّراب ذلك الصندوق الحديديّ، ولمّا كسر أقفاله بفأسه لمع الذّهب الذي كاد يصيبه بالعمى لحظةً وقع عليه نور القمر. حمل ذلك السرّ الثّمين إلى العاصمة حيث

التقى عن طريق بعض السماسرة بالتاجر اليهوديّ ميشال خال ماريا. بعضهم يقول إنّ ذلك السمسار لم يكن غير سيموني.

ثمّ ربَطَتْهُما علاقةٌ قويّةٌ، أقصد شعبان الحرّاث، كما كان يسمّى، وميشال تاجر الذّهب والقطع الأثريّة، حتّى جاء يومٌ رأيتهما فيه يتجوّلان معًا في القرية بعد أن فتح شعبان «مقهى المحطّة». يقال أيضًا إنّه يملك أراضي خلف جبل العنز من جهة مدينة السرس وإنّه فتح محلّاتٍ عديدةً أجّرَها في مدينة سوق الثلاثاء. أغلب تلك المحلّات يقع على الطريق الرئيسيّة التي تربط الكاف بالعاصمة. قلنا جميعًا سبحان القدير الذي يغيّر أحوال عباده في لمح البصر.

لكن حتّى نعطي الرّجل حقَّه، يجب أن نذكر أنّه بينما كان أولئك السذّج يهشّون الذباب ويحكّون عاناتهم ويلاحقون الظلال كي يناموا تحتها، كان هو يحرث الأرض ليلًا ونهارًا ولا يكلّ حتّى تلك اللّيلة التي صار فيها عرُقه ذهبًا خالصًا. فالعاملون يُمنَحُون أجنحةً تحلّق بهم عاليًا من حيث لا يحتسبون، أمّا النّائمون فلا يليق بهم غير الفقر والقمل.

في تلك اللّيلة نطق جرمي بكلمة السرّ، لكنّ المشكلة كانت تكمن في ذلك الحارس المسلّح الذي عيّنه السيّد فرانسوا بالاج على مقبرة الرّوم. هل سنقتله أم نكتفي بشرائه؟ حينئذٍ وضع الكونبطا يدَيه على رأسه قائلًا: «الآن فهمت لماذا يحرس الحاكم الفرنسيّ المقبرة. السيّد بالاج يمنع دخول الأهالي إلى هناك منعًا باتًّا،

بل يعاقب كلَّ من مرّ بجانبها بتهمة سرقة الآثار. يفعل ذلك رغم أنّه سرق بلادًا بقضّها وقضيضها».

تلك الآثار الرّومانيّة المملوءة أسرارًا ظلّت إلى الآن كنزًا دفينًا، وهي تمتدّ فوق الأرض وتحتها بدايةً من جبل بوكحيل، وتمرّ عبر مدينة الكريب حتّى مدينة طبرسق، أمّا مركزُها فيقع في المدينة الأثريّة العظيمة دقّة.

لكنّ كونبا وجرمي لن يغامرا بالذهاب إلى دقّة أبدًا، لأنّ ذلك يعني قطع رأسيهما. كانت الخطّة تكتفي بالآثار القريبة من قريتنا.

تسلّل الكونبطا وحيدًا في إحدى الليالي الحالكة. وَجَدَ الحارس نائمًا في كوخه الصّغير. دخل عليه كشيطانٍ، ثمّ وضع سكّينًا في رقبته قائلًا: «أنا الكونبطا سارق الأرواح، أذبحك اللّيلة وأدفنك هنا أو تتعاون معي بمقابل؟». وحدّثه في الموضوع... خوف الحارس وطمعه جعلا منه إنسانًا طيّبًا وخدومًا.

في اللّيلة الموالية عاد الكونبطا والجرمانيّ معًا. واستمرّا هكذا أيّامًا حتّى ضربت فأس الجرمانيّ الصّندوق الحديديّ المحاط بالسلاسل، كان صندوقًا رماديًّا ثقيلًا. أنا رأيته، لكنّني لم أتجرّأ على فتحه. ظلّ هناك في الكهف مرميًّا أسبوعَيْن أو أكثر، ثمّ حملته سرًّا بطلبٍ من كونبا إلى شعبان صاحب المقهى. قبل ذلك التقى الكونبطا بخاله شعبان تحت شجرة الخرّوب المشؤومة وعرض عليه نصف القيمة. وبعد أيّامٍ معدودةٍ كانت الأموال بيننا، فرنكات تونسيّة، فرنكات فرنسيّة، ليرة إيطاليّة وقطع كثيرةٌ من الذّهب والفضّة. كدت لا أصدّق

ما رأته عيناي، حتّى قلت في نفسي: هذا لا نشتري به طريقًا وسماسرةً ومهرّبين فقط، بل نشتري به البلاد كلّها من شمالها إلى جنوبها.

هذا الوطن أنجب أبطالًا كثيرين، ولكنّ سمّ العملاء تغلغل عميقًا في العقول والقلوب.

الآن صار كلّ شيء متوفّرًا. ولمّا وقع الإعلان عن نهاية الحرب العالميّة الثانية في شهر سبتمبر من تلك السنة، صارت الأفكار واضحةً، وأصبحت البحار والطّرقات أكثر أمانًا.

قلت لك منذ البدء إنّ الصّداقات الحقيقيّة وكذا الصّفقات الرّابحة تولد أثناء الحرب.

لم نكن نخاف الرّصاص، بل نخشى الخيانة وسوء الحظّ، سوء الحظّ الذي جعل سيباسيان يذهب لصيد الخنزير البرّيّ في ذلك الصّباح المشؤوم. كان كلّ شيءٍ على أحسن ما يرام لولا ظهور الملعون.

بدأ الاحتفال داخل الكهف. كلّ شيء سار كما ينبغي ولم تبقَ إلّا تلك القفزة الأخيرة. لم تكن لنا طريقٌ معبّدةٌ، لكنّنا سرنا في الاتّجاه الصّحيح.

في تلك الأمسية خطّطوا لكلّ شيءٍ في هدوءٍ وحكمةٍ. وكان كلّ شيء واضحًا وآمنًا ومرتّبًا... شرعوا في العدّ التنازليّ: ثلاثة.. اثنان.. واحد.. الآن نقفز. ولحظةَ أنهوا العدَّ وهمّوا بالقفز، انطلقت تلك الرّصاصة الملعونة فأخّرتهم عن موعد الرّحيل بلحظاتٍ معدوداتٍ، لكنّها كانت كافيةً لتجعل البحر يتقيّأ دمًا وتجعل الجبل يتشقّق صدره من هول الجرح.

كانت ليلة ذلك اليوم هادئةً جدًّا. نور القمر

يتراقص فوق أشجار الصنوبر ورذاذٌ حفيفٌ يداعب آخر الأوراق قبل سقوطها كأنّ الكون يحتفل بالوداع.

كنت حزينًا لأنّني سأبقى هنا وحيدًا. كيف لي أن أفارق هؤلاء الرّفاق؟! الكونبطا وماريا والجرمانيّ، كانوا ثلاثةً، ورابعهم الأمل. هؤلاء جعلوا لي قيمةً ومنحوني الثقة بالنفس. وهؤلاء هم الّذين خلّصوني من جُبنٍ كنتُ أتخفّى منه وراء الحكمة والصّبر الجميل وحرّروني من العجز.

وجاءت لحظة الوداع... رأيت القلوب تتكسّر كزجاجٍ، رأيت الدّموع تنهمر كأمطار الخريف الجارفة، وسمعت شهيق حناجر وأنفسٍ تتألّم. كانت لحظة عذابٍ حقيقيّةً، لحظةً أعظم من الموت لأنّ المشاعر ما تزال حيّةً.

أخذت ماريا الجرمانيَّ من يده وهي تضع رأسها على كتفه واختفت في حضنه. كنت أعلم أنّها ستخبره بحَمْلها. ثمّ رأيتهما يتعانقان بحرقةٍ وقد اجتاحتهما رعشة ذوبان أحدهما في الآخر ككلّ مرّةٍ. لكنّ الجديد هذه المرّة هو اختلاط رعشة الحبّ برعشة الخوف.

يومَها انفرد بي كونبا، وحدّثني عن أمّه. طلب منّي أن أخبرها بأنّه سيذهب إلى مكانٍ آمنٍ حتّى يراها من جديدٍ. ثمّ حدّثني عن زهرة حبيبة قلبه التي تنتظر موعد الزّواج. ها هو الآن يتركها ويغادر إلى جبلٍ آخر غريبٍ عنه. قلت له وسط ذلك المشهد الطّافح بالحزن: «لو كانت تحسن القراءة لتركتَ لها رسالةً جميلة»، قلت ذلك محاولًا التخفيف عنه. فأجاب بصوتٍ خافتٍ، وهو المعروف

بجهره وغلظته: «وما الّذي ستقوله الكلمات؟». قال ذلك وهو يتنفّس بصعوبةٍ كأنّي به ينزف من الدّاخل. ثمّ تصافحنا، وتعانقنا ونحن نبكي. وفجأةً انسلخ عنّي، دفعني بقوّةٍ وهو يقول: «اذهب ولا تنظر إلى الوراء، اذهب كريحٍ باردةٍ أو ثلجٍ، هذه اللّحظة ليست للمشاعر الجبانة».

تقهقرتُ إلى الوراء كذئبٍ مكسورٍ، ثمّ أخذتُ ماريا وسرنا باتّجاه المدينة. عدنا صامتَين ومتأكّدَين من أنّنا لن نسير في هذه الطّريق مرّةً أخرى، مسلك الجحيم الذي صار فجأةً مسلك الحبّ. أمام بيتها ودّعتها هي أيضًا، فلم تقل سوى جملتين: «سأظلّ أتذكّرك صديقًا حميمًا، وسأبعث إليك برسائل».ثمّ غرقت في الصّمت. كان كلّ شيءٍ من حولي يبدو كئيبًا حزينًا، القلبُ والقريةُ والعالمُ، حتّى كدت أصرخ وسط العتمة: «إلهي! لماذا خلقتَ مشاعر الحزن؟!».

وأنا أحدّثك عن لحظة الوداع تلك، نسيتُ أن أقول لك: بعد أن دخلت ماريا بيتَها، سرتُ شمالًا وسط حقول الزّيتون، ولمّا تجاوزتُ كروم سيباستان تدحرجتُ في وادي النحل، وعندما أردت مغادرتَه نحو هضبة الإكليل اعترضني العمدة منصور يحمل بندقيّةً على كتفه. فاجأني بتحيّةٍ مقتضبة، فسألته: «ماذا تفعل هنا وفي هذا الوقت؟!». فقال إنّه يصطاد القنفذ.ثمّ انصرف مسرعًا حتّى شعرت بأنّ رؤيتي إيّاه أزعجته كثيرًا. ولمّا هدأت مشاعري التي هدَّها مشهد الوداع، سألت نفسي: «أيمكن أن يكون منصور الطبّال، عميل السيّد بالاج، قد تتبّع مساري؟!». وظلّت الأسئلة

تتوالد في رأسي حتّى كاد قلبي يسقط من الجزع.

في تلك اللّيلة نمتُ متأخّرًا على غير عادتي وبقيتُ نائمًا حتّى الضّحى، وليتَني لم أَنَمْ! خانتني عيناي، كما يقول أولئك المتخلّفون عن المواعيد، عيناي اللّتان لم تتفتّحا على تلك الحقيقة إلّا عندما سافرت الأرواح إلى ربّها، حتّى إنّني لم أسمع الأذان ولم أُصَلِّ الفجرَ. لم أستحمّ، ولم أغيّر ثيابي، ولم أتعطّر، ولم أحتسِ القهوة الفيلتر كعادتي. لقد أصاب ذاكَ النّظامَ خللٌ شبيهٌ بزلزال.

استيقظت مرعوبًا وسرت مباشرةً وبحذرٍ إلى المدينة. كنت أتقدّم ببطءٍ وكأنّني أسير فوق حقلٍ من الألغام... الألغام التي قتلت سيدي عبد الله وحمارَه وأناسًا آخرين أبرياء. سرت مباشرةً إلى محطّة القطار. هناك تأتي الأخبار السّعيدة، والتّعيسة أيضًا. رأيت تجمّعًا لأناس وعساكر وسمعت صراخًا، ثمّ تذكّرتُ ذلك اليوم الذي قُتِلَ فيه سيموني. لمّا اقتربت كان الجميع يردّدون: «سيباستيان قُتِل في الجبل وهو يصطاد الخنزير البرّيّ». أمّا أولئك السذّج فكانوا يجرون على امتداد شارع المحطّة باتّجاه مقهى شعبان مردّدين: «سيباستيان مات... سيباستيان مات...».

تجمّع السّادة الكبار أمام الحانة التي أغلقت أبوابها. السيّد فرانسوا بالاج والسيّد بودان وآخرون كانت وجوههم عابسةً ومحمرّةً من شدّة الغيظ. جاء الخبر لكنّ الجثّة لم تأتِ بعد. قالوا إنّ العساكر سيجلبونها على عربةٍ إلى المدينة. ثمّ سمعنا إطلاق نارٍ في السّماء. كان العساكر

يريدون فتح الطريق، وكانت العربة العسكريّة مكشوفةً وفوقها تتمدّد الجثّة مغطّاةَ الرّأس فقط. لم أتذكّر من سيباستيان إلّا بطنه منتفخًا إلى أعلى رغم كلّ تلك الدّماء التي غطّت جَنْبَيْهِ حتّى صار لباسُ الصيد الأخضر بيتروليّ اللّون. ثمّ حملوه إلى الثّكنة العسكريّة، ومن هناك سينطلق السير بموكب الدّفن في اتّجاه المقبرة المسيحيّة. إذَن، جاءت الجثّة، وجاءت معها الحقائق المرّة.

كلّ ما فعله سيباستيان قبل موته هو أنّه أطلق تلك الرّصاصة الغادرة على جرمي عوضًا عن الخنزير البرّي. أمّا التّفاصيل الأخرى فتكفّل بها العمدة منصور، الباحث عن نصرٍ يبهر به الفرنسيّين، فكان له ذلك. الأنذال أيضًا ينتصرون. وتلك حقيقةٌ مرّةٌ. أمّا المصيبة الكبرى فهي أنّهم يكتبون التّاريخ!

في ذلك اليوم خرج سيباستيان باكرًا مع أحد العساكر الفرنسيّين لاصطياد الخنزير البرّي، خرج باكرًا لأنّ الخنازير تنزل ليلًا عبر حقول الكروم والزيتون حتّى تبلغ أطرافَ القرية، فإذا شبعتْ نزلت إلى وادي تاسة لتشرب، ولاسيّما من جهة الجسر الفرنسيّ السفليّ حيث يتّسع الوادي ويقلّ عمقه فيسهل عليها النزول والصعود. وحين ينبلج الفجر، تأخذ في العودة إلى عمق الجبل بطيئة الحركة، فتكون تلك الساعات الصباحيّة الأولى هي الأفضل لاصطيادها. كان سيباستيان يحتاج إلى لحومها الشّهيّة لزبائن الحانة ولاسيّما المختارين منهم. إنّ خنزيرنا البرّي هو الأفضل على الإطلاق، تقريبًا ككلّ ثرواتنا الأخرى من قمحٍ وزيتونٍ وتينٍ ولوزٍ ورمّانٍ وبرتقالٍ. حتّى ترابنا

وبحرنا وشمسنا... فهي الأفضل. كلّ شيءٍ جميلٌ ومهمٌّ ونافعٌ في هذه البقعة من الأرض ما عدا الإنسان. هذه هي الصّورة التي رسمتها لنا أوروبا منذ الأزل!

وصل سيباستيان مع رفيقه العسكريّ حتّى أطراف جبل العنز من جهة أولاد عيّار، المسلك الذي قرّر كونبا وجرمي المرورَ منه باتّجاه منطقة زامة، إذ كان لهما موعدٌ هناك مع المهرّب الذي سيأخذ جرمي إلى قليبية عبر زغوان. ستنتظره ماريا في قليبية، ثمّ يبحران نحو سيسيليا معًا. في الأثناء كان كونبا سيواصل سيره إلى أحد الجبال الأخرى، لم يذكر تلك الوجهة، لكنّه كان يضع في جرابه أكثر من احتمالٍ.

في الحقيقة، لمّا قرّر كونبا السّيرَ بجرمي إلى منطقة زامة للقاء المهرّب الذي اشتروه بثمنٍ مكلّفٍ جدًّا، وهو من أولاد عيّار ويعرف كلّ الطرقات والمخابئ، وزامه هي منطقةٌ أثريّةٌ مهجورةٌ يسكنها الجنّ والثّعابين... أقول لمّا ذكر تلك المنطقة تعوّذتُ من الشّياطين والجنّ وكلّ الخبائث والخبثاء، لأنّني تطيّرت حقًّا من المكان. فأرواح أغنياء قرطاج الخبيثة ما تزال تحوم هناك... أولئك الذين خانوا حنّبعل وزجّوا به في معركةٍ خاسرةٍ.

لمّا ذكر كونبا زامه، كدتُ أصرخ في وجهه: «كلّ القرى... إلّا زامه». ثمّ تراجعت، وقلت لعلّه على حقٍّ، فهي منطقةٌ مقفرةٌ ومدمّرةٌ ولا حياة فيها، ولذلك فهي طريقٌ آمنةٌ للمهرّبين.

كان كونبا يسير في المقدّمة ليفتح الطّريقَ،

وجرمي خلفَه يتبعه. كانا يسرعان ويُبعدان أغصانَ الأشجار الكثيفة بأيديهما يمينًا ويسارًا. وفي الأثناء كان سيباستيان يوجّه بندقيّته نحو خنزيرٍ برّيٍّ يضع رأسَه في التراب ينخر الأرض. ولحظةَ همّ بإطلاق الرّصاصة في عنق الخنزير، مرَّ من أمامه شبح الكونبطا حتّى إنّه كاد لا يصدّق ما رأته عيناه. لقد رأى المجرم الكبير قاتل الفرنسيّين، ذلك الفارَّ المحكوم عليه بالإعدام. ها هو يظهر فجأةً من جديد.

صاح سيباستيان: «قف أو أُفَجِّرُ رأسك، أنت صيدٌ أكثر أهمّيّة من الخنازير». كان يريد أن يمسك بكونبا حيًّا ويعود به إلى القرية، وتلك أمنية الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج.

حينما التفت كونبا ورأى سيباستيان وبجانبه العسكريّ قفز يمينًا وارتمى خلف الجذوع السّميكة عائدًا نحو عمق الجبل. فَعَلَ ذلك وهو يصيح: «جرمي... أسرع ورائي».

لمّا جرى جرمي وراءه كانت رصاصة سيباستيان الأولى قد اخترقت كتفه اليسرى من الخلف فسقط أرضًا في الحين. اتّخذ كونبا مكانًا آمنًا وراء جذع شجرةٍ كبيرةٍ وصوّب بندقيّته باتّجاه سيباسيتان ففجّر بطنه، ثمّ أصاب المرافقَ العسكريَّ حتّى رآهما يسقطان أرضًا. وعاد بحذرٍ وأطلق عليهما النّار ثانيةً ليتأكّد من موتهما، ثمّ توجّه إلى جرمي.

كان الألمانيّ الأخير ينزف بشدّةٍ ويتنفّس بصعوبة. قال بصوتٍ خافتٍ جدًّا مخاطبًا كونبا: «اذهب أنت، أمّا أنا فقد انتهى أمري». حاول

كونبا ربطَ كتفه، ثمّ أخذ يجرّه إلى الكهف وهو يردّد: «ستحيا... ستحيا كأوّل مرّة سقطتَ فيها من السّماء». كانت خطى كونبا سريعةً وكذلك دماء جرمي. ولمّا وضعه أمام الكهف وسكب عليه الماء، وجده بلا حركةٍ ولا نفسٍ ولا دماء. كان كونبا لا يزال يردّد: «لا... لا... أنت لم تمت... ستعيش!». ضربه على صدره، ثمّ أخذه من رأسه حتّى يئس واستسلم واقتنع بموته. وبقي تحت وقع الصّدمة بلا كلامٍ أو مشاعر. كانت الضّربة مفاجئةً كالصّاعقة. مكث جاثيًا على ركبتَيه أمام الجثّة وظلّ يفكّر. كان لديه حلمٌ وصديقٌ، والآن لا حلم ولا صديق، فقط جثّة وطريقٌ... تضيق.

بكى كونبا بكاءً لم يعرفه في حياته يومًا. كان يبكي وينظر إلى جثّة جرمي كأنّه يقول له: «ليتك لم تسقط من السّماء أصلًا!». ثمّ دخل الكهف، حمل الفأس والمعول وشرع في حفر القبر. بدأ يحفر تحت شجرة الصنوبر الكبيرة، تمامًا تحت ذلك الغصن الكبير الممتدّ إلى جهة الغرب، الغصن الذي ربط فيه جرمي حبلًا ولفّه حول عنقه محاولًا الانتحار في تلك الليلة البائسة. القبر أيضًا كان يتّجه إلى أعلى حيث سار الجرماني فاتحًا يدَيْه محدّدًا جهات الدنيا الأربع وهو يقول: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السّوداء».

أخذ فأسَه وبدأ ينبش الأرض كغرابٍ. كانت رائحة التّراب الطّريّ فائحةً... ترابٌ أَسْوَدُ جميلٌ وغنيٌّ، ودودٌ أَبْيَضُ صغيرٌ وثخينٌ كحبّات التّوت الأبيض تزحف فرحًا بقدوم جثّة إنسانٍ، ديدان آكلة للحم الإنسان وشحمه... هذا الإنسان الذي تصوّر لحظةً

أنّه امتلك العالم ليس في النهاية سوى وليمةٍ للدّيدان!

دَفَنَ صديقه الذي سقط عليه من السّماء صدفةً وغادَر في يوم رحيله نحو حلمه. ولكنّ للقدر أحكامَه التي لا تقبل النّقض. وبذلك المشهد الحزين، انتهت أسطورة كهف جبل العنز.

كان العمدة منصور العينَ الأخرى التي شاهدت كلّ شيء في الخفاء. لمّا تأكّد من هرب كونبا، زحفَ إلى الكهف، ونبش عن الجثّة وجرّها حتّى مكتب السيّد فرنسوا بالاج. وكتب بها أسطورة كفاحه: «العمدة الذي قتل آخر جنديٍّ نازيٍّ في قريتنا!». لم تكن للعمدة منصور الجرأةُ الكافية ولا القوّة لإطلاق رصاصةٍ على الكونبطا، لأنّه لا يقدر البتّة على مواجهته. فهو لا يعدو أن يكون رجلًا يبحث عن نصرٍ رخيصٍ، كالغربان التي تعيش على صيد الصّقور.

لمّا رأيتُ جثّة مارك، وكان ذلك بعد العصر، يومَ وصلتنا ثلاثُ جثثٍ، جثّة سيباستيان ومرافقه العسكريّ صباحًا وجثّة الجرمانيّ عصرًا، جريتُ إلى بيت ماريا، ودفعت بابَ سور حديقتها الخشبيّ القصير ودخلتُ. ولمّا طرقت الباب بعنفٍ فتح لي سي الطيّب، وكان ينظّف المكان. نظرتُ في عينيه بتعجّبٍ كأنّني أسأله: ماذا تفعل هنا؟! أخبرني بأنّ ماريا باعته البيتَ والمحلّ وسافرت إلى العاصمة. تركته وانصرفت من جديدٍ إلى محطّة القطار. في الحقيقة، لم أكن أعرف إلى أين أذهب، حتّى كدت أسأل النّاس: أين الكونبطا؟! أين جرمي؟! أين ماريا؟!

لقد غادرت ماريا صباحًا باتّجاه قليبية كما كان مخطّطا. إنّها الآن على حافّة الميناء تنتظر قدوم جرمي الذي لن يأتي أبدًا. في لحظة من اللّحظات فكّرتُ: ماذا لو سرتُ إليها لأخبرها بكلّ ما جرى؟! ثمّ تراجعت عن تلك الفكرة. كان من الأفضل لها أن تعيش على أمل ظهوره في قليبية أو في سيسيليا أو في مدينةٍ أخرى من العالم.

وسط كلّ ذلك التّفكير والتّخمين خُيّل إليّ أنّها تبحر وحيدةً بعد أن انتظرت ما يكفي من الزّمن. تلك المرأة لن تحتاج إليّ أبدًا، قلبها سيحدّثها بالحقيقة. ماريا تعرف جيّدًا ما تريد من الحياة، وتعرف أيضًا كيف تتصرّف.

دُفِنَ المعمّر سيباستيان. لم أمشِ في جنازة ذلك الملعون الذي أصاب أرضنا بجرحٍ لن يندمل، بل قلت له في سرّي: «فا فنكولو... اذهب إلى الجحيم». أمّا جثّة الجرمانيّ فقد دُفِنَتْ في مكانٍ مجهولٍ. في صباح اليوم التّالي سار السيّد فرانسوا بالاج مع عساكر آخرين نحو جبل العنز، وكان العمدة منصور دليلَهم إلى الكهف. لمّا دخلوه فتّشوا كلّ الأرجاء، أخذوا معهم كلّ ما وجدوه هناك، ثمّ أمرَ الحاكم العسكريّ بتفجيره بالديناميت. وانتهت بذلك أسطورة الكهف. ولم يعد جبل العنز غير غابةٍ من أحلامٍ مدفونةٍ لأناسٍ منسيّين. ولكنّ النّاس ظلّوا يتردّدون على المكان: «مربض الذئب»، كما صار يسمّى إلى يومنا هذا. يجلسون هناك وكلّهم إيمان بأنّ كونبا سيظهر من جديدٍ. قالوا ذلك علنًا بأصواتٍ واثقةٍ وبنبراتٍ ثابتة: «لن يقدر الفرنسيّون على كونبا».

ظلّ الجميع يروون حكايتَه حتّى مرّت سنواتٌ من دون أن أسمع عنه خبرًا. قيل لي مرّةً، وأنا في مدينة سوق الأربعاء، إنّ أحد المهرّبين رآه في جبل السّرج، حتّى إنّني سألت: هل شارك هو أيضًا في معركة برقو؟! وظللتُ أسأل حتّى ذلك اليوم الذي جاء فيه مقيّدًا بالسلاسل يسير به القطار إلى المشنقة.

(11)

وصل القطار.

الأكيد أنّ ذلك القطار وصلَ الآن إلى العاصمة. ولا شكّ في أنّ العساكر الفرنسيّة تستقبل كونبا مقيّدًا في أغلاله وتجرّه إلى السّجن. والأكيد أنّهم سيحتفظون به في زنزانةٍ خاصّةٍ تليق بمقامه عندهم وأفعاله. لقد قُضِي الأمر ولم يبقَ إلّا تحديد موعد الشّنق ومكانه. سيكون اليوم رمزيًّا وكذا المكان، حتّى يبقى في ذاكرة كلّ من فكّر في حمل سلاحٍ وكلّ من حاول إهانة فرنسا!

في الحقيقة، أقول لك إنّهم حتّى لو سمحوا له بفرصةٍ للدّفاع عن نفسه وتبرير أفعاله لتخفيف الحكم إلى السّجن المؤبّد أو النّفي عوضًا عن الشّنق... حتّى لو سمحوا له بتلك الفرصة، فأنا على يقينٍ من أنّ الكونبطا لن ينكر شيئًا من أفعاله. سيقرّ بها جميعًا في وجه القاضي العسكريّ الفرنسيّ بصوتٍ عالٍ وربّما عزّز ذلك بعباراتٍ نابيةٍ وقبيحة: «نعم، قتلتُ ثلاثة ثعالب متعفّنة من الجنود الفرنسيّين... قتلت الضابط السوفاج وقطعت أطرافَه بفأسي، ثمّ تبوّلت على جثّته ورقصت وغنّيت أغنية البربريّ والجبل... أنا مَن فجّر بطن المعمّر سيباستيان الذي دمّر الأرض والزرع... نعم، أنا الذي تعامل مع الجنديّ النازيّ، ومَعًا فجّرنا الجسر. حملنا صندوقًا كاملًا من الديناميت وزرعناه تحت أعمدته الحديديّة السميكة، ثمّ فجّرناه، لكنّكم أعدتم بناءه بسرعةٍ لأنّ القطار الّذي يمرّ فوقه، القطار الّذي يحمل فوق ظهره قطعةً من أرضنا وثرواتها يجب ألّا

يتوقّف... نعم، أنا الذي تاجر بالسّلاح مع سيموني ووزّعتُه على العشائر... أنا الذي عشّش في الجبال وفجّر ودمّر. وأنا الّذي أطالبكم اليوم بالاعتذار لأنّكم قتلتم أبي وحمار أبي ورميتم أخي في باخرة الأموات. اليوم أطالبكم بأن ترحلوا غير مأسوفٍ عليكم! ارحلوا كوباءٍ أو طوفانٍ أو جرادٍ... ارحلوا كروث بقرٍ مقزّزٍ لا يحتمل ولا يُطاق، ارحلوا ملعونين مرجومين كالشياطين...». ولعلّه يزيد على ذلك أشياء كثيرةً أخرى.

في كلّ الأحوال، لن يتحصّل على تلك الفرصة التي تخوّل له قولَ ذلك كلّه، لأنّهم الآن مشغولون بتجهيز المشنقة حتّى تكون لائقةً وقاطعةً وبلا رحمة. سيكون موكبًا عظيمًا تهتزّ له القلوب حتّى نقول ككلّ مرة: «كم هي جبّارةٌ فرنسا!».

سيقطفون رأس كونبا، سيقطفونه كزهرةٍ تفتّحت في ربيع تلك السنة الجميلة المخصبة.

نسيت أن أخبرك... في ذلك اليوم لمّا بدأ القطار يغادر المحطّة، مشيتُ قربَ عربته صامتًا، لكن هل تصدّقني فعلًا عندما أقول لك نسيت؟! في ذلك التّناسي يكمن سرٌّ من أسرار حكايتنا. أقسم لك أنّك لو جلستَ إلى سي المقدّم في طرف السّوق لروى لك الحكايةَ أفضل منّي بكثيرٍ. كان سيبهرك، ويجعلك تعيش زمانها ومكانها ويطير بك في فضاءات وعوالم أخرى، كان سيؤثّثها كما تؤثّثُ بيوتُ السّلاطين. ويجعلك تتشوّق وتتوتّر، وتضحك عاليًا من حينٍ إلى آخر أو تبكي من الدّاخل.

علّمني ذلك الحكواتيّ الكبير متى أنسى ومتى

أتذكّر، وعلّمني أين أطيل في الكلام وأين أقصّر، حتّى يكون على مقاس الحكاية تمامًا فتبدو أنيقةً وجميلةً. نحن كالخيّاطين الذين يفصّلون القماشَ تفصيلًا ثمّ يخيطونه غرزةً غرزةً. لا فرق بيني وبين حمده التارزي الذي كان محلّه بجانب محلّ علي الحلّاق.

حمده يخيط القماش، وأنا أخيط الكلام. تعلّمت ذلك في الأسواق، ولمّا دخلت مكتبةَ كريستال وقرأتُ كلَّ تلك الكتب صرتُ بارعًا فيه. لكنّني أظلّ ابن سوق الحكواتيّين، تلميذ سيدي المقدّم. ذلك الرجل قال لي يومًا: «الحكاية سُجّادٌ منسوج بالكلمات...».

أولئك الحكواتيّون كانوا يجتمعون يوم السّوق في شارع المحطّة، تحت شجرة اليوكاليبتوس الكبيرة المقابلة لمركز «البريد والبرق والهاتف». بعد أن يقتنوا أغراضهم، تبدأ أحاجيّهم. كانوا سبعةً لا أكثر، وكنت أنا ثامنهم. والعدد هنا لا يعنينا كثيرًا، المهمّ أنّهم كانوا قلّةً ككلّ جماعةٍ تحمل النّور في قلبها. وكان سيدي المقدّم هو سيّد الحكواتيّين ورئيسهم. كنت صغيرًا أتسلّل إلى مجالسهم وأنا أكاد لا أتنفّس كي لا يشعروا بوجودي. وحينما يلحظني أحدهم يشير عليّ بالابتعاد. لم يكن ذلك طردًا، بل لأنّ حكاياتهم تتضمّن الكثير من الإباحيّة وتتخلّلها أحيانًا كلماتٌ فاحشة. كانوا يصفون الأشياء ويدقّقون فيها بغيةَ الكشف عن الأسرار العميقة. ولمّا رآني سيدي المقدّم يومًا أتجسّس عليهم، دعاني إلى الجلوس وهو يبتسم قائلًا: «هذا الصّبي سيكون

من أتباعنا». وعندما صرتُ من أتباعه، عرفتُ أنّ لكلّ حادثةٍ ترتيبًا في الحكاية، لذلك نسيتُ أن أخبرك بما قاله لي كونبا ذلك اليوم حين وقفتُ قريبًا من عربته.

صاح وهو ينظر في عينيّ الدّامعتين ويكاد ينفذ إلى قلبي المهزوم: «أخبر أمّي بأنّني عائدٌ لأتزوّج زهرة. العرس الكبير سيكون بعد حصاد هذا الموسم مباشرة، نعم هذا الموسم. أخبر الشيخ حسين كي يجهّز الوثائق ليكتب لي عقد الزواج. ادهن جدران البيوت باللّون الأبيض والأبواب والنّوافذ باللّون الأزرق. اجلب الخيام والفوانيس الكبيرةَ من مدينة سوق الثلاثاء.. اشترِ لي خمسةَ عجولٍ وثلاثة جِمَالٍ وعشرة خرفانٍ. اتّصل بـ«فرقة أولاد عيّار» اتّصل بالرّاقصات وبالفرسان. سأتزوّج هذا الصّيف. فليعلم القريب والبعيد، الجميع مدعوّون لحفلة السلطان... أنا السّلطان، وأنت وزيري الأوّل. أنا السّلطان...».

لمّا قال «أنا السّلطان» للمرّة الثّالثة، تلاشى صوتُه وسط صفير القطار وصرير المكابح الجارح... ثمّ تلاشى كلّ شيء. «هو السّلطان الميّت لا محالة، وأنت وزير الدّفن!». كأنّني سمعت صوتًا وسوس لي بهذه الكلمات في عمق أذنيَّ حتّى أصابني صداعٌ في رأسي. قرأت المعوّذتين محاولًا طردَ هذا الشّبح المخيف، لكنّه لبسني كجبّتي وضغط على نصفي كحزامي الجلديّ. جالت في خاطري بعض الحكايات التي نجا أصحابها من المشانق بأعجوبةٍ محاولًا بعث الأمل في نفسي لكنّني لم أفلح، لأنّني بدأت فعلًا أفكّر في موكب

الدّفن.

هذا ما أنهى به حديثه في ذلك اليوم. تصوّرت أنّه أصيب بجنون العظمة، أو لعبت برأسه أحلام اليقظة. ثمّ سألت نفسي: ألا يعلم أنّه ذاهبٌ إلى المشنقة؟! ثمّ بدأنا نُعِدُّ كلّ شيءٍ لاستقبال جثّته التي ستأتي بعد أسابيع قليلة.

كان من مَهامّي اختيارُ المكان الذي سيُدفَن فيه، فأنا الوزير... وزير الدّفن! اختفى القطار.. وكونبا.. وكلّ تلك الذّكريات الجميلة.. واختفت معهم الآمال!

انتصبت الشمس في كبد السماء، أخذتُ كرسيًّا من مقهى شعبان وجلستُ هناك تحت شجرة اليوكاليبتوس وحيدًا. في ذلك الصباح دخّنت ثلاث سجائر متتالية وأنا أحتسي قهوة الفيلتر بلا سكّر. جلست أفكّر في الزّمن الجميل الذي شُطِبَ بقلمٍ أَسْوَد... بل شُطِبَ بفحمٍ مسمومٍ... كونبا، ماريا وجرمي، وكذلك سيموني وسيدي عبد الله. فكّرت حتّى في الحمار وفي أشجار الصّنوبر التي دمّرها مدفع الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج بقصفه العشوائيّ. تلاشت كلّ تلك الوجوه والأحداث وصارت كأشلاء مهترئةٍ جدًّا تسكن مقبرةَ الرّوم. ثمّ نهضت مسرعًا أبحث عن الشيخ حسين. «*إكرام الميّت دفنه بسرعةٍ*». ذهبت أبحث عنه حتّى رأيته يغادر محلّ عليّ الحلّاق. فصحتُ من بعيدٍ:

«سيدي حسين... سيدي حسين... الكونبطا... القطار... المشنقة... الجثّة... الدّفن..». وظللتُ أصيح حتّى وقف أمامي غاضبًا رافعًا سبّابته

أمام عينيّ وهو يردّد صارخًا: «أرواحنا بيدِ الواحد الأحد وليست بيد فرنسا». وانصرف غاضبًا يثبّت شاشيّته التي كادت تسقط من رعشته، حتّى إنّني خجلت من نفسي إذ جعلت سيدي حسين يغضب. رأيت اللّعنة بين شفتيه، لكنّه لم ينطق بها. كاد يلعنني كما يلعن الكفّارَ دائمًا في خطبة الجمعة وهو واقفٌ يصرخ من أعلى المنبر.

ولمّا تماسكتُ وعاد إليّ بعض رشدي، ردّدتُ في باطني وأنا أصعد إلى دوّار أولاد بن الحاج محمّد: «الأرواح بيد الله». ولمّا رأيت الشيخ مصطفى الدرويش وأنا أمرّ بجانب ضريح الوليّ الصّالح على الطريق الفرعيّة التي تحملنا من الدوّار إلى المدينة، رأيته من بعيدٍ يحمل دفّه الكبير ويدخل استعدادًا لحضرة مع أصحابه. عندما رأيتُه قلت لنفسي: «لكنّ فرنسا هي عذاب الله... هي الوباء... هي الشرّ الذي لا بدّ منه. وكلّ ذلك من مشيئة القدير باعث النّور في الكون والقلوب!».

خفتُ من مواجهة دادا صالحة، فعدتُ إلى المدينة وقرّرتُ قضاء ليلتي تلك في مكتبة مدام كريستال حتّى يأتي الفرج. وحين جلست داخل المكتبة ونظرت في الكتب المرصّفة على الرفوف بعنايةٍ، تذكّرت قصّةَ ذلك الكاتب الرّوسيّ العظيم الذي اقتادوه إلى ساحة الإعدام، وعندما همّ الجنديّ بإطلاق الرصاصة القاتلة، جاء أمر القيصر بالعفو. فانشرح صدري وانبثق نور الأمل، حتّى إنّني استلقيت على الأرض محاولًا الاستسلام للنّوم ونسيان جحيم ذلك اليوم. وما إن أغمضت عينيّ، حتّى رأيت الشاعرَ يسقط في ضواحي

غرناطة برصاص الجنرال الإسبانيّ من غير رحمة. كانت القصيدة مكتوبةً بالدماء النازفة: «ما الإنسان دون حرّيّةٍ يا ماريانا... قولي لي كيف أحبّك إن لم أكن حرًّا؟ كيف أحبّك وقلبي ليس ملكًا لي».

الجنرالات لا يعفون أبدًا... وجنرالات فرنسا كذلك.

(12)

كنت خائفًا من الاستقلال!

سأردّدها مرّة أخرى، كنت خائفًا من الاستقلال. لا داعي إلى ترديدها للمرّة الثّالثة، لقد سمعتني وفهمتني جيّدًا. وعندما تنتهي هذه الحكاية ستعرف أنّ خوفي كان صادقًا وفي محلّه. الصّادقون لا يخجلون من قول الحقيقة. طوال الأيّام التي وطأت فيها تراب هذه القرية حاولت ألّا أكذب، وأنا فخور بذلك. والسيّد بالاج، الحاكم العسكريّ، كان يعلم ذلك، وكذا السيّد رئيس مركز الحرس الوطنيّ من بعده.

الخوف من الاستقلال كان عنوان تلك المرحلة... كانت «الشُّوك»، وهنا أعني الصّدمة. وكان شَوْكُ تلك «الشّوك» جارحًا وخارقًا للمشاعر كَشَوْكِ شجرة صبّارٍ صابرةٍ على الأذى والقحط... مشاعر فيها مزيج من الفرح الصّاخب والخوف الدّفين. ففي تلك المرحلة، ضُرِبنا بسهمَين في القلب، في المكان نفسه وبالعمق نفسه، فتألّمنا مرّتين. ضَرَبَنَا الفرنسيّون بسهم الاستقلال، وضَرَبْنَا أنفسَنا بسهم الحرّيّة.

عندما أقول لك إنّي خائفٌ من الاستقلال، لا أقول ذلك حبًّا في فرنسا، «فلتذهب فرنسا إلى الجحيم إلّا كريستال»، كما يقول الشيخ حسين. بل «فا فنكولو فرنسا»، كما يقول سيموني، لكن من دون أن أشير بإصبعي الوسطى لأنّني توضّأتُ وبعد حينٍ أغادر لصلاة المغرب.

كنت خائفًا لأنّني رأيت الرّعب في تاريخ الشّعوب.

تذكّرت تلك الفتنة الكبرى التي حدثت بعد وفاة النبيّ محمّد بسنواتٍ قليلةٍ. فالأصحاب والأحبّة قطفَ بعضُهم رؤوسَ بعضٍ بالسّيوف. أقول قطفوها لأنّهم كانوا متآخين في الله، أمّا الذّبح فكان للكفّار وحدَهم. تذكّرت تاريخ فرنسا نفسه، وكيف جاءت ثورة النّور بنابليون الدكتاتور. تذكّرت أيضًا كيف كان السلطان العثمانيّ يقتل أخاه ابن أمّه وأبيه لينفرد بتاج السّلطان. تذكّرت أحداثًا كثيرةً أخرى، كبيرةً وصغيرةً. فكان من حقّي أن أخاف، ومَن سيلومني على ذلك؟

رأيتُ أولئك السذّج يرقصون في محطّة القطار لمّا ضُرِب الطّبل والدّفوف والمزامير في كلّ مكانٍ وذُبِحت الذّبائح وسالت دماء الفرح. أكلوا وشربوا، ولمّا شبعوا شرعوا في الرّقص والتّمرّغ أرضًا كحميرٍ أصابها النُّعُرُ. لقد عاشوا بِدَوْرِهم ذلك الحدث بعمقٍ، حتّى قملهم المعشّش فوق رؤوسهم شرب من دمائهم حدّ الثمالة، ثمّ بدأ يقفز من الفرح.

ولمّا رأيتُ العمدة منصور يتجوّل وسط الناس آمرًا ناهيًا، أصابني الخوف الأكبر، لأنّ خوفي من الاستقلال كان الخوفَ الأصغر. خُيِّل إليّ أنّ ذلك العميل والانتهازيّ يجلس في مكان السيّد بالاج ويدير شؤون المدينة.

دعني الآن أُنْهِ أمر الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج وكذلك السيّدة كريستال. وعندما أقول كريستال ينفطر قلبي ويتجمّد الدّم في عروقي، ثمّ أتساءل: أين هي زهرة الأوركيد التي لم تلدها قريتنا؟!

في بداية ربيع تلك السنة التي غادر فيها قطارُ كونبا باتّجاه المشنقة، تسارعت الأحداث وتداخلت حتّى بَلَغَنَا أنّنا تحصّلنا على الاستقلال. كنّا بعيدين عن العاصمة فلم نواكب تسارع الأحداث ولم نفهم ما وقع، ثمّ قيل لنا إنّه مجرّد استقلالٍ جزئيٍّ، لأنّ فرنسا عسكرت بقوّاتها في مدينة بنزرت. المهمّ أنّ الأمر كان غامضًا وغير واضحٍ كما ينبغي لعامّة النّاس. كلّ ما يهمّني هنا أنّ مدينتنا تحصّلت على الاستقلال، حتّى رأيت ذلك بعينيّ وعشته.

كان يومًا ليس ككلّ الأيّام، يومًا خلّده التّاريخ. كان الوقت ضحًى لمّا رأيت أعلام فرنسا تسقط ذليلةً ومبلّلةً بعرق الجبْن والعار. رأيتها تسقط من فوق كلّ المقرّات الرّئيسية، من فوق محطّة القطار، ومن فوق مركز «البريد والبرق والهاتف»، ومن فوق ديوان الحبوب، بل من فوق الثّكنة العسكريّة أيضًا.

قُسّم العساكر على امتداد شارع المحطّة إلى كتيبتين، الكتيبة الأولى غادرت بمعدّاتها العسكريّة والطّبل والمزمار وراياتُها مرفوعةٌ باتّجاه طريق الشمال قاصدةً الجزائر. ظلّ السيّد بالاج يحيّيها تحيّةَ عسكريٍّ وهو متجمّدٌ في مكانه حتّى اختفى آخر جندي. ثمّ توجّه إلى الكتيبة الأخرى قائلًا: «أمّا نحن فسنسير بعد حينٍ في اتّجاه العاصمة. لقد أنجزتم مهمّتكم كما ينبغي أيّها الجنود الشّجعان. نحن دائمًا في خدمة قيادتنا، ومهمّتنا لن تنتهي أبدًا. نحن مسؤولون اليوم عن نشر الأمن في وطننا وفي العالم». ثمّ تقدّم جنديٌّ يحمل العلمَ الفرنسيّ وبدأ

السكسوفون يعزف النشيد الوطنيّ الفرنسيّ. كانوا خاشعين ثابتين وصامتين. أقسم لك أنّني رأيت بعض الأهالي يغنّون معهم، خاشعين مثلهم، ثابتين مثلهم، كادوا هم أيضًا يقولون مثلهم: «لقد أنهينا مهمّتنا هنا كما ينبغي ونحن مسؤولون عن نشر الأمن في العالم!». كانوا مسحورين غير مصدّقين وربّما متأسّفين ولسان حالهم يقول: أكان لا بدّ لفرنسا من الخروج؟! ونحن؟! لقد كانوا كأيتامٍ... نعم أولئك هم أيتام فرنسا.

بعد خطبة الوداع تلك، تقدّم السيّد بالاج الموكبَ وبدأت العربات العسكريّة تغادر نحو العاصمة. ولمّا أخذت في السير ببطءٍ، سمعت أولئك السذّج يسألون: «متى تعود فرنسا؟!». صاح فيهم العمدة منصور قائلًا: «لن تعود أبدًا... اليوم أنا فرنسا». ثمّ أمرهم بالتفرّق، فعادوا إلى أماكنهم المعهودة في ذلٍّ وخنوع.

أمّا أنا فقلت بصوتٍ لا هو بالعالي ولا هو بالمنخفض، صوتٍ فيه الكثير من الجدّيّة وصدق النيّة، قلت ذلك وأنا أعني جيّدًا ما أقول، قلته محفوفًا بليالي الحكمة فوق هضبة الإكليل والكتب التي قرأتها في مكتبة السيّده كريستال: «فرنسا لن تعود أبدًا، بل نحن من سيلحق بها».

ولمّا أفقتُ من صدمة الرّحيل المفاجئ، تساءلتُ كما تساءل أولئك السذّج: «هل سترحل مدام كريستال أيضًا؟» وهرعت أجري لأبحث عنها في المكتبة. كان الباب مفتوحًا، وكانت هي تبحث عن شيءٍ مّا: «بنجور مدام كريستال، هل سترحلين

أنت أيضًا؟!» قلت ذلك وأنا ألهث وأمسك بباب المكتبة. قالت وهي تتبسم: «نعم موسيو لو بروبر، وسأسلّمك الآن مفاتيح المكتبة. ومن اليوم أنت المسؤول عنها وعن حديقة المتوسّط. اعتنِ بهما كأطفالك». «متى ستعودين؟!»، قلت لها وأنا أردّد في سرّي: «فلتذهب الحديقة والمكتبة إلى الجحيم». فأجابت وهي تضع يدها اليمنى على كتفي: «لن أعود! اليوم أنا سعيدةٌ من أجلكم وفخورةٌ بكم. لقد انتهى عهد الحماية. اعتنوا جيّدًا بأنفسكم وبالبلد».

المسكينة كانت طيّبةً جدًّا وبريئةً براءةَ الفراشات وهي تمتصّ رحيق الزهور. قالت «الحماية» ولم تقل الاستعمار. لكنّ ذلك لا يعنيني كثيرًا الآن. احتضنتني حتّى أغمضتُ عينيَّ ولم يبقَ لي إلّا أن أتنفّس عطرَها الباريسيّ الباذخ. ثمّ قالت: «سأكتب لك رسائل. حتمًا سيكون لنا لقاءٌ يومًا مّا. دع الأمور تسير كما يجب، أمّا الآن فيجب عليّ الالتحاق بالسيّد بودان فهو ينتظرني في الخارج، يجب أن نغادر خلف كتيبة العساكر باتّجاه العاصمة».

ولمّا ركبت العربة، سرتُ حذوها، ثمّ أسرعتُ، ثمّ جريتُ، ثمّ جريتُ أكثر كالعدّائين، حتّى إذا يئست من اللحاق بها توقّفتُ. كان قلبي يدقّ كمدفعٍ، وكانت هي تنظر إلى الخلف حتّى اختفت، كقمرٍ... كشمسٍ... كزهرة أوركيد اقتُلِعَتْ فجأةً. واختفى كلّ شيء ببساطة، اختفى كلّ ذلك العالم الجميل الذي بنيتُه حجرةً حجرةً وسقيتُه قطرةً قطرةً وكتبتُه ورسمتُه بكلّ الألوان. اختفى...

أقسم لك أنّني كدت أقول لها أحبّك. كنت سأقول لها ذلك... لكنّ الاستقلال حرمني تلك الكلمة. فَبَقِيَتْ عالقةً في حلقي إلى اليوم. لمَ يجب على السيّدة كريستال أن ترحل؟! أَمَا كان يمكنها المكوث في مدينتنا لحماية المكتبة وحديقة المتوسّط أو لحماية محلّ التّمريض والتّوليد؟! ولو سألتني حينها، من أنت؟ لأجبتُ بكلّ فخرٍ: «أنا صديق مدام كريستال». سأبحث عن تلك المرأة في الجنّة لأقول لها أحبّك. فقد قال لي الشيخ حسين ذات يوم: «العبد في الجنّة يتزوّج كلّ النّساء اللّواتي أحبّهنّ في الدّنيا!».

عندما تلاشى كلّ شيءٍ، عدت وحيدًا إلى المكتبة، أَجُرُّ رجليَّ كجنديٍّ مهزومٍ وجسدي مثقل بآلام الفراق. أغلقت الأبوابَ والنّوافذ وجلستُ في الظّلام بين الرّفوف. كانت ابتسامتُها في كلّ ركنٍ وكذلك صوتُها وعطرها وروحها. أمّا نظّارتاها فلمَ تفارقاني البتّة، لقد نسِيَتْهُما هناك في زحمة الرحيل، ويمكنك أن تجدهما في ذلك الصندوق الخشبيّ المدهون باللّون الأزرق السّماوي، اللّون المفضّل عند مدام كريستال.

أغمضت عينيّ حتّى أخذتني غفوةٌ دقائقَ معدوداتٍ كانت كافيةً لأرى فئرانًا مرعبةً بتروليّة اللّون تزحف من تحت النوافذ والأبواب وصراصيرَ حمراءَ بسيقانٍ حادّةٍ وكثيرةٍ تقفز بين الرفوف. كنت أضربها بعصًا محاولًا منعَها من الدّخول حتّى أصابني العجز. ولمّا سقطت أرضًا، غطّتني تلك الكتب والمجلّدات وبدأت في الاحتراق وأنا أرى الدّخان يخرج من صدري فصحت فزعًا. وعندما فتحت

عينيّ أُصِبْتُ بكابوسٍ حقيقيٍّ. فقرأت المعوّذتين لطرد الشرّ القادم أو للتّخفيف منه، ثمّ صرتُ لا أنام اللّيل خوفًا.

أمّا الآن، فدعني أُنْهِ أمرَ الاستقلال... الاستقلال الذي كان يجب أن ينتظر قليلًا حتّى أقول «أحبّك» لمدام كريستال.

ألم أَقُلْ لك في بداية حديثنا إنّ الرّجل لا يولد مرّةً واحدةً؟!

أنا كنت شاهدًا على ولادة الكونبطا الثّانية، لكنّي لا أعرف شيئًا عمّا دار بالضّبط بين حكومة الاستقلال وفرنسا، ولا أعرف كواليس كثيرةً من تلك المفاوضات، وكلّ ما أعرفه أنّ حكومتنا اشترطت إطلاقَ سراح كلّ المساجين، وأنّ الفلّاقة نزلوا من الجبال وسلّموا أسلحتَهم في مقابل عفوٍ تامٍّ وإسقاط الملاحقة العسكريّة أو المدنيّة. فصاروا أحرارًا! وكذا كان شأن صديقنا الكونبطا، إذ خرج من زنزانته حرًّا طليقًا، وصحيفتُه مشرقةٌ بيضاء.

دخل القرية كالفاتحين، جاء في عربةٍ خاصّةٍ من العاصمة. تجمّع الناس على امتداد شارع المحطّة صائحين: «الكونبطا حيٌّ.. الكونبطا حيٌّ.. الكونبطا يا بطل.. الكونباطا يا كوشمار الاستعمار!» احتضنوه، قبّلوه، ورفعوه على الأعناق، وجابوا به الشّوارع. دُقَّتِ الطّبول ونُفِخ في المزامير وسالت دموع الفرح. ثمّ التقينا في مقهى شعبان. كان ذلك اللّقاء بعثًا بعد قيامةٍ. صعدنا إلى دوّار أولاد بن الحاج محمّد وبدأ الاحتفال هناك. كان النّاس يتوافدون صباحًا ومساءً مهنّئين ومباركين

ممتلئين بالفخر. أمّا دادا صالحة فكانت أسعدَ أمٍّ على وجه الأرض.

بعد موسم الحصاد، بدأنا فعلًا في تجهيز العرس الكبير، عرسِ كونبا وزهرة، بالضّبط كما أمرني يومَ سرتُ إلى جانب عربة القطار. كان هو السّلطان وأنا الوزير والشّاهد الأوّل على عقد الزّواج.

كان ذلك العرس أشبه بمهرجانٍ كبيرٍ. رأيت ضيوفًا لم أقابلهم في حياتي، جاؤوا من كلّ الجهات. سبع ليالٍ أوقدنا فيها سبع نجومٍ، في كلّ ليلةٍ نجمة، وفي كلّ ليلة غنّت فرقةٌ، فرقة سيدي الصّحبي من القيروان، وفرقة سيدي حمادة من جبل السّرج، وفرقة أولاد الحضري من عنّابة وفرسان أولاد عيّار، وفرقة السلّامي من العاصمة، وراقصون وراقصات. نُصبت الخيام وأُوقِدَت الفوانيس وقُدِّمَت الذّبائح والأطعمة.

لبس الكونبطا في كلّ ليلةٍ جبّةً وشاشيّةً، ووضع كلّ ليلةٍ بُرنسًا. غنّوا له وهو واقفٌ وسط الحفل، يركبُ حصانه ويطلق النّار في السّماء. ونظموا فيه شعرًا، فكان سلطانَ زمانه. ثمّ غنّى بنفسه «صَبْ الرشراش والنَّوْ غزيرة...».

تمنّيت حضور الجرمانيّ وماريا ومدام كريستال. وكنّا سنفرح أيضًا بالسيّد بودان. وكان بإمكان الحاكم العسكريّ فرانسوا بالاج مشاركتُنا فرحتنا هو الآخر. كنت فقط سأشترط عليه شرطًا واحدًا، سأقول له صراحةً وبصوت عالٍ: «يجب أن تعتذر علنًا وأمام كلّ الناس، ثمّ امكُثْ بيننا ما شئت». انتظرنا منه أن يعتذر، لكنّه إلى اليوم لم يفعل. إن كان لا يحترمنا نحن الأهالي ليعتذر منّا، فإنّ

بإمكانه على الأقلّ أن يعتذر لحمار عمّي عبد الله، أو يعتذر لأشجار صنوبر جبل العنز البريئة التي دمّرتها طلقات المدفع العشوائيّة أو للأرض التي أكل منها وشرب.

أمّا العمدة منصور فكان يحاول إظهار فرحه، لكنّه من الدّاخل كان ينتظر مسكونًا بهاجس تحطّم أسطورته المزعومة، أسطورة «الرّجل الذي قتل النّازيّ الأخير». لم يعتقد أنّ كونبا سيعود يومًا!

ثمّ سافر كونبا وزهرة إلى مصر شهرين كاملين. ولمّا عادا بدأت أمطار الخريف تهطل بغزارةٍ. فاض الوادي الكبير وفصل بيننا وبين المدينة، فلجأنا إلى الجسر الفرنسيّ السّفليّ. فرنسا غادرت، لكنّها تركت لنا جسرًا وطريقًا وسكّة حديدٍ وكثيرًا من الألغام والمصائب. أمّا المصيبة الأكبر فكانت ملكيّةَ الأرض وتقسيمها.

في ذلك الموسم الذي عاد فيه كونبا، وبعد أن نزلت أمطار الخريف، لم نحرث الأرض ككلّ موسمٍ. بقيت تلك الأرض بورًا لأنّ البنادق رُفِعت من جديدٍ، ليس في وجه الاستعمار، بل صارت العروش تتصارع من أجل تقسيم الأرض، حتّى سالت دماء الإخوة الأعداء في السّهل الغربيّ من هنشير جبل بوكحيل وفي الفيرمه وفي مناطق أخرى كثيرة.

وعندما عاد كونبا من رحلة شَهْرَي العسل، كانت المدينة قد صارت في قبضة الحرس الوطنيّ. وكان على الحكومة الفتيّة أن تتدخّل بقوّةٍ لسدّ الفراغ كما يجب. ثمّ بدأ تركيز النّظام الجديد: «السّيستام»!

(13)

كانوا ثلاثة... ورابعهم السّيستام!

كانوا ثلاثة، يلبسون بذلاتٍ جميلةً ومرتّبةً، أحذيتُهم تلمع سوادًا فوق الأرض، وفي أحزمتهم البنّية اللّون عُلِّقَتْ هراواتٌ على اليمين ومسدّساتٌ على اليسار. كانوا يسيرون وأيديهم خلفَ ظهورهم وينظرون باستقامة إلى الأمام. ومن حينٍ إلى آخر يتلفّتون يمينًا ويسارًا ثمّ يتهامسون. يسيرون بخطواتٍ ثابتةٍ ومتناسقةٍ... يسيرون بجدّيّةٍ ظاهرةٍ تبعث الرّهبة والرّيبة في كلّ مَن مرّ بجوارهم أو حتّى مَن يشاهدهم من بعيدٍ. أمّا أولئك السذّج الذين لا عملَ لهم غير الجلوس في محطّة القطار وعلى قارعة الطّرقات وتحت أشجار اليوكاليبتوس على امتداد شارع المحطّة، فكانوا يهرولون ويختبئون... بالضّبط كما كانوا يفعلون عند مرور الجنود الفرنسيين. لقد تربّوا على عادة الخوف والتخفّي، وصار الأمر طبعًا فيهم. ومهما فعلتَ فإنّك لن تقدر على إقناع هؤلاء السذّج بأنّهم صاروا أحرارًا.

لا أعرف كم مضى من الوقت حتّى صار ثلاثة رجالٍ بزيّ الحرس الوطنيّ يسيرون وسط المدينة. قالوا إنّهم جاؤوا للحفاظ على الأمن وفرض النظام. وأنا في الحقيقة أشفق عليهم كثيرًا من هول تلك المهمّة.

«مركز الحرس الوطنيّ»، هكذا كُتبَ باللّون الأخضر وبخطٍّ عربيٍّ غليظٍ، وتحته بخطٍّ فرنسيٍّ صغيرٍ عبارة «لا غارد ناسيونال». عُلِّقَتْ تلك اللّافتةُ

على واجهة المكتب الذي كان يستعمله الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج.

في كلّ يوم يقومون بتلك الجولة الصّباحيّة وسط المدينة، بالضّبط على السّاعة الثامنة والنصف صباحًا كما تشير تلك الساعة النحاسيّة ذات العقارب الرومانيّة، مازالت تعمل بثباتٍ وعلى النّسق نفسه. كان «سي السنوسي» رئيس مركز الحرس الوطنيّ يتوسّط العونين: «الكافي» على اليمين، و«بو الشنب» على اليسار. «سي السنوسي» رئيس المركز يضع غالبًا نظّارتين شمسيّتين ولا يتكلّم كثيرًا، رجلٌ طويلٌ وعريضٌ، تميل بشرته إلى البياض، أصله من جهة الوطن القبلي. أمّا «بو الشنب»، فالحقّ أنّي لا أعرف اسمَه الحقيقيّ. له شنبٌ طويلٌ وغليظٌ، وعندما يتكلّم، يأتي صوته أجشّ. ويمكنك أن ترى بوضوحٍ فقدانَه بعضَ أسنانه. وعندما يضحك، غالبًا ما تنتابه نوبات سعالٍ. يسعل ثمّ يسعل، وحينما يهدأ يتلفّت جانبًا ويبصق قرفًا لا هو بالأصفر ولا بالأسود. ثمّ يعود ليمسك سيجارتَه التي لا تفارق شفتَيه إلّا في ما ندر. أمّا «سي الكافي»، فلا أعرف أكان هذا اسمه أم لقبه أم اسم المدينة التي انحدر منها. ويبدو أنّه رجلٌ هادئٌ وطيّبٌ ودائم الابتسامة.

في صباح كلّ يوم يقوم الثّلاثة بتلك الجولة في المدينة. تبدأ الجولة من شارع الاستقلال، ثمّ يميلون يسارًا عبر شارع الجمهوريّة، وبعد ذلك ينعطفون يسارًا عبر شارع 3 أوت، ومرّةً أخرى يميلون يسارًا عبر شارع مرسيليا الذي ينتهي في

شارع الاستقلال. وعندئذٍ يتّجهون إلى المخفر.

شارع الاستقلال هو الاسم الجديد لشارع المحطّة. كلّ شيء تقريبًا تغيّر من المحطّة إلى الاستقلال، كمقهى شعبان وكلّ المحلّات الأخرى، حتّى عمّار الذي بَتَرَ ذراع ابنه سمّى مجزرته «مجزرة الاستقلال».

سي السنوسي سكن الشقّة نفسها التي كانت تسكنها ماريا وسيموني. وقد أجّرها من سي الطيّب. فيما بعد صارا صديقين حميمين، أقصد سي السنوسي رئيس المركز وسي الطيّب المالك الجديد. وكانا غالبًا ما يجلسان مساءً في حانة الصّنوبر، الحانة نفسها التي كانت ملك سيباستيان. وقد اشتراها سي الطيّب هي أيضًا. يوجد بعض الأعوان الآخرين لكنّنا لا نراهم إلّا نادرًا، أظنّهم يأتون فقط عند الطّلب من المدن القريبة. أمّا العمدة منصور فقد دعّم منصبَه وصار الدّليل الأوّل والمخبر الرّئيسيّ لرجال الحرس الوطني.

جزء من الثّكنة الفرنسيّة القديمة ضُمَّ إلى مقرّ ديوان الحبوب، وفُصِلَ الجزء الشماليّ بسورٍ عالٍ وجعلوا منه مركزًا للحجز المؤقّت، أقصد حجز المواطنين الموقوفين على ذمّة جرائم أو مخالفاتٍ سالبةٍ للحرّيّة. في البداية، كان مجرّدَ مكانٍ يُجْمَعُ فيه الموقوفون حتّى يُرَحَّلوا إلى الكاف أو إلى العاصمة لمحاكمتهم. في العادة يُرَحَّل هؤلاء بالقطار في عربة المساجين أو بعربة الأمن التي تأتي عادةً من الكاف وتمرّ إلى العاصمة، تقريبًا كما كانت فرنسا تفعل بالضّبط.

وبعد مدّة تمّ توسعة ذلك الجزء من الثّكنة

العسكريّة الفرنسيّة وتهيئته ليصبح سجنًا مدنيًّا رئيسيًّا كبقيّة السّجون الكبرى في البلاد، إلّا أنّ ما ميّز سجنَ قريتِنا هو أنّه صار أشبه ما يكون بالمنفى، نزلاؤه عادةً ما يكونون من المحكومين بالمؤبّد وأولئك الذين لا أملَ في خروجهم ولاسيّما من المعارضين الجُدُد للسّلطة الجديدة.

في الحقيقة، بعد رحيل فرنسا غير المأسوف عليه، فقدت قريتُنا مكانتَها بوصفها نقطةَ ربطٍ لوجستيٍّ مهمّةً بين تونس والجزائر. فعادت تتبرّز على نفسها كلّ مساء كدجاجة عمياء، وتنام باكرًا. وبعد بناء السّجن المدنيّ، صار يأتينا زوّار المساجين من كلّ مكانٍ وأضفوا على القرية حركةً يوميّة.

إذَن، كانوا ثلاثةً، سي السنوسي والكافي وبوالشنب... ثلاثة، لكنّهم كانوا كثلاثين. كانوا صارمين ويقظين وأحيانًا عنيفين. ويبدو أنّ إظهار قوّتهم وبطشهم بكلّ الطرق المتاحة كان من أولويّاتهم ومن أوكد مهامّهم. وقد نجحوا في ذلك فعلًا، حتّى صرنا نقسم بالثّلاثيّ المقدّس: «ربّي والنّبي والحرس الوطني»!

نجحوا في ذلك كما ينبغي رغم أنّني كنت مشفقًا عليهم من مهمّة سدّ الفراغ، ولاسيّما إزاء اللّغم الكبير الذي تركه الفرنسيّون، اللّغم الذي تفجّر قبل موعده. لا أقصد هنا الألغام المزروعة في باطن الأرض، كذاك اللّغم الذي قتل عمّي عبد الله وحماره، بل أقصد لغمَ الأرض ذاتها، إذ كان لا بدّ من إعادة تقسيم ملكيّة الهناشير. فقد كانت الدواوير ما تزال مسلّحةً والرصاص الحيّ فوق كلّ

كتفٍ.

كنت مشفقًا عليهم حتّى حدثت المصيبة الكبرى بين أولاد العبّاسي وأولاد سليط بسبب هنشير جبل بوكحيل. في ذلك اليوم رُفِعَت العصيّ والخناجر والبنادق. وتعطّل موسم حرث الهنشير، ونصب المتخاصمون خيامًا على طوله لمنع إمكانيّة استغلاله. كانت الدّماء تسيل بين الجانبين، حتّى إنّ سي السنوسي طلب دعمًا من الكاف. فجاء فصيلٌ من الجيش وسيطر على الأرض.

بعد موسمٍ قُسّم الهنشير الذي كان يُسيطر عليه السيّد بودان. حدث ذلك بالاستعانة بخبراء جاؤوا بِدَوْرِهم من الكاف. تقاسمت الدواوير تقريبًا ثلثي الهنشير، وتحصّل سي الطيّب على الثّلث الباقي. أمّا الفيرمه فصارت من أملاك الدولة، وقد حوّلتها لاحقًا إلى مركزٍ للتّكوين الفلاحيّ، وهي كما تعلم مازالت إلى اليوم كذلك.

أمّا هنشير عين عاشور الذي كان يسيطر عليه المعمّر سيباستيان، فتحصّل شعبان على جزءٍ كبيرٍ منه. بعضُهم يقول اشتراه والبعض الآخر يقول اكتراه من الدّولة. في الحقيقة، ليس لدينا حتّى يومِنا هذا معلومةٌ واضحةٌ عن طبيعة حيازة شعبان ذلك الجزءَ من الهنشير. وأمّا الأراضي الباقية فَقُسّمَتْ على الدواوير من أولاد الرويسي حتّى أولاد الملّيتي.

وكلّ دوّارٍ قسّمَ بِدَوْرِه الأراضيَ على العائلات. فتشتّت ملكيّة الأرض وتقزّمت المزارع وقلّ إنتاجُها، وبقيت الكثير من تلك الأراضي بورًا، وبالخصوص أراضي المهاجرين. لكنّ الأمر الواضح

والثّابت لدينا هو أنّ شعبان عوّض سيباستيان، وسي الطيّب عوّض المعمّر بودان، وصارا يتحكّمان معًا في جزءٍ كبيرٍ من أراضي قريتنا. حتّى إنّ ديوان الحبوب صار تحت سيطرتهما. وقد تخلّلت ذلك التّقسيم مناوشاتٌ ومظاهراتٌ أخمدَها رجال الأمن بسرعةٍ وأوقفوا بعض النّاشطين والمنادين بالثّورة على نظام الملكيّة الجديد. وأغلبهم حُوكِمُوا في العاصمة وسُجِنُوا هناك إلى آجال غير معلومة.

قال لهم العون بوالشنب بوضوحٍ: «نحن اليوم نريد الأمنَ لا الأرض». ثمّ لعن المتمرّدين منهم وصَفَعَ بعضَهم على أعناقهم وزادهم ركلًا على مؤخّراتهم. وهدّدهم بالمبيت في الثّكنة العسكريّة الفرنسيّة، وهو يقصد السّجن المدنيّ الجديد. وهكذا صار العون بوالشنب نسخةً مشوّهة من الضّابط السّوفاج، مجرّدَ بضاعةٍ فرنسيّةٍ مقلّدةٍ وليست «أوريجينال». وكانت النّتيجة أن ردّد أغلبُ النّاس تقريبًا: «نحن نريد الأمنَ لا الأرض». ثمّ عاشوا يمشون تحت الحائط ويحصون أنفاسهم.

أتظنّني هنا ألوم شعبان الذي تحصّل على جزءٍ كبيرٍ من هنشير عين عاشور؟! لا إطلاقًا. ذلك الرّجل الذي يصمت كثيرًا ويعمل أكثر، كان على درجةٍ عاليةٍ من الذّكاء والفطنة عكس ما يوحي به مظهره المقرف ذاك. عندما تتأمّل مظهره الخارجيّ يراودك إحساسٌ بأنّك في حضرة أفقر رجال المدينة، ولكنّه كان الأغنى والأذكى في تلك الرّبوع.

أخبرتك سابقًا، وها أنا أعيد ذكرَ ذلك الآن، لأؤكّد أنّ مهمّتنا الأولى التي بُعِثْنا من أجلها، رجالًا ونساءً، هي خدمة هذه الأرض الطيّبة المباركة... فبينما ينام السذّج في محطّة القطار، كان شعبان يضرب في الأرض ليلًا ونهارًا باحثًا عن سرّ امتلاكها واستثمارها. ضرب في الظّلمات والنّاسُ نيامٌ، فكان من نصيبه ذلك الكنز الذي غيّر حياته... شعبان صاحب الأرض وصاحب المقهى ومحلّاتٍ أخرى عديدةٍ في مدينتنا وفي مدينة سوق الثلاثاء... شعبان هو أيضًا أوّلُ من اشترى ذلك الجرّار الأحمر العظيم من نوع «ستاير» أو الدّيناصور كما كان أولئك السذّج يسمّونه. كانوا عندما يفرغون من مشاهدة القطار وهو يمرّ، يروحون ويحومون حول الجرّار والمجرورة وهم يُقسِمون أنّه ديناصور. أمّا تلك الآلة الحاصدة الخضراء العظيمة، وهي من نوع «جونديرِ»، فكانت تدوس الأرض كدبّابةٍ ألمانيّةٍ. تلك الماشينة الجبّارة غيّرت موسمَ الحصاد الذي كان يستمرّ حتّى نهاية الصّيف تقريبًا.

كنّا نحمل المناجل والمحشّات ونخوض في السنابل كأنّنا في بحرٍ نصارع أمواجَه العاتية. ندرسها تحت حوافر الحمير، ثمّ نصفّيها، ثمّ نخزّنها في المطامير... وكان ذلك عبارة عن طقسٍ شاقٍّ وطويلٍ. وفجأةً جاءت تلك الحاصدةُ العظيمة ملتهمةً السّنابل، فجعلت موسمَ الحصاد لا يتجاوز أيّامًا معدوداتٍ.

تعلّم شعبان من الفرنسيّين كيف يصير فلّاحًا ناجحًا، لكنّه لم يكن قطُّ من الإقطاعيّين كما نعته

أولئك الجالسون في مقهاه أو أولئك الذين ثاروا ضدّ قانون التقسيم، فسلّط عليهم سي السنوسي العونَ بوالشنب، فدمّرهم إلى الأبد.

عرف شعبان كيف يخدم الأرض، لكنّه عرف أيضًا كيف يخدم الدّولة. كان يخدمها من دون أن يدخل معترك السياسة، فحصل له كلّ ذلك النّجاح الباهر. أنا في الحقيقة أفتخر به لأنّه ابن جبلنا، أمّا أولئك الذين بحثوا عن تشويه صورته وقالوا إنّه يتردّد على ماخور الكاف فذلك غباءٌ مقيتٌ منهم. فلندع شعبان يمارس حرثَ الأرض وحرثَ النّساء. إنّ الرّجل يشيخ كما تشيح الأرض... أمّا الآن فدعني أَعُدْ إلى سي الطيّب.

ذكرتُ لك قبل قليلٍ أنّ شعبان عوّض سيباستيان تقريبًا، وأنّ سي الطيّب عوّض المعمّر بودان لمّا امتلك جزءًا كبيرًا من هنشير جبل بوكحيل. وكما أعطينا شعبان حقَّه، فلا بدّ أن نعطي سي الطيّب حقَّه. كان ذلك الرّجل الوسيم صاحب الابتسامة المشرقة والرّائحة الطيّبة من التجّار المتجوّلين، امتهن بيع القماش والحرير في أغلب الأحيان. كان يأتينا من جهة السّاحل، من منطقةٍ ريفيّةٍ في بادية سوسة، وينحدر من عرشٍ كبيرٍ هناك. أنشأ علاقاتٍ كبيرةً مع قريتنا، ولمّا مات سيموني وغادرت ماريا، اشترى محلّ القماش والبيت واستقرّ هناك. ثمّ جمعته تلك العلاقة الوطيدة بالسيّد بودان، إذ كان ينوب المعمّر كلّما غادر إلى فرنسا، فحمل أمانةَ الفيرمه والهنشير والعمّال كما يجب. وكان له من الذّكاء ما جعله محبوبًا من الأهالي ومن الفرنسيّين في الوقت نفسه.

عندما رأيته أوّل مرّةٍ يدخل قريتَنا قادمًا من السّاحل، أقسمت أنّه من أبناء الفاتحين الأندلسيّين، من سلالة أمراء عريقةٍ، وعرفتُ أنّ هذا الرّجل سيكون له شأنٌ كبيرٌ بيننا... فكان له ذلك. ولمّا تعرّفت إلى سي الطيّب عن قربٍ وجدتُني مُصيبًا في تخميني. كان يفتخر بأصله الأندلسيّ، وحدّثني كيف لجأ أجدادُه قديمًا، بعد سقوط الأندلس، إلى المغرب ثمّ الجزائر ومنها انتقلوا إلى تونس. أبحروا في قوارب صغيرةٍ، ولمّا بلغوا ميناء سوسة حطّوا الرحال هناك وصعدوا إلى البادية واشتغلوا بالفلاحة والتّجارة.

لمّا وقف فوق قطعة الأرض، تلك التي تقع بين مدينتنا والفيرمة، داسَ برجلَيه، فعلم أنّها أرضٌ رخوةٌ وطريّةٌ يكاد ماؤها يفور. ثمّ رفع رأسَه إلى السّماء وقال محدّثًا ربّه: «اللّهم اجعل هذا المكان مباركًا وآمنًا». قال ذلك كالنبيّ إبراهيم. ثمّ بنا ذلك البيت العتيق، بناه كقلعةٍ أندلسيّةٍ عظيمة. كانت أحجارُه من صوّانٍ ضخمةً لامعةً وجميلة. قبل دخول الحوش الكبير تعترضك تلك السّقيفة العريضة التي جعلها مربطًا للخيول والحمير. ثمّ قُسّمت البيوت بطريقةٍ أندلسيّةٍ بحتة تتوسّطها البئر. أمّا شجرة التّوت الكبيرة فلم أرَ مثلها، تقع بجانب البئر تمامًا فتجعل من المكان جنّةً صغيرةً... ماءٌ وظلالٌ ونسيمٌ باردٌ. لها غصنان كبيران، يلد أحدهما التّوت الأبيض ويلد الآخر التّوت الأسود.

وعندما سألته عن ذلك وأنا آكل توتًا لأوّل مرّة، قال لي: «ذلك سرّنا نحن أبناء الأندلس».

وخلف البيت العتيق، زرع ألف شجرة زيتونٍ

تخلّلتها أشجار التّين والمشمش واللّوز.

أنا أذكر سي الطيّب هنا لأنّه يستحقّ الذّكر وأكثر. إنّه سي الطيّب ذو الوجه الجميل، سارق قلوب أهل المدينة والفرنسيّين.

لمّا استقرّ في منطقتنا، جاء بعائلته الكبيرة من السّاحل، وتوطّدت روابطنا بتلك العائلة الكريمة عندما زوّجنا أباك إحدى بناتهم. أمّك كانت منهم، وصار أخوالك أنتَ من السّاحل، أخوالك الذين ضربوا في البحر عرضه وطوله حتّى سكنَ قلوبَهم وتكاد تراه في عيونهم الواسعة الجميلة. فسَكَنَتْكَ أنتَ أيضًا جينة البحر. كنت تميل إليهم كثيرًا، وكنتُ أعلم أنّ صدرك يضيق بجبل العنز. عندما نصعد القمّة، كنت تسألني: «جدّي، في أيّ اتّجاه يوجد البحر؟» فأمدّ يدي نحو الشّرق، وأقول: «من هناك». وكنت تنظر إلى ذلك الاتّجاه بحدّة عَيْنَيْ نسرٍ. ولمّا تفتّح جناحاك، طرتَ بعيدًا وصرتَ لا تزورنا إلّا نادرًا. أنت أيضًا ابن البحر، ابن الرّجال والنساء الذين خرجوا من قريةٍ صغيرةٍ في ضواحي «مالاغا» وحطّوا رحالهم في بادية سوسة. أنت ابن البحر والجبل معًا، لذلك أراك مختلفًا.

لقد تغيّرتَ كثيرًا، بل تغيّرنا جميعًا وتغيّر كلّ شيء، وكنتُ أنا الشّاهد الذي راقب المدينة والنّاس عن كثبٍ... رأيت كلّ شيءٍ يتغيّر بسرعةٍ والفوضى تعمّ، حتّى خُيّل إليّ أنّنا دخلنا مرحلة العبث.

بعد مدّةٍ، أُزِيحَ الشّيخ حسين من مهامّه في المسجد إمامًا وخطيبًا ومدرّسًا بتحريضٍ من العمدة منصور،، وعُيِّن مكانَه «اليوسفي» العرّاف،

ذلك الرّجل الذي يقال عنه إنّه يزيل السّحر ويكلّم الجان. وقد عُرف اليوسفي بحادثةٍ غريبةٍ، إذ اختلى ذات يوم بفتاةٍ جاءته تطلبُ الشّفاء، فحملت منه. ولمّا هاجمه أهلُها، أقسم لهم أنّ الجان هو مَن فعل بها ذلك، فصدّقوه!

أُغْلِقَتْ أيضًا المدرستان العربيّة والفرنسيّة، وفُتِحَت المدرسة النظاميّة الوحيدة «المدرسة الابتدائيّة 20 مارس». أمّا من يُنْهُونَ تعليمَهم الابتدائيّ فيها فكان عليهم التّنقل إلى الكاف أو باجة لمواصلة تعليمهم الثّانويّ.

كنت أشاهد كيف كانت منطقتنا تتغيّر، تلك المنطقة أو المدينة، أو القرية. في الحقيقة لا هي بمدينةٍ ولا بقريةٍ، والأقرب أنّها لا تشبه شيئًا. كنت أراقب كلّ التفاصيل، حتّى إنّني طفقت أتساءل مع الأيّام: «هل عادت منطقتنا تتبرّز على نفسها وتنام في مؤخّرة الكرة الأرضيّة؟!».

كنت أطرح ذلك السؤالَ، حتّى عاد الكونبطا الذي كان حريصًا على تجنّب حشر نفسه في أمور عديدةٍ. عاد ليخوض صراعًا مباشرًا مع الحكومة بعدما صارت تترصّده وتستفزّه... الحكومة التي تتصوّر أنّ كونبا من معارضيها، والحقّ أنّها أخطأت التقدير.

(14)

يوم سلّمتُ المفاتيح...

كان يوم شؤمٍ ونحسٍ لمّا سلّمتُ مفاتيح المكتبة مُكْرَهًا. في الحقيقة أنا عاجزٌ تمامًا عن وصف ذلك الشّعور بالخسارة والعجز معًا. قالت لي السيّدة كريستال: «اعتن بالمكتبة والحديقة كما تعتني بأطفالك!»، ففعلت أكثر من ذلك. كنت إذا فرغتُ من قضاء شؤوني الخاصّة أنزل عصرًا من دوّار أولاد بالحاج محمّد إلى المدينة، فأنظّف الحديقة وأسقي الأزهارَ وأزيح الطّحالب ثمّ أفتح باب المكتبة ونوافذَها وأشرع في ترصيف الكتب ونفض الغبار عنها واستقبال الزوّار القلائل. ثمّ أدخلت العمل بنظام الاشتراكات بمبالغ زهيدةٍ جدًّا وكوّنت صندوقًا للتبرّعات. كنت أجوب مجالسَ الفلّاحين عارضًا عليهم فكرةَ توسعة المكتبة ولاسيّما بعد أن فتحت المدرسة الابتدائيّة أبوابَها فازدادت أعداد المشتركين. وبنيتُ قسمًا خاصًّا بالأطفال. لقد حاولت، بما أوتيت من معرفة، تطويرَ تلك الخبرة التي اكتسبتها من العمل مع مدام كريستال حتّى تواكب نظامَنا الجديدَ ولاسيّما بعد انطلاق موجة التّعريب.

كنتُ أفعل كلَّ ذلك حتّى طرق العمدة منصور بابي ذاتَ يوم، وأطلق مباشرةً كلمتَه الخبيثة كضراطٍ مقرفٍ في الهواء: «الحكومة تحتاج إلى هذا الفضاء لفتح دار الحزب، وقد فكّرنا في تعويضك مكانًا آخر». لا أعرف كيف فقدتُ أعصابي وصبري حينها. دفعتُه خارجًا، وأنا أصيح في وجهه: «اخرج أيّها الخنزير، افتحوا دار حزبكم في المقبرة

أو في السجن أو في الجحيم، أمّا هنا فلا مكانَ لكم عندي».

حدّثت الكونبطا بذلك. ولمّا شاهد غضبي وحزني وقلّةَ حيلتي، توجّه مباشرةً إلى بيت العمدة. وهناك قال له بكلّ وضوحٍ: «إن أخذت المكتبة، سأفقأ عينيك هاتين». ثمّ دفعه بقوّةٍ حتّى سقط أرضًا. نظر إليه باحتقارٍ وغضب، ثمّ بصق على وجهه وغادر يلعنه بكلامه الفاحش.

في صباح اليوم التّالي، توجّه العمدة منصور مباشرة إلى مكتب سي السنوسي باكيًا شاكيًا: «الكونبطا يهدّدني بالقتل إذا فتحنا دار الحزب». وزاد على ذلك من الكذب والبُهتان ما جعل السنوسي يقسم أنّه لن يتأخّر في تأديب الكونبطا وكلّ من حاول معارضة هذا القرار أو حتّى مجرّد التّفكير في ذلك.

كنت أنا وكونبا جالسَيَن في مقهى شعبان، نترشّف قهوة الفيلتر الصّباحيّة. وفجأةً وقف أمامنا العون بو الشنب طالبًا منّا مرافقتَه إلى المخفر، وذلك بأمرٍ من رئيس المركز. فأخذت كونبا من يده طالبًا منه عدم التهوّر. وسرنا وراءه.

لمّا وصلنا إلى مركز الحرس الوطنيّ، أمرنا سي السنوسي بالجلوس وأغلق الباب وهو يبتسم. ثمّ أخذ في الحديث بطريقةٍ هادئةٍ: «سيمرّ علينا قريبًا وفدٌ من العاصمة، وهو في طريقه إلى الكاف لتدشين دار الحزب... رأينا أنّ حديقة المتوسّط والمكتبةَ هما المكان الأنسب لذلك. في الحقيقة، ليست لدينا أماكن أخرى لائقةٌ». ثمّ سأل: هل تعارضان ذلك؟ بقيتُ صامتًا، أمّا كونبا فأجاب: «لا،

إطلاقًا سي السنوسي، ولكن كان بالإمكان بناء المقرّ في مكانٍ آخر، أو على الأقلّ تحويل عقّارٍ آخر إلى هذه الصّبغة، أمّا المكتبة والحديقة فهما جوهرة مدينتنا وأجمل ما فيها».

عدّل سي السنوسي جلسته حتّى بدا كأنّه يريد الكشف عن ملامح صرامته: «الحكومة قرّرت ذلك، ونحن ننفّذ قراراتها، أتفهمان؟»، قالها وهو يضرب بكفّ يده اليمنى على الطاولة الخشبيّة. ثم سأل: «هل أنتما مع الحزب أم ضدّه؟». واصلتُ أنا صمتي، أمّا كونبا فأجاب: «أنا لستُ مع أحد، ولستُ ضدّ أحد، أنا مع الوطن». صمتَ سي السنوسي ولم يقل شيئًا، وكان صمتُه مقصودًا، فهو يعامل كونبا بحذرٍ لأنّه يعرف جيّدًا وزنَه وسط الأهالي. وكان يحاول تجنّب مواجهته إلى أجلٍ مسمّى.

ثمّ أمرني بتسليم المفاتيح. سحبت تلك المفاتيحَ من جيبي حتّى شعرت أنّني أتمزّق كروحٍ تغادر جسدَها. وضعتها على مكتبه، الطّاولة الخشبيّة العريضة نفسها التي كان يستعملها السيّد فرانسوا بالاج، والكرسيّ نفسه، والإضاءة نفسها، وكذا السّتائر! وكأنّني بهم غيّروا الأشخاصَ والأعلام فقط. وحتّى أكون أكثر صدقًا، أقول إنّ السيّد فرنسوا بالاج كان يضع باقةً من الزّهور فوق مكتبه ويعلّق على الجدران بعضَ اللّوحات، أمّا سي السنوسي فلم يكن يفعل ذلك.

بعد أن أسلمتُه مفاتيحَ مكتبتي، نظر سي السنوسي إلى كونبا قائلًا: «شكرًا على تعاونك معنا، نحن نقدّر لك ذلك». أمّا أنا فلم يشكرني رغم أنّي أسلمته المفاتيحَ بتلك الطريقة المطيعة. ثمّ

أضاف: «الوفد قادمٌ من العاصمة قريبًا لتأسيس دار الحزب، ومن مصلحتنا جميعًا أن نحافظ على أمن مدينتنا».

خرج كونبا يلعن ويسبّ ويقسم أنّ المكتبة لن تصير دارًا للحزب أبدًا، وكان يقول: «عليهم بإسطبل البهائم». اعترضه العون بوالشنب ونظر في عينَيه قائلًا: «سنحرص على أن تكون تحت أعيننا». قالها وهو يمسك بسيجارته بين أسنانه الصّفراء، ثمّ سعل وبزق، وأعادها بين أسنانه. فرفع كونبا سبّابته وقرّبها من وجه بو الشنب قائلًا: «أمّا أنتَ فيمكنكَ أن تختار بين أن أضعك في عيني اليسرى أو اليمنى، اليمنى هي الجنّة واليسرى هي الجحيم».

اعتذرتُ من كونبا، وصعدت إلى هضبة الإكليل. جلست هناك كطائرٍ أخرس، مكسور الجناحَيَن.

قلت لك إنّني عاجز حقًّا عن وصف ذلك اليوم الذي تلقّيت فيه أفظع طعنةٍ في حياتي. ولكي تفهم ما أحسستُ به في تلك اللّحظة، يمكنك أن تتخيّل المشهد الّذي سلّم فيه الأمير محمّد الصغير مفاتيحَ غرناطة، ويمكنك أن تتخيّل كيف صعد الهضبةَ المطلّةَ على قصر الحمراء وهو يغادر إلى المغرب. أطلّ، ثمّ زَفَرَ زَفْرَتَهُ الأخيرة. قيل: في تلك اللحظة انتابته هستيريا من البكاء والنّحيب، ولم يخرج من موكب الحزن ذاك حتّى صفعته أمّه من الخلف قائلةً: «ابْكِ كالنّساء على مُلْكٍ لم تحافظ عليه كالرجال!». فكانت تلك «زفرة العربيّ الأخيرة». بعدها انتهى كلّ شيءٍ، وبدأت عصور الظّلام.

وأنا اليوم مثل ذلك الأمير تمامًا، فضّلتُ البكاءَ على هضبة الإكليل وأنا أشاهد المدينة من أعلى، المدينة التي دخلت هي أيضًا عصور الظلام. ولمّا اشتدّ غضبي، تمنّيتُ أن تلبسني روح نيرون الرومانيّ. فأحرق المدينة، ثمّ آخذ في العزف على أنقاضها. ولمّا كان ذلك مستحيلًا، بدأت أدعو بالشرّ، دعوت عليها بالطّوفان وبالجراد وبالوباء... حتّى تذكّرت كلام الشّيخ مصطفى الدرويش الذي قال لي إنّ فرنسا عقابٌ من الله لأنّ الداء كامنٌ فينا، في أفكارنا وقلوبنا وأرواحنا. يومَها، أقسمتُ من فوق هضبة الإكليل أنّه كان على حقٍّ. وقلتها علنًا: «فرنسا عقاب من الله والداء كامنٌ فينا».

سقوط الأندلس كان عقابًا من الله أيضًا، لكنّي لم أعد حزينًا على سقوطها مادام الإسبان يعتنون بها أفضل منّا.

بعد أسبوعٍ تقريبًا، ولمّا همّوا بدخول المكتبة لتجهيزها كما يجب للوفد القادم من العاصمة، وقف كونبا أمام باب حديقة المتوسّط مانعًا إيّاهم من الدّخول وهو يقول: «مَن دخل فقد ظلم نفسه». فتدخّل سي السنوسي فأبى، ثمّ تدخّل سي الطيّب، ثمّ شعبان، حتّى جاء الشّيخ حسين. أخذه من ذراعه قائلًا: «أنت ابن الدوّار والأرض، أمّا هذه المدينة فبناها الفرنسيّون، والذين خَلَفُوهُمْ في العاصمة قادمون لاستلامها ونحن لا طاقة لنا على هؤلاء». فانصرفَ كونبا غاضبًا نحو الجبل.

ثمّ بدأ التّحضير لقدوم الموكب. كتبوا اللّافتات ورفعوا الأعلامَ ودهنوا الجدرانَ وكنسوا الطّرقاتِ من روث البهائم. حتّى المتسوّلون حبسوهم في

السّجن المدنيّ إلى حين مغادرة الوفد. أمّا أولئك السذّج فقد أخذوا في التّصفيق والرّقص مبكّرًا. لقّنوهم جيّدًا ما يجب عليهم قولُه وفعلُه، فكانوا خدومين، مطيعين.. كما ينبغي.

تلك إذَن كانت أوّل مكتبةٍ وآخر مكتبةٍ في مدينتنا. دفنها الجراد الجديد إلى الأبد، وصارت ذكرى أو خرافةً كحال مقبرة الرّوم. أمّا الكتب الكثيرة فرموا بها بادئ الأمر في مخزنٍ للقمح، ثمّ أسلموها لاحقًا إلى الإدارة الفرعيّة بالكاف، تلك التي تشرف على المكتبات المتجوّلة، الحافلةُ الصغيرةُ التي صارت تزورنا كلّ يوم أحدٍ، يوم السّوق الأسبوعيّة.

المدينةُ تحتاج إلى الأمن الآن، بالضبط كما قال سي السنوسي. الأمن والحزب أوّلًا، ثمّ القمح... ثمّ الكتب!

وحتّى أعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، كان الصّحبي أيضًا يبيع الكتب. كانت له نصبةٌ يوم السّوق الأسبوعيّة، يبيع فيها السّواك واللّوبان والحنّاء والبخور... وكذلك الكتب، طاولةٌ صغيرةٌ عليها كومةٌ من عناوين مختلفة: «عذاب القبر»، «كلاليب جهنّم»، «طرد الجان وهمز الشّيطان»، «ردّدها سبعين مرّةً لتصبح غنيًّا»... وعناوين أخرى غريبةٌ وعجيبةٌ. أمّا كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر»، فهو الوحيد الذي يباع تحت الطاولة. وحين فُتِحَ ماخور الكاف، لم تعد للشّباب رغبةٌ في القراءة، بل صارت لهم رغبةٌ جامحةٌ في التطبيق.

نحن كالثُّوّار نبدأ بالتّنظير وننتهي إلى التّطبيق، حسب تجربتي الخاصّة يبقى التّنظير دائمًا أجملَ

ما في الثّورة. الأفكار تصير مقرفةً عندما نحاول تطبيقها، كتلك الورود التي نقطفها من الحديقة، ثمّ نضعها في محبسٍ به ماءٌ. بعد مدّةٍ تذبل وتفوح منها رائحةٌ كريهةٌ ويحوم حولها البعوض. السياسةُ تطبيقٌ متعفّنٌ لفكرةٍ جميلةٍ... والجنس كذلك! أنا في الحقيقة أفضّل قراءة «الروض العاطر في نزهة الخاطر» على الذّهاب إلى ماخور الكاف.

الإنسان أيضًا فكرةٌ... فكرةٌ جميلةٌ لحيوان.

صار ماخور الكاف ملجأً آمنًا لرجال قريتنا، ولاسيّما بعد غَلْقِ حانة الصّنوبر، أقصد حانة سيباستيان القديمة. لقد جاء الأمر بغلقها من العاصمة، بعد أن جدّت حادثةُ الموت الشنيعةُ تلك. شخص يسمّونه «الرّوح»، والحقّ أنّي لا أعرف اسمَه الحقيقيّ، لكنّه كان يتردّد كلّ مساءٍ على الحانة. وفي إحدى الأمسيات نشب خلافٌ بينه وبين شخصٍ يلقّبونه بالإمبراطور، لا أعرف اسمَه الحقيقيّ هو الآخر، لكنّهما كانا يتنافسان على زعامة الحانة. لمّا ثمل «الرّوح»، طعنَ «الإمبراطور» وجرّه إلى سكّة الحديد. وعندما تدخّل العون بوالشنب كانت روح الإمبراطور قد فارقت جسدها.

بعد ذلك جاء القرار بالغلق ومُنِعَ بيعُ الكحول بقريتنا وما جاورها من القرى إلى يومنا هذا. ذلك القرارُ أزعج سي الطيّب كثيرًا. أُغْلِقَت الحانة إلى الأبد رغم تدخّلات سي السنوسي الكثيرة. وبذلك أصبحت الحانة الأقرب إلى قريتنا توجد في الكاف. فصار جماعتنا يتردّدون على الكاف من أجل الحانة والماخور معًا، ويفعلون ذلك بالخصوص بعد موسم

الحصاد عندما تكون جيوبهم مملوءةً بالمال لأنّ الفقر يصيبهم في الشّتاء كالصراصير، فيجلسون حول موقد النّار يحكّون عاناتهم ويتحدّثون عن أشكال مؤخّرات النّساء.

جاءني مرّةً ذلك الأبله ولد مسعودة، نسيت اسمَ ذاك الملعون. يسمّونه «بركوس»، لأنّه باع كلّ خرفانه من أجل ماخور الكاف. جاءني مرّةً يقسم ثلاثًا أنّه رأى سي الطيّب ورئيس المركز سي السنوسي في الماخور. سألته: «وأنت ماذا تفعل هناك؟». فابتسم ابتسامةً متعفّنةً بأسنانه الصّفراء، ثمّ قال: «سأتزوّج قريبًا كما تعلم، وأريد أن أتدرّب على ليلة الدّخلة، أريد أن أنهي الأمرَ بسرعة البرق حتّى يقال عنّي فحلٌ! لن أدع صاحب البندقيّة ينتظر كثيرًا حتّى يطلق الرشّ». صمت برهةً ثمّ سألني: «هل التعلّم حرامٌ؟» أجبته: «إنّ مذهب المستمنية يجيز ذلك مادمت في طلب علم النّكاح». ابتسم بقرفٍ من جديدٍ وهو يقول: «إذَن، أنا على مذهب المستمنية، أمّا الشيخ حسين فمتشدّدٌ». ثمّ سأل بركوس متعجّبًا: «ولكن لماذا يحتاج المتزوّجون إلى الماخور؟»، وكان يقصد سي السنوسي وسي الطيب. أجبته وأنا أنصرف إلى قضاء شؤوني: «إنّهم يبحثون عن تلك الأشياء التي نسمّيها بيزارا!».

ها نحن نَدَعُ صاحبَنا الكونبطا جانبًا، ندع فرنسا والحكومة لنتحدّث عن ماخور الكاف. ولو تُركَتْ لي حكايتُنا مساحةً أكبر، لغُصتُ في تفاصيل أخرى كثيرةٍ، وإن كنتُ أعلم أنّي خالفتُ سيّدي ومعلّمي سي المقدّم. كان يلتزم بالحكاية ولا يحيد عنها

إلّا قليلًا، وتلك الأشياء الهامشيّة لا يغوص في شرحها وتفصيلها، وإذا حدث أن سألناه شرحَ بعضها، يمرّ غير عابئ قائلًا: «افهموا الأمور كما يحلو لكم».

أمّا أنا فأجد في الحقيقة متعةً حين أغوص في التفاصيل التي تبدو تافهةً. أحبّ أن أفصّل الأشياءَ تفصيلًا كما يفصّل حمده التارزي قطعَ القماش. فأنا في كلّ الأحوال حكاوتيّ للمتعة، لا أتحصّل مقابل ذلك على أجرٍ، حتّى أولئك الذين يعرفون أنّني حكواتيّ لا يتجاوز عددُهم عددَ أصحاب الكهف مع كلبهم، لذلك أجعل من هؤلاء السّفهاء حطبًا لنار حكايتي، أجعل منهم صلصالًا متعفّنًا وأشكّلُهم كيفما أشاء، أصفعهم على أقفيتهم ومؤخّراتهم كما كان الضابط السوفاج يفعل من قبل، وكما فعل العون بو الشنب من بعده. أصفعهم، لكن بطريقة ناعمةٍ، بالكلمات. ثمّ أبتسم... لأنّ ذلك يجعلني أشعر بالسّعادة. وإن حدث أن هاجمني أحدُهم متّهمًا إيّاي بتشويههم والإساءة إليهم سأقول له، وأنا أرفع كفّ يدي اليسرى: تلك مرآتكم تكشف وجوهكَم، فانظروا فيها جيّدًا.

إذَن، بدأ التّحضير للموكب الكبير القادم من العاصمة. قيل لنا إنّ هناك شخصيّاتٍ كبيرةً وأسماءً معروفةً ستزور قريتنا. وستأتي الصّحافة لكي تكتب عن تأسيس دار الحزب. كنت أشاهد كيف أزاحوا لافتة المكتبة المكتوبة باللّون الأزرق السّماويّ، اللّون المفضّل عند السيّدة كريستال. لمّا أزاحوها، رموا بها خارج سور الحديقة، ووضعوا

مكانَها لافتةً مطليّةً باللّون الأبيض كُتِبَ عليها باللّون الأحمر اسم الحزب الحاكم، وزيّنوها بذلك الشّعار المعروف.

بعد ذلك أخذوا يوزّعون بطاقات الاشتراكات الحزبيّة على المواطنين. والمقصود بتوزيعها هنا هو بيعها. فتهافت عليها النّاس تهافتَ من يشترون أسهمًا في الجنّة وصكوكَ غفرانٍ... تهافتوا عليها ليس حبًّا فيها بل خوفًا من بطش بو الشنب الذي قال لهم بصوت عالٍ: «ادفعوا فيها ما تقدرون!». ثمّة مَن دفع فيها مائة ملّيمٍ، وثمّة مَن دفع دينارًا، ودفع غيره كيسَ قمحٍ أو خروفًا أو دجاجةً. الجميع دفعوا حسب استطاعتهم، وكان الأمر عادلًا جدًّا.

في الحقيقة، وأقول هذا بيني وبينك، لأنّني لم أتجرّأ على إخبار كونبا بذلك، أنا أيضًا دفعت. اعترضني سي السنوسي رئيس المركز صدفةً في شارع الاستقلال، وكنت خارجًا من مكتب «البريد والبرق والهاتف». سألني مباشرةً: «سي الطاهر، هل اشتريت بطاقة الحزب؟»، فأجبته: «ليس بعد سي السنوسي». فقال: «زرني غدًا عند العاشرة صباحًا، ستجدها على مكتبي». نطق بجملته الأخيرة كأمرٍ نافذ المفعول، وانصرف.

في اليوم التالي، انتظرتُ حتّى أشارت تلك السّاعة النحاسيّة ذات الأرقام الرومانيّة إلى العاشرة. ثمّ طرقت باب مكتبه ودخلت. ولمّا وضعت جرّةً صغيرةً من العسل الحرّ على طاولته، تبسّم ومدّني ببطاقة الحزب وهو يقول: «سي الطاهر، أنت من جماعتنا وهذه بطاقتك». شكرتُه

كثيرًا، وقبل أن أغادر قلت له: «عندما أجمع اللوز سأحجز لك نصيبك». ثمّ رأيته يغمس إصبعه في جرّة العسل ويلعق بلسانه. لمّا قلت له «اللّوز»، ضحك عاليًا وهو يقول مازحًا، ونادرًا ما يفعل ذلك معنا: «أمّا هذه فوصفةُ المقبلين على الزواج». وكان يقصد العسلَ الجبليّ مع اللّوز. فكدت أقول له: «ولكنّك ستحتاج إلى ذلك لماخور الكاف».

اشتريتُ البطاقة وقدّمت الهدايا وأنا صاغرٌ. هؤلاء الذين دمّروا مكتبتي ورموا بكتبي في مخزن قمح، ورموا بي خارجًا كشيءٍ مقرفٍ وغير مرغوبٍ فيه، هؤلاء الذين لعنتهم فوق هضبة الإكليل ودعوت عليهم بالوباء والفناء... ها إنّي أنحني أمامهم وأناديهم بأسيادي الكرام وأقدّم لهم العسل واللّوز والتّين ومن كلّ ثمرةٍ نبتت في حقلي! خرجت وأنا ألعن ضعفي وجبني، ثمّ طمأنت نفسي كالعادة بأنّني من العقلاء. فعلتُ ذلك لأنّني لستُ الكونبطا ذا اللّسان الجارح، صاحبَ الذّراع الطّويلة، والرّقبة التي لا تنحني أبدًا. بعد توزيع الاشتراكات الحزبيّة وتنظيف المدينة وتهيئتها لاستقبال الوفد، وبعد تدريب أولئك السذّج على التّصفيق الحارّ والرقص... اختاروا بعضَ الأسماء لتكريمهم بوصفهم مناضلين، وعلى رأسهم طبعًا العمدة منصور. وكان الكونبطا واحدًا منهم.

كنّا جالسين في مقهى شعبان يومَ السّوق الأسبوعيّة، عندما تقدّم العمدة منصور نحو طاولتنا، ثمّ توجّه بالكلام إلى كونبا: «لقد قرّرت الحكومة تكريمَك، وبموجب ذلك ستتحصّل على

شهادة مناضل». ضحك كونبا عاليًا، ثمّ قال بالحرف الواحد: «شهادة النّضال امسح بها مؤخّرتك يا عمدة. أنا الّذي سيكرّم الحكومة». ضحكنا عاليًا حتّى كدنا نستلقي على ظهورنا. ثمّ أضاف كونبا: «لا أحتاج إلى ضراطكم... أتظنّون أنّي فعلتُ ذلك من أجلكم أنتم أيّها السّفهاء واللّصوص؟!». ثمّ بدأ يضرب بقدمه اليمنى على الأرضيّة حتّى ثار الغبار. «فعلتُ ذلك من أجل هذه الأرض، من أجل جبل العنز، من أجل أخي وأبي وحمار أبي». قال ذلك بغضبٍ شديدٍ حتّى احمرّت عيناه وجفّ ريقُه، ثمّ صاح في وجه النّادل طالبًا قهوة فيلتر بلا سكّرٍ وكأسَ ماءٍ.

غادر العمدة منصور المقهى مسرعًا. وعاد بعد برهةٍ وجيزةٍ وإلى جانبه العون بوالشنب الذي أخذ كونبا من ذراعه طالبًا منه مرافقتَه إلى المخفر فورًا. رفض كونبا دافعًا بوالشنب بعيدًا عنه. سعل العون، وبصق أرضًا، ثبّت سيجارته وازداد غضبُه، ثمّ قال لكونبا: «سيتمّ توقيفك مع الكلوشورات والمتسوّلين حتّى مغادرة الوفد».

قام كونبا من مكانه وغادر إلى دوّار أولاد بالحاج محمّد وهو يقول: «ربّي لا تجعلني أضرب واحدًا من هؤلاء فأقتله.. ربّي أعطني صبرًا حتّى لا أرتكب جريمة. اللّعنة على الشّيطان... اللّعنة على الحكومة... اللّعنة على دار الحزب... فليذهب الوفد القادم من العاصمة إلى الجحيم».

سمع بوالشنب كلَّ ذلك الكلام، ثمّ دوّنه وغادر إلى المخفر، وبدأت بذلك كتابة التقارير السرّيّة، تلك التي تصل إلى السّلط الجهويّة بالكاف

فتنقلها إلى السّلط المركزيّة بالعاصمة. لقد قالها سي السنوسي رئيس المركز بوضوحٍ: «الأمن والحزب أوّلًا، ثمّ القمح». هذا كلّ ما نحتاج إليه في هذه القرية. أمّا من أراد غير ذلك، فقد وضع نفسه في مواجهة النّظام.

وصل الوفد من العاصمة في يومٍ مشهودٍ. ضربت الطّبول، وزمّرت المزامير، وذُبِحَت المواشي، وصاح أولئك السذّج وصفّقوا كما درّبوهم تمامًا. صفّقوا بحرارةٍ ورقصوا وزغردت النّسوة ورُفِعَت الأعلامُ وكُتِبَت اللّافتاتُ وأُنِيرَت الفوانيسُ، ودُهِنَت الحيطانُ وغُرِسَت الأشجارُ... وَوُضِعَ المتسوّلون والمجانين في السّجن. أمّا ما كنت شاهدًا عليه بمرارةٍ فهو تَحَوُّلُ مكتبتي إلى دارٍ للحزب. كنت شاهدًا على أهل قريتني إذ باعوني بثمنٍ رخيصٍ، حتّى إنّني غنّيتُ أغنية الكونبطا: «هزّ عيونك راهم شبّوا فيّ...». ولمّا وصلت إلى «يعطو لحمك للنّسور هديّة..»، بكيت.

حملت تحت ذراعي لافتةَ المكتبة التي ألقوا بها في الشّارع. وقصدت هضبة الإكليل. وضعتها أمامي حتّى كدت أستمع إلى مدام كريستال تصيح: «ماذا فعلت موسيو لو بروبر؟! ماذا فعلت للحفاظ على المكتبة؟!»، تلك الأمانة الثمينة، ذلك الوعد الذي شهد عليه العقل والقلب. ثمّ لُمْتُ نفسي على ضعفي. ونقمت على أهل قريتي. وبدأت أسبّهم علنًا وبشاعةٍ. قلت فيهم كلّ الكلام المقرف والبشع الّذي سمعتُه في حياتي، لأنّهم أغبياء وحمقى حقًّا، يبيعوننا بلا مقابلٍ على الرّصيف وفي العلن.

انظر إلى أجسادهم المنهكة من الفراغ والجهل، هذا بلاءُ أصابهم، إنّهم يدفعون ثمنَ غدرهم. لا أتذكّر شيئًا جميلًا حَدَثَ في حياتهم... لا شيء... المصيبة أنّهم لا يعلمون أنّهم أغبياء. أتعرف ذاك المثل القائل: «التِّبنُ لا يشمّ عرقَه المتعفّن»؟ هم كذلك. هذا الوضع المقرف الذي يعيشونه يستحقّونه تمامًا، بل يليق بهم. ماذا سأقول لك أكثر؟! في الحقيقة، لا أجد لهم كلامًا وضيعًا أصفهم به. أقسم لك أنّ لغتي عاجزةٌ عن وصفهم. ومن الأفضل أن أتركهم لعماهم، سأتركهم يتمرّغون على الشّوك كالحمير. سيشعرون بقليلٍ من السّعادة وهم ينزفون قيحًا وقرفًا.

دعوت عليهم بالسّاحقات الماحقات، وأبدعت في ذلك حتّى إنّني صرت كمَن يناجي ربّه. في ذلك الدّعاء استثنيت نساء قريتنا، أولئك المكافحات الصّابرات، أولئك المباركات الطّاهرات الطيّبات، العاملات في الحقول والمزارع والجبال، الحاصدات السّنابلَ والجالبات المياهَ والمنيرات البيوتَ كلّ مساءٍ ككواكب، والمستيقظات صباحًا مع تغاريد العصافير، والجالبات الفرحَ في الأيّام المظلمة. لولاهنّ لفسدت أرض هذه القرية بمَن عليها.

إذَن، زار الوفد قريتَنا وغادر باتّجاه الكاف، ولمّا غادر لاحظنا تغييراتٍ كبيرةً بدأت تحصل، أهمّها أنّ السيستام صار أكثر صرامةً. بدأ الضّرب بقوّةٍ على أيدي العابثين بالأمن والمعارضين ومثيري الشّغب. بدأ الضّرب بقوّةٍ وبالحديد والنّار، حتّى سمعنا بكلّ تلك الاغتيالات التي حدثت هنا وهناك، اغتيالات

لأشخاصٍ داخل البلد وخارجه، وملاحقات ونفي وسجن... لن أذكر لك التّفاصيل، فأنت تعلم الأسماء الكبيرة التي اغتِيلَتْ والأخرى التي نُفِيَتْ أو سُجِنَتْ. وأنا لست ضدّ الحكومة. فهم مواطنوها وهي أدرى بهم منّي، إن شاءت قتلت أو سجنت، وإن شاءت حرّرت أو كرّمت.

ماذا ننتظر من الحكومة أن تفعل؟! أتريد من الحكومة أن تغسل أسنانَ هؤلاء السذّج؟! أتريد منها أن تحلق آباطهم؟! أننتظر منها أن ترتّب شعورهم وتزيح قملهم قملةً قملةً؟! هاه... قل لي... ماذا ننتظر من الحكومة؟! أننتظر منها أن تسكب العلم والمعرفة في أمخاخهم المتكلّسة؟! لا... إطلاقًا، أنا لست ضدّ الحكومة. وكلّ شخصٍ مسؤولٌ عن فقره أو ثرائه، وهؤلاء السذّج يستحقّون المكانة الوضيعة التي يعيشون فيها. أقسم لك أنّها تليق بهم تمامًا.

دعني أخبرك بشيءٍ آخر، أنا لا ألوم السلطة المركزيّة أبدًا. أقسم لك أنّ السّلطة المحلّيّة أشدّ قَرَفًا ودمارًا، سلطةٌ جاهلةٌ ومتعجرفةٌ، سلطةٌ عمياء لا عقلَ لها ولا حكمة. ذلك الخنزير العمدة منصور وأعوانه الذين اشتراهم بثمنٍ بخسٍ، أبناء عمومتنا وأبناء جبلنا هم من أشاروا عليهم بأخذ المكتبة والحديقة لصالح الحزب، وهم أيضًا وراء كلّ تلك التّقارير السرّيّة التي كُتبت في الكونبطا وغيره.

بعد مغادرة الوفد، صار كونبا من المغضوب عليهم، وأصبحوا يرصدونه، «مناضلون لكنّهم صعاليك»، هكذا يُوصَف كونبا وأمثالُه. صاروا عبئًا

وخطرًا على النّظام، فكان لا بدّ من كسر شوكتهم حتّى لا تكون لهم أصواتٌ أو أتباع.

لأسبابٍ نعلمها وأخرى نجهلها أقرّت الحكومة مراقبةً مكثّفة للمناضلين والفلّاقه خوفًا من تشكيل معارضةٍ أو الإقدام على أعمالٍ انتقاميّةٍ هنا أو هناك، أو ربّما لكيلا يقع استغلالهم من طرف بعض الأيادي الخفيّة التي تريد الشرّ بالبلاد.

استغرب الكونبطا عندما وقفت سيّارة الحرس الوطنيّ أمام بيته مساءً. أمروه بالصّعود في اللّاندروفر الخضراء الجديدة، ذات العجلات الكبيرة. وقد وصلت تلك اللّاندروفر من العاصمة بعد زيارة ذلك الوفد بأيّامٍ قليلةٍ. فصارت تجوب المرتفعات والمنحدرات في اللّيل والنّهار. وعندما نراها تتّجه نحو الدّواوير نتعوّذ من شرّها ونقول اللّهم اجعله خيرًا.

في تلك الأمسية استجوبه ثلاثة أعوان لا ينتمون إلى مخفر قريتنا. وكانت تلك الأسئلة غريبةً على الكونبطا، ولم تخطر له على بالٍ، حتّى إنّه كان أحيانًا يبتسم أو يقهقه عاليًا. هل تريد السفر إلى فرنسا؟ لماذا تتردّد على الجزائر؟ هل ستستقرّ بالعاصمة؟ لماذا زرت مصرَ بعد زواجك؟ هل أنت راضٍ عن أداء الحكومة؟.. وأسئلةٌ أخرى سخيفةٌ ولا معنى لها، من قبيل «لماذا انقطعت عن شرب الكحول؟».

غادر كونبا المخفرَ محاولًا ربط الأسئلة بعضِها ببعضٍ للحصول على فكرةٍ، لكنّه لم يفلح. كان حائرًا، حتّى مرّ من أمامه خاله شعبان. سأله عمّا يفعل في ذلك الوقت والمدينة تكاد تكون خالية،

فأخبره بما جرى معه. أخذه شعبان من يده إلى المقهى الذي بدأ يغلق أبوابه. وجلس به في ركنٍ من أركانها وقال له بالحرف الواحد:

«لا تتهوّر، إنّ الحكومة جادّةٌ وصارمةٌ أكثر من الحاكم العسكريّ الفرنسيّ، وسجلّك على طاولة المسؤولين الكبار بالعاصمة. يجب أن تختفي في الدوّار ولا تنزل المدينة مطلقًا». ثمّ حدّثه في تفاصيل أخرى عديدةٍ وذكر له أمثلةً عن مساجين وملاحَقين ومنفيّين من قرًى ومُدُنٍ مجاورة.

شعبان الذي لا يحبّ السياسة ولا يتحدّث فيها إلّا اضطرارًا، كان يعي جيّدًا ما يقول. فقد كانت تربطه صداقةٌ قويّةٌ بعون الأمن الكافي، وكانت الأخبار تأتيه بخيرها وشرّها إلى كونتوار المقهى.

ظلّ كونبا على حيرته حتّى جاءه ذلك اليوم الذي اقتربت فيه الأصفاد من معصميه. جاء يوم الشرّ، اليوم الذي تقرّر فيه توقيف الكونبطا بطلب من السّلطات المركزيّة، ولاسيّما بعد كلّ تلك التّقارير التي كُتبت فيه. قالوا فيه كلامًا يحيل مباشرةً على الإعدام، وأنت تعلم جيّدًا ما أقصد، لكنّني لا أظنّ أنّ السيستام قرّر إعدامَ كونبا أو اغتيالَه بتهمة التآمر على الأمن القوميّ مثلًا. الأرجح أنّهم كانوا سيسجنونه مدى الحياة أو إلى أجلٍ غير مسمًّى. ولا أحد غير الحكومة يقرّر ذلك الأجل.

في ذلك المساء الخريفيّ المشؤوم، كنّا تحديدًا في شهر أكتوبر الحزين ننتظر الأمطار لبداية موسم الحرث، لكنّها لم تمطر في الوقت كعادتها، تأخّرت وتأخّر معها الأمل. طالت أيّام العَجاج وصار القشّ مسمومًا، وتعكّرت رائحة الجوّ

وشحبت الوجوه وتاهت. حتّى الكلاب لم تعد ترغب في النباح ولم يبقَ لها إلّا لهاثٌ مقرفٌ يبشّر بالخراب... كلابٌ عاطلة لا تحرس إلّا مؤخّراتها من الذّباب. قال أجدادنا قديمًا: «إذا لم تسمع في بيتٍ نباحَ كلبٍ فاعلم أنّه فقيرٌ».

في ذلك المساء الخريفيّ المقرف، كنّا ننتظر المطر. قالوا إنّها ستأتي من جهة الغرب لأنّنا شاهدنا تلك السّحابة الدّاكنة الكثيفة، وجهّزنا أنفسنا للطّوفان، لكنّ الرّياح القويّة أبت غير ذلك. هبّت تلك العاصفة بقوّةِ قادرٍ مقتدرٍ ودفعت تلك السّحب الدّاكنةَ خلف جبل العنز ومالت باتّجاه أولاد عيّار حتّى إنّنا سمعنا دويّ الرّعد ورأينا البرقَ يخترق السّماء والأبصار. فلعنّا نصيبنا البائس لأنّها أمطرت بعيدًا عن قريتنا. نظر أحدهم إلى السماء وكان ضعيفَ البصر، نظر وهو يطارد قملة في رأسه قائلًا: «هاهي سحابةٌ أخرى سوداء قادمةٌ»، فصفعه آخر على قفاه قائلًا: «ذاك سربٌ من الغربان أيّها الأعمى».

في ذلك المساء وقف عون الحرس الوطنيّ الكافي بدرّاجته النّاريّة أمام منزل كونبا، ثمّ أخذه من ذراعه وسار به في حقل الزّيتون. كأنّي به جاء متخفّيًا يحمل سرًّا عظيمًا أو قرارًا حاسمًا، كأنّ الأمر يبدو جادًّا، وكان الكافي على غير عادته لا يبتسم ولا يسلّم. جاء مسرعًا وعاد مسرعًا مثل برقٍ.

كما كنّا نتوقّع تمامًا، جاءت البرقيّة بتوقيف الكونبطا وترحيله إلى العاصمة للتّحقيق معه. وعندما أخذه سي الكافي من ذراعه باتّجاه حقل

الزّيتون، قال له كلمةً واحدةً، كلمةً كانت كافيةً ليفهمها الكونبطا جيّدًا. وكان عون الحرس يعني ما يقول. «اندثر... يجب أن تندثر... اندثر اليوم قبل الغد. لقد جاء الأمر من العاصمة كرعدٍ».

نظر كونبا إلى السّماء وقد عاد إليها ما تيسّر من الضّوء بعد أن عصفت الرّيح بتلك السّحابة الدّاكنة وحطّ سرب الغربان فوق أشجار الخرّوب... فرأى ذلك النّور الحزين الذي يراه الميّت قبل أن يغادر الحياة، رأى سجلَّ حياته وماضيه ومستقبله، ورأى أشياء أخرى كثيرةً، رأى كلّ شيء في لمحة بصرٍ وهو الذي جرّب الغياب والتّرحال. قرأ الواقع والعواقب جيّدًا بتلك الخبرة التي امتلكها. وكان عليه أن يكون حاسمًا في أمره، أن يكون حكيمًا هذه المرّة... فكان كما يجب عليه أن يكون.

أمّا أنا فلم أنتظر منه ذلك على الإطلاق. لقد فاجأتني قراراته وجعلتني أدور في الفراغ. كنت أنتظر أن يأتيني ليحدّثني في الأمر لكنّه لم يفعل. وإذ لم يأتِ ازداد جزعي وازدادت حيرتي، لأنّني تيقّنت أنّ الشرّ ضرب بقوّة وفي العمق، ضرب في المناطق التي لا تترك لنا فرصةً لردّ الفعل. فكان عليه أن يسير في الطّريق القاتلة، تلك الطّريق التي قتلت كلّ شيءٍ فيه روحٌ. أمّا أنا، وبالرّغم من صدمتي، فقد وجدت له سبعين عذرًا، ولن ألومه أبدًا كما فعل أولئك السّفهاء. وأظنّك أنت أيضًا ستجد له أكثر من سبعين عذرًا.

عاد كونبا إلى البيت وحدّث زهرة في الأمر. كانت يومَها حاملًا في الشّهر الرابع تقريبًا. حدّثها بطريقة فيها جدّيّةٌ كثيرةٌ وخوفٌ كبيرٌ. هل يخاف

الكونبطا؟! نعم يخاف! ليس على نفسه، بل على زوجته والمولود القادم وكلِّ تلك الأحلام التي بناها قبل الاستقلال، الأحلام التي غرسها فوق قمّة جبل العنز وفي عمق الأرض، الأحلام الجميلة التي رآها وهو نائمٌ في القطار الذي يحمله إلى المشنقة الفرنسيّة، الأحلام الحقيقيّة التي عاد بها من العاصمة لمّا أُعْلِنَ عن الاستقلال.

كان صادقًا وخائفًا وليست له حلولٌ كثيرةٌ. وكان رجال الأمن على وشك القدوم، والوقت ينفد والمصير غامضٌ ولا شيء مضمونٌ. كان عليه أن يتحرّك على طريقة المجانين.

وكان عليه أن يقطع عروقه التي تربطه بتراب الأرض وجبل العنز. عليه أن يعضّ بأسنانه على خشبةٍ يابسةٍ حتّى لا يصرخ من الألم وتلك العروق تتمزّق عرقًا عرقًا... عليه أن ينزف في صمتٍ. أمّا دادا صالحة فلن تكون هذه المرّة قادرةً على البكاء، لا حزنًا ولا فرحًا. لقد دفنّاها في بداية ربيع تلك السنة ونبتت الحشائش على قبرها. هاهي المسكينة تستريح وتنعم بالهدوء، أمّا هذا الابن الشّقي فمازال يبحث عن مكان آمنٍ يستريح فيه.

هذه العائلة تطاردها لعنةٌ، عائلةٌ مسكونةٌ بالشّقاء... شظايا الأيّام الملغومة مازالت تلاحقها وتصيبها في القلب.

لمّا أشرقت شمس اليوم التالي، كانت اللّاندروفر الخضراء اللون، ذات العجلات الكبيرة والضجيج المرعب، أمامَ بيت كونبا... أربعة أعوانٍ يلبسون لباسًا أخضر ويحملون المسدّسات والعصيّ والأصفاد. لم أتعرّف إلّا على بوالشنب الذي كان

يقود العربة. أمّا الثلاثة الآخرون فأظنّهم جاؤوا خصّيصًا من العاصمة. لمّا رأينا ذلك، جئنا وتجمّعنا حول البيت فأمرونا بالابتعاد. طرقوا بابَ الحوش القصديريّ ذا اللّون الرماديّ بعنفٍ حتّى خلناه سيسقط. ثمّ صاح بوالشنب مناديًا كونبطا مرّاتٍ عديدةً وآمرًا إيّاه بفتح الباب وتسليم نفسه. نادى، ثمّ سعل، ثمّ بزق على الأرض، ثمّ ثبّت سيجارته بين شاربَيه.. ثمّ بدأ يلعن.

خلعوا الباب القصديريّ الكبير وولجوا إلى الدّاخل شاهرين مسدّساتهم إلّا بوالشنب فكان يسير من الخلف يحمل الأصفاد. كنّا في الخارج ننتظر خروجَ كونبا أو حتّى زهرة. كنّا ننتظر سماع صوتٍ أو حركةٍ مفاجئة، كأنّي بالأرض ابتلعتهما. وعندما تأكّدوا من عدم وجوده، غادروا البيت. ثمّ صاح العمدة منصور الذي لا أعلم من أين ظهر ومتى: «من رآه منكم فليبلّغ السّلطات».

تفرّقوا في حقل الزّيتون الذي يقع مباشرةً خلف الحوش الكبير، دخلوا حتّى إسطبل البهائم، ثمّ تقدّموا نحونا وسألونا عمّا إذا كنّا نعلم أين هو. فقلنا جميعًا: «لا». نطقناها في الوقت نفسه وبصوتٍ عالٍ، لا... لأنّنا في الحقيقة لا نعلم، وكنّا مبهوتين ومحتارين، كنّا نحن أيضًا كأعوان الحرس الوطنيّ نسأل أين اختفى كونبا؟ أين اختفت زهرة؟

عادت اللّاندروفر إلى المدينة بسرعةٍ خارقةٍ تطوي الأرض طيًّا حتّى طار الغبار وتناثرت الحصى من حولها. غادرت ناقمةً ومهزومةً... بدأت الرّيح تعصف ونزلت قطرات أمطار الخريف الأولى،

ثمّ صارت كثيفةً وجارفة... جرفت معها التّبن والقشّ المتبقّي من موسم الحصاد وكذلك التّراب والحصى، ومحت كلّ شيء حتّى خربشات الأطفال بالطباشير الأبيض وبالفحم الأسود على الجدران، محت بصمات أقدامهم الحافية وجرفت ألعابهم المصنوعة من الطّين والقصدير. سالت المياه في المجاري بنّيّةَ اللّون، وكلّها تصبّ في الوادي الكبير، وادي تاسة الذي يقسم القرية إلى نصفين بالعدل. ساعةٌ من نزول الأمطار وسيلان المجاري تكفي الوادي الكبيرَ ليمتلئ ويفيض وتكسوَ مياهُه المزارعَ المحيطة ويغطّي الطرقات التي تحملنا إلى المدينة... فنُعزَل تمامًا عن العالم.

الجبل من خلفنا، والوادي من أمامنا، وقدرتنا على الصّبر هي منفذنا الوحيد إلى يومٍ آخر للاستمرار في الحياة. يبقى لنا منفذٌ واحدٌ لا غير، منفذُ الفئرانِ المكسورة والهزيلة الباحثة عن النّجاة خلفَ قشّةٍ مسمومة. لم يبقَ لنا غير اللّجوء إلى الجسر الفرنسيّ السّفلي. نسير غربًا تحت سفح الجبل على الحمير باتّجاه مدينة السرس، ثمّ نميل قليلًا إلى الشرق حتّى نبلغ الجسر. نربط الحمير هناك، ونصعد الهضبة على الأقدام حفاةً، ثمّ نسير على سكّة الحديد حتّى نعبر الوادي، ونواصل السير جنوبًا نحو المدينة، نجوب كلّ الاتّجاهات من أجل شراء علبة كبريتٍ فتحترق أعصابنا وتهترئ أقدامنا، أو لشراء حبّة دواء لآلامنا التي لا تسكن أبدًا.

كلّ هذا لا يهمّ، لأنّ الحكومة مشغولةٌ بملاحقة كونبا وأمثاله عوضًا عن الانشغال ببناء جسرٍ

جديدٍ أو مدّ طريقٍ أو إنقاذ غريقٍ أو أمٍّ تجتاحها آلام المخاض، أو طفلٍ يبكي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أو حتّى خروفٍ أو بقرةٍ أو شجرةِ زيتونٍ بترها الانجراف... كلّ هذا لايهمّ. فالحكومة مشغولةٌ بما هو أهمّ... الحكومة مشغولةٌ بتركيز السيستام الجديد.

في تلك الاجتماعات الكثيرة، طلبنا منهم أكثرَ من مرّةٍ أن يعطونا طريقًا وجسرًا، وسنجني نحن خبزَنا بأيدينا. لا نريد إعاناتٍ ولا كلامًا فارغًا يسكّن جراحنا. لكنّ أصحابَ الكلام الفارغ ظلّوا يتردّدون علينا، يبيعوننا الوهم، ويبيعون مؤخّراتهم بثمنٍ بخسٍ من أجل منصبٍ.

في الحقيقة لا أحبّ الحديثَ في مثل هذه المواضيع، لأنّها تجعلني أحترق كأعواد علبة الكبريت. بلغت الثّمانين خريفًا ولم تأتِ الطريق ولم يأتِ الجسر، لا شيء غير الظلمات... ظلمات من فوق وظلمات من تحت. ولم يتغيّر شيء عدا تلك اللّاندروفر الّتي صارت قديمةً جدًّا، وصار منظرُها موحشًا كمنظر قريتنا الخارجيّ.

ولكن دعنا نعُدْ إلى الكونبطا، فقد توالت الأيّام ولم يظهر، وأظنّه لن يظهر مُجدّدًا إلى الأبد. كنت أعلم جيّدًا أنّها الضّربة القاسمة والماحقة. أقسم لك أنّني بكيتُ من الدّاخل مرارًا لأنّني علمت أنّه انتهى. وكنت ككلّ مرّةٍ من الصّادقين. لقد مشى في الظلمات وحيدًا فَفَقَدَ ظلّه وقوّته وكرامتَه ولم يبقَ له إلّا قصبةٌ هوائيّةٌ يتنفّس من خلالها ليبقى على قيد الحياة.

بعد ثلاثة أيّامٍ من تلك الحادثة، أقصد صدورَ

برقيّة التّوقيف في حقّ كونبا ومجيء أعوان الأمن إلى الدوّار... بعد ثلاثة أيّامٍ، دخلتُ المخفر محاولًا الحديث مع عون الأمن الكافي. وعندما دخلت صدمني ذلك البلاغ الذي عُلِّقَ في كلّ ركنٍ، كان شبيهًا بذاك الذي علّقه الحاكم الفرنسيّ السيّد فرانسوا بالاج. الفرق الوحيد أنّه مكتوبٌ باللّغة العربيّة عوضًا عن الفرنسيّة، لأنّ الحكومة عرّبت الإدارة. لقد وقع تعريب الشرّ، والشرّ عندما يصير عربيًّا يكون أشدّ وأَمَرّ. «إبراهيم بن الحاج محمّد شُهِرا الكونبطا مطلوبٌ لدى رجال الأمن، الرّجاء التّبليغ عنه». عندما قرأت البلاغ، غادرتُ المخفر فورًا وبدأت أنتظر مع المنتظرين.

في الأثناء زرع العمدة منصور المخبرين في كلّ مكانٍ. وسادت القريةَ قسمةٌ مقرفةٌ، جماعة مع الحزب وأخرى ضدّ الحزب. الاستعمار وحّدنا والحكومة فرّقتنا! كنّا كفراخ دجاجة خالتي حليمة، نسير إلى حقل القمح معًا ونعود معًا. اليوم تَفَرَّقْنَا وتطايرَ ريشُنا وصرنا عراةً.

بعد مدّة أزاحوا البلاغ من المخفر ومن كلّ الأماكن الأخرى، ولم تعد سيرة الكونبطا تُذْكَر على أفواه أعوان الأمن. فهمت أنّ شيئًا مُهمًّا قد حدث. سألت الكافي فلم يعطني جوابًا، ثمّ شعبان فتجاهلني، وكذلك فعل سي الطيب. توجّهت إلى سيدي حسين، وكان على فراش مرضه الأخير، كان يكاد لا يتكلّم. رفع سبّابته إلى أعلى وهو يقول بأنينٍ خافتٍ: «كلّ الأرواح صاعدةٌ إلى ربّها».

توجّهتُ إلى محطّة القطار أنتظر العدمَ مع أولئك السذّج. وقفت هناك ونظرتُ إلى السماء

حتّى تذكّرتُ ذلك القطار الذي كان يحمل الكونبطا إلى المشنقة. ولمّا نظرت إلى السّاعة النحاسيّة ذات العقارب الرومانيّة وجدت عقاربها قد تعطّلت وتوقّفت عن الدوران، توقّفت عند السّاعة السّادسة والنصف. لا أعرف أكان ذلك مساءً أم صباحًا! لكنّها ظّلت حبيسةً عند السادسة والنصف وكأنّها تقول: لقد حان وقت العجز.

أظنّك فهمتَ جيّدًا ما أقصده بالسّادسة والنصف!

كنتُ حائرًا في أمري حتّى وصلت تلك الرّسالة من مرسيليا. جاءت الحقيقة سرًّا وفي الخفاء، وجاءت معها نهاية الكونبطا. الرّجل الحقّ لا يقتله الرصاص في الصّدر ولا طعنات الخناجر في الظّهر ولا المشانق في العنق. الرجل الحقّ تقتله المذلّة... أقول هذا وقلبي يتمزّق وينقسم إلى نصفين.

ولكي أكون صادقًا معك، هو لم يكن يكتب رسائل، بل وصاياه. أظنّك الآن تسأل: ما الذي جرى بالضبط؟ دعني أسترِحْ قليلًا، دعني أحرّك أطرافي التي تخدّرت وأشرب كوبًا من الماء، دعني أمسك بعصاي لأثبّت نفسي المتوتّرة. ها هي نسمات الجبل بدأت تهبّ برائحة الصّنوبر، دعني أتنفّس قبل أن يضيق صدري بتلك الرّسالة القادمة من الجحيم، تلك الرسالة الملعونة التي سلّمني إيّاها عبد العزيز بولعراس، كانوا يسمّونه «عبد العزيز راعي المعيز»، ولمّا عاد من فرنسا صار اسمه «القاوري».

أراك تستغرب ذلك!

نعم سيبدأ بعد حينٍ في إرسال المكاتيب، رسائل من الجحيم! كانت دليلًا واضحًا ومرعبًا على تلك النّهاية البطيئة لرجل عظيم. وسوف تجد رسائل الكونبطا هي أيضًا في ذلك الصندوق الخشبيّ المدهون باللّون الأزرق السّماويّ.

(15)

الرّسالة الملعونة وصلت من مرسيليا.

سلّمني إيّاها عبد العزيز بولعراس سرًّا، دسستُها في جيبي، وانصرفتُ مباشرةً إلى هضبة الإكليل. لم يتجرّأ كونبا على إرسالها بالبريد، فالحكومة تفتح كلّ الرّسائل القادمة من الخارج، وهم يفعلون ذلك لدواعٍ أمنيّةٍ، أو هكذا يقولون، حتّى إنّني يئست تمامًا من أن تصلني رسالةٌ من مدام كريستال. كنت متأكّدًا من أنّها أرسلت إليّ رسائل عديدةً كما وعدتني، لكن يبدو أنّ تلك الرسائل وَجَدَت طريقَها إلى الإتلاف. لعلّهم كانوا يتصوّرون أنّي سأفضح أفعالَهم المقرفة. أمّا أنا فلستُ من الذين يفعلون ذلك، لست من الذين يبيعون أوطانَهم بالكلام الرّخيص. كنت سأخبرها بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام وأجملُ ممّا كان بكثيرٍ، كنت سأكتب لها أنّنا سعداء جدًّا، حتّى إنّ السعادة تفيض من ابتساماتنا كما يفيض وادي تاسه في فصل الخريف فيتعطّل كلّ شيء... كنت سأقصّ عليها كلَّ الأشياء الجميلة التي حدثت بفخرٍ شديدٍ... وأحاول إبهارَها بتأكيدِ فكرةِ قدرتِنا على السّير إلى الأمام... وأحاول إقناعَها بأنّ قريتنا في غياب الحاكم العسكريّ السيّد فرانسوا بالاج وفي غياب المعمّر السيّد بودان أكثرُ أمانًا وأكثر رخاءً... كنت سأقول لها إنّ المكتبة بخيرٍ وكذلك حديقة المتوسّط والطّرقات والشّرفات والزّهور ومحلّ التّمريض والنّسوة والأطفال... كلّ شيء بخيرٍ، كلّنا بخير.

كنت سأقول لها كلّ ذلك الكلام الجميل ثم

أختنق بالبكاء قهرًا، وكانت ستفرح كثيرًا وتجيب: «أنا سعيدةٌ جدًّا من أجلكم، كم أنتم مبدعون!».

ماريا بدورها لم تكتب لي. هل بعثت هي أيضًا رسائل وأتلفتها الحكومة؟!

سلّمني عبد العزيز الرّسالةَ بطريقةٍ سرّيّةٍ جدًّا. تلفّت ذات اليمين وذات الشّمال، ثمّ اندثر بسرعةٍ كأنّه يقول لي: «لا تعرفني ولا أعرفك!». عبد العزيز بولعراس غادرَ إلى الخارج مع كلّ الذين خرجُوا، أقصد الخارج الذي كان في الدّاخل. عندما غادرت فرنسا، غادروا وراءَها!... لحقوا بها من كلّ فجٍّ عميقٍ، ساروا وراءَها من جهات الدنيا الأربع، باعوا كلَّ شيءٍ ثمينٍ لديهم من أجل تلك السّفرة، باعوا أرضَ أجدادهم وعرقَ السّنين، وزيتونَهم وأغنامَهم وحتّى ذهب زوجاتهم. وساروا خلف فرنسا ماشين ومهرولين وراكضين نحو الميناء، ساروا جائعين وفي ملابس رثّةٍ وبلا مشاعر، ساروا غير عابئين بالأمطار النّازلة والثّلوج النادفة ورياح الغرب الباردة، ساروا ينزفون عرقًا وينزفون أحلامًا، فكانوا مستعدّين للتّضحية بكلّ شيءٍ... ساروا وهم يردّدون تلك الجملة التي كانوا يقولونها في سرّهم: «إنّ فرنسا قويّةٌ وجبّارةٌ».

«عبد العزيز راعي المعيز»، كما يسمّيه جماعتُنا في مقهى شعبان، كان يرعى عنزاته في جبل العنز، ولمّا بَلَغَهُ أنّ أبوابَ الخارج فُتِحَت، نزل يدفعهم أمامَه حتّى مدينة سوق الثلاثاء. باعها هناك بثمنٍ بخسٍ، وغادر باتّجاه الميناء دون أن يلتفت إلى الوراء. باع عنزاته بلا رحمةٍ ولا أسفٍ، عنزاته التي رعاها وغنّى لها ونامَ بينها ولعب

مع صغارها وشرب من حليبها وأكل من لحومها، جرّها إلى السوق جرًّا وصرخ فيها ودَفَعَها بقوّة لتسرعَ، وضربها بعصاه، ثمّ قال لمن اشتراها منه: «اذبحها بسكّينٍ حادٍّ، فإنّ لُحُومَها شهيّةٌ ومضمّخةٌ برائحة الإكليل والصّنوبر». ثمّ غادر مسرعًا لاعنًا كلَّ شيءٍ وراءه، غادر برائحة العنز والرّوثُ عالقٌ في سندالته البلاستيكيّة النّتنة. ولمّا أطلّ برأسه من الباخرة العظيمة منبهرًا بالأمواج العاتية، سقطت آخر قملاته في البحر الأبيض المتوسّط، بحر الحضارات العظيمة وبحر قملة عبد العزيز راعي المعيز. ثمّ تغير وصار اسمُه «القاوري»!

أمّا من تخلّفوا عن السّير فقد ندموا ندمًا شديدًا وشعروا بالذنب وهم يُشاهدون العائدين من الخارج مرتّبين، يحملون الخيرات، وجوههم مضيئة وأسنانهم بيضاء، يلبسون سراويل الجينز ويقودون سيّاراتٍ فخمة... فسألوا بعجزٍ مقرفٍ: «ما الذي نفعله في قرية تنام عند مؤخّرة الكرة الأرضيّة وتتبرّز كلّ ليلةٍ على نفسها كدجاجةٍ عمياء؟!». ثمّ انضمّوا إلى الصّفوف الطويلة للحصول على تأشيرة العبور إلى الجنّة الموعودة.

بنى العائدون فيلّات كبيرةً وجميلةً في الحيّ الجديد الذي يقع خلف مدرسة «20 مارس»، حتّى إنّنا صرنا نسمّيه الحيّ الفرنسيّ، حيّ مواطنينا بالخارج. في الشّتاء عادةً ما يكون ذلك الحيّ بلا حركةٍ حتّى إنّ بعضنا يستحي من دخوله نهارًا وبلا سببٍ. تشعر بأنّك تدخل حمّامًا للنساء، نسوة متزوّجات، أزواجهنّ في الخارج لا يزورونهنّ إلّا

صيفًا ومرّةً في السنة. كانوا يحرثون أرضَهم مرّةً في السّنة، اليومَ صاروا يحرثون نساءهم مرّةً في السّنة. سي العربي البوسطاجي هو الوحيد الذي يدخل حيَّ فرنسا، يتجوّل بين النّسوة ويوزّع الرّسائلَ، وغالبًا ما يقرؤها أيضًا، وقد يشرب كأسَ شايٍ مع هذه أو تلك.

دعنا نغادر الحيّ الفرنسيّ حتّى لا نغوص في الآثام والظّنون السيّئة.

عبد العزيز بولعراس عاد أيضًا مع الذين عادوا، عاد نظيفًا ومرتّبًا يضع نظّارتَين شمسيّتين ويسرّح شعره إلى الوراء، يلبس دجينزًا فاتحَ اللّون وحذاءً بنّيًّا يشبه أحذيةَ الكاوبوي. لمّا وقف بسيّارته السيتروان السّلحفاتيّة الشّكلِ أمامَ مقهى شعبان، نظرت إليه وجوه الجالسين مبهورين ومتعجّبين، وفي الوقت نفسه حاسدين ولاعنين بقاءهم وتخلّفهم عن الخروج إلى الخارج. نظروا جميعًا وصاحوا: «عبد العزيز راعي المعيز!». ثمّ أقسموا أنّه «القاوري»! فلبسه ذلك الاسمُ منذ تلك اللّحظة، وكان ذلك يعجبه جدًّا.

سلّمني الرّسالةَ مطويّةً وملفوفةً في قطعة قماشٍ، سلّمني إيّاها وهو يقول بعينَيْه الذابلتين: «أنا لم أرك البتّة!». في الحقيقة كنت أعذره في ذلك. كان كلّ مرّةٍ يخضع لعمليّة تفتيشٍ دقيقةٍ وهو يعبر الجمارك وكأنّه من كبار مهرّبي المخدّرات، يفتّشونه من رأسه حتّى رجلَيه فيرتجف خوفًا ورعبًا.

أخذتُ الرسالة وكنت أعلم أنّها من كونبا. جريتُ إلى هضبة الإكليل، جلستُ هناك، وبدأت

أقرأ... لمّا تجاوزت الأسطرَ الثلاثة الأولى ارتفعت نبضات قلبي وارتجفت أطرافي، ثمّ أصابتني تلك «الشُّوكُ» الفرنسيّة، الشَّوْكُ الجارح نفسه، جرحتني مرّةً أخرى، اللّعنة على فرنسا... عذّبتني وهي في الداخل وتعذّبني وهي في الخارج.

ألم أَقُلْ لك إنّ صاحبنا سيُقدِم على حركةٍ مجنونةٍ؟! ألم أقل لك منذ أوّل حديثنا إنّ الإنسان يولَد مرّاتٍ عديدةً؟! لِأَكُنْ صريحًا معك، لم أتصوّر قطُّ أنّ الكونبطا سيُقدِم على تلك الفعلة! لكنّي شعرت بأنّه تعلّم وتدرّب جيّدًا، كما يقول الشيخ مصطفى الدرويش. دَرّبَتْهُ الأيّامُ والتجاربُ، وكذا انتصاراتُه وهزائمُه، ولعلّه أصبح ينصتُ إلى صوت العقل الخفيّ، وإلى صوت زهرة التي أنجبت بنتًا في مرسيليا وسمّياها «جزائر»! كان دائمًا يشعر بالذّنب لأنّه لم ينضمّ إلى المقاومة الجزائريّة ولم يشارك في معركة التّحرير. فسمّى طفلته الأولى «جزائر» حبًّا في الشّعب الجزائريّ الشّقيق.

أصبح كونبا يملك من الحنكة والعقل ما يجعله يُقدِم على قراراتٍ تفاجئ كلَّ الذين عرفوه، وأنا أوّلهم، لكنّني لن ألومَه أبدًا على ذلك، ولن أغيّر رأيي فيه. كلُّ الذين عرفوه وقدّروه، فعلوا هم أيضًا الشّيءَ نفسَه، بل إنّ كلَّ الذين لعنوا فرنسا من أجله أصبحوا يلعنون الحكومة التي أجبرته على اتّخاذ ذلك القرار الذي جرح كرامتَه وجعله يشعر بالمهانة.

شقيقي في التّراب الطّاهر،

بدأتُ قراءة تلك الرسالة، ولم أستطع تجاوز صفحتها الأولى حتّى شرقتُ بالدّمع، بلّلتُ

قميصي، وصرتُ أرتجف... بكيتُ ذلًّا وانكسارًا وأنا أسائل الكون: «لماذا علينا أن نتشرّد كاليتامى؟! لماذا علينا أن نحترق شوقًا إلى تراب أرضنا؟! لماذا يُعَاقَبُ المحبّون والصّادقون؟!». ستبقى تلك الكلمات المكتوبة بالنّار كالوشم على ذاكرة الأوطان، ولْتعذرني هنا فلا طاقة لي على استرجاعها وتحمّل سكاكينها مرّةً أخرى. لكأنّ كونبا نفسَهُ تفطّن إلى ذلك فحاولَ أن يخفّف من حدّة تلك العذابات في ما تبقّى من رسالته ولكنّه كان تخفيفًا للوجع بالوجع وكأنّ قدَرنا ألّا نغادر الدائرة.

الآن أعيش في أمانٍ ورفاهٍ، لكنّ كرامتي مجروحةٌ... كلّ صباحٍ أذهب فيه إلى العمل أشعر بالذلّ والقرف، لأنّ مهنتي التي بُعِثْتُ من أجلها هي حَرْثُ تراب أرضنا، وكلّ مهنةٍ أخرى غير تلك هي مهنةٌ لا شرف فيها. إنّي الآن أمارس الرّذيلة... وَيَا لَهُ من عارٍ أصابني!.

حدّثني في تلك الرسالة عن رحلته المجنونة التي أخذته من قرية جبل العنز إلى مرسيليا... أحيانًا لا يمكن للطّريق أن تكون في مستوى عزمنا ورغبتنا وشغفنا بالسّير فيها. فأخذ الكونبطا الوجهةَ الأخرى لأنّه كان أقوى من تلك الطّريق التي تصوّرَ أنّ نضاله فيها لن ينتهي. قُطِعَت كلّ الثنايا الممتدّة على الأرض بالعرض والطّول، ولم تبقَ له إلّا طريقٌ غامضةٌ في عمق البحر، الطّريق التي تتفتّح عليها أعيننا عندما نشعر بالنّهاية. ضَرَب بعصاه على الموج بقوّةٍ كالنّبي موسى... فعبر إلى الضفّة الأخرى.

في تلك الأمسية التي زاره فيها عون الأمن الكافي، جمعَ الكونبطا متاعًا بسيطًا وخفيفًا وسار مع زهرة ليلًا باتّجاه مدينة سوق الثلاثاء. أخذ المسالك الفرعيّة غربًا عبر أراضي أولاد الملّيتي، ثمّ سار جنوبًا خلف الفيرمة الفلاحيّة، حتّى وصل إلى أطراف المدينة. هناك زار أحدَ أصدقائه وكانت له سيّارةٌ، حمله وزوجته على متنها إلى مدينة الكاف. ولم يكن دخولُه المدينةَ عبر الطّريق الوطنيّة، بل كان عبر الطُّرقات الفرعيّة. ومن هناك امتطى سيّارة أجرةٍ ودخل التُّرابَ الجزائريّ. ومن حسن حظّه أنّ الأمر ما يزال في بدايته ولم تُنْشَرْ بعدُ صورُه في كلّ مراكز البلاد، فكان التعرّف عليه شديدَ الصّعوبة.

حين دخل التُّرابَ الجزائريّ اتّجه مباشرةً إلى مدينة سكيكده للإقامة عند صديقه عبد القادر الحدّادي.. أحد مُرافقي دربه في سنوات الغياب تلك وأكثرهم تعلّقًا به. حلّ سي الحدادي ضيفًا علينا في عرس كونبا. تعرّفتُ إليه عن قربٍ وتحدّثنا طويلًا. فعرفتُ حينئذٍ العلاقةَ الوثيقةَ التي ربطته بكونبا.. فهما يتشابهان إلى درجةٍ جعلتني أقولُ له: «أنتَ كونبطا جزائريّ بأتمّ معنى الكلمة».

مكث كونبا عند سي عبد القادر بضعة أشهر ثمّ أخذ الباخرة باتّجاه مرسيليا. ولم يخبرني بعد ذلك بأيّ تفاصيل أخرى. ربما كان يخجل من ذكرها أو كان يشعر بالعار. لكن هل ركب الكونبطا الباخرة بهويّته الأصليّة أم بهُويّةٍ مُزوّرة كتلك التي تحصّل عليها مارك الجرماني من سيموني الأيطالي؟ لا علم لي بذلك. إنّما كنتُ أشعر بأنّ

كونبا يريد محو تلك الفترة من ذاكرته فحسب.

بعد ذلك انقطعت أخبارُه، ولم تبق إلاّ بعض المعلومات المتفرّقة الكاذبة تتفوّه بها ألسنةُ نفوسٍ مريضةٍ وشامتةٍ لا تفعل شيئًا غير تقيّؤِ كلامٍ مملوءٍ بالعمالة الرّخيصة والدّسائس المتعفّنة كأفواههم النّتنة!

انقطعت أخباره... حتّى جاء ذلك اليوم الذي وصلت فيه تلك الرسالة الأولى، وصار الجميع يعلمون أنّ الكونبطا لجأ إلى فرنسا، فرنسا التي حكمت عليه فيما مضى بالإعدام! تتالت الأيّام ووصلتني منه رسائل أخرى عديدةٌ، وكنت أشعر من خلالها كيف تغيّر كونبا وبدأ يحترق ببطءٍ كشمعةٍ أو فتيلٍ زيتيٍّ أو عودِ ثقابٍ وحيدٍ ويتيمٍ. فكانت نهايته على تلك الطريقة الأليمة التي خرّ فيها جبل العنز حزنًا ولوعةً وعمّ قريتنا ظلامٌ دائم ولم يعد لنا ذكرٌ أبدًا.

«هو الحيّ ونحن الميّتون»، هكذا قلتُ لهم في ذلك اليوم المشهود. رفعت عصاي هذه لو أنّها تنطق الآن... رفعتها عاليًا وبعنفٍ، رفعتها بقوّةٍ كسيف داوُد العظيم، وردّدت تلك الكلمات مرّاتٍ عديدةً: «هو الحيّ ونحن الميّتون». ولمّا ردّدت ذلك صارخًا، سقطت عصاي أرضًا، فسقطْتُ خلفَها جاثمًا على ركبتيّ، غامسًا أصابع يديّ في التّراب، تراب أرضنا الذي صار جافًّا وكريه الرّائحة.

(16)

ألم الحكاية...

ذكرتُ لك منذ أوّل حديثنا، أنّنا نتألّم عندما نعيش الحدث، ونتألّم حين نرويه. إنّ الحديث عن الوقائع المؤلمة أشدُّ وقعًا ووطأة على القلب من تلك الوقائع ذاتها.

لم يكن الكونبطا ينوي الهجرة بتاتًا، ولم تكن تغريه الحياةُ في أوروبا وفي فرنسا بالذات. كان يردّد دومًا: «بعد الحرب سأزور باريس والأندلس ومصر». تحقّق حلمه بزيارة مصر بعد زواجه من زهرة مباشرةً وقضّى فيها شهرين كاملين.

لم يكن أيضًا ينتظر تكريمًا من الحكومة، ولا انتظرَ منحةً ماليّةً أو منصبًا، بل كان يظنّ ذلك استنقاصًا من شأنه وخدشًا لسمعته النّضاليّة النّظيفة الصادقة. قال ذلك علنًا وبوضوحٍ وبصوتٍ عالٍ بدا كأنّه غضبٌ صارخٍ، قال ذلك للوفد الذي جاء من العاصمة لتدشين دار الحزب وتكريم المناضلين وإرساء النّظام الجديد: «أنا منبيعش نضالي بدورو»!

لكن هل فهمت الحكومةُ هذه الجملةَ أم لا؟! تلك هي المسألة..

أذكر أنّ أحدهم جاءه خصّيصًا من العاصمة وعرض عليه الانضمامَ إلى صفوف الجيش الوطنيّ برتبةٍ وراتب مشرّفَين جدًّا، الجيش الوطنيّ الذي كان يبني الجسور ويمدّ الطّرقات ويخمد الحرائق وينقذ غرقى الفيضانات... أولئك الجنود الأبرياء الذين ساهموا في بناء العتبة الأولى للدّولة المدنيّة

الحديثة...

أُحبّ جيش الوطن، وأكره بوليس السيستام، أعتقد أنّك أنت أيضًا كذلك.

رفض كونبا ذلك العرض كما رفض كلّ العروض الأخرى التي قُدِّمَت له، ليس لأنّه ضدّ ذلك، بل لأنّه رجلٌ يعشق حرّيتَه. «أنا كالرّيح إذا حاصرتها تعفّنت»، كان يردّد هذه الجملة كلّما أرادوا حصره في منصبٍ أو بالأحرى في مربّعٍ مّا. قال لهم بصوتٍ عالٍ، صوتِ الواثق والمنتصر، صوتِ الثّابت والمتحدّي: «أنا لا أحتاج إلى العاصمة... أنا العاصمة!».

في الحقيقة لم تقدّم الحكومةُ كلَّ تلك العروض لكونبا حبًّا فيه، بل كانت تنوي نقلَه من قريتنا إلى العاصمة ووضعَه تحت رقابة عيونها، كانت تنوي سجنه في منصبٍ مّا. أمّا تلك الحرّية التي يتمتّع بها فهي التي كانت تخيفها حقًّا. وعندما رفض كلّ ذلك، قالوا إنّه رجلٌ جاهلٌ متخلّفٌ، ريفيٌّ متعجرفٌ، بُوجَادِي قادمٌ من خلف لافتات العالم المتحضّر. قالوا إنّه يضرُّ ولا ينفعُ، فيروسٌ اجتماعيٌّ يمكن أن يطعن الحكومة في أيّ لحظةٍ، لا يلبس بذلةً ولا ربطةَ عنقٍ ولا فراشةً، لا يأكل بالسكّين والشوكة ولا ينحني ليقبّل أيدي النّساء، لا يعرف التّمثيلَ ولا معنى الدبلوماسيّةِ ولا المناوراتِ السياسيّةَ. قالوا فيه أكثرَ من ذلك بكثير، وكان في كلّ مرّةٍ يسخر منهم ويقول: «أنا الحرّ وأنتم السّجناء، أنا لا أحتاج إلى العاصمة... أنا العاصمة!».

أنا وأنت أيضًا قادمان من وراء تلك اللّافتة التي

تقع مباشرةً قبل السّبخة الموبوءة بالكوليرا، تلك اللّافتة التي كُتِبَ عليها: «العاصمة ترحّب بكم». قبل هذا قلنا: «مسكينة فرنسا...»، ثمّ ابتسمنا. الآن يمكننا أن نقول: «مسكينة العاصمة»، لكن لا داعي إلى الابتسامة.. إنّه لَمِنَ العيب أن نضحك على جثّة ميّتٍ، أقسم لك بالذي خلق الأجساد وبثّ فيها الأرواح أنّي أراها جسدًا جامدًا لا روح فيه. ومن المعيب أن نركل جثّةَ قطٍّ ميّتٍ.

لمّا يئسوا منه طفقوا يدبّرون له المكائد، فكتبوا فيه التّقاريرَ وعَدُّوه خطرًا متنقّلًا، حتّى جاء ذلك اليوم الذي قرّروا فيه سجنَه إلى زمنٍ معلومٍ. قالوا إنّ له علاقاتٍ مشبوهةً تمثّل خطرًا على استقرار البلاد والأمن القوميّ... كثيرٌ هو الكلام الذي قيل فيه، ولا داعي إلى ذكره بالتّفصيل. كلّ ما أقدر على قوله الآن: ليت الحكومة فهمته وأعطته تلك المساحة الكافية من الحرّيّة ليعيش حياته كما أرادها أن تكون. كونبا الذي رفض الانضمام إلى الفلّاقة قبل الاستقلال، رفض أيضًا الانضمامَ إلى الحزب بعدَه. ليت الحكومة قدّرت ذلك وفهمته!

الكونبطا يظلّ رجلًا بسيطًا ومتعلّقًا بتلك الأشياء البسيطة في القرية. لم يكن ينوي حتّى الاستقرار في العاصمة، ولا يغريه بهرجُ الحياة وبَذَخُهَا.

كان يسأل في رسائله عن تلك التّفاصيل البسيطة السّاكنة في وجدانه، يسأل عن دجاجة خالتي حليمة العرجاء التي تقود فراخَها بثباتٍ إلى حقل الفول، يسأل عمّا إذا كانت خالتي حليمة ما تزال تزرع فولًا في قطعة الأرض التي

تقع جنوبَ الحوش الكبير مباشرةً. كنّا نزحَف على بطوننا ونأكل الفولَ الأخضر حتّى تنتفخ بطونُنا وننتهي إلى الضراط. وعندما ترانا خالتي حليمة من بعيدٍ تجري وراءنا وتقذِفُنا بالحجارة وهي تردّد: «أيّها الشّياطين!». في المساء ترسل إلى كلّ واحدٍ منّا غربالًا من الفول.

كان يسأل عمّا إذا كانت شجرةُ الخرّوب ما تزال خضراء يافعةً... ويسأل عمّا إذا كان الوادي الكبير يهدر بقوّةٍ في فصل الصّيف ولم ينضب ماؤه... يسأل عن عين سيدي رزيق، أَمَا تَزَالُ تنبع فتكوّن مجرًى صغيرًا له خريرٌ خافتٌ يصبُّ في وادي النّحل... وعن الطريق، أَمَا تَزَالُ صامدةً، وعن طاولات مقهى شعبان وكراسيّه الخشبيّة، هل هي بعدُ ثابتةٌ لم تدمّرها أيادي لاعبي الورق الضاربة بقوّةٍ أثناء الانتصار وأثناء الهزيمة وهم يصرخون ويلعنون. حتّى شجرة اليوكاليبتوس الوارفة الظلال التي تقع أمام المقهى ونجلس تحتها عند الضّحى سأل عنها... سأل حتّى عن النّادل مسعود، وعمّا إذا كان ما يزال نحيلًا جدًّا ومغرمًا بالحديث عن وضعيّات الجماع...

كان يسأل عن الصومعة، أَمَا تَزَالُ تتلألأ أنوارُها في شهر رمضان.. ويسأل عمّا إذا كانت الزردة تمتلئ بالزوّار بعدُ.. وعن الشّيخ مصطفى الدرويش، أَمَازَالَ يضرب دُفَّهُ معلنًا عن بداية حضرته في إحدى الزوايا. يسأل عمّا إذا كان كلبُ العمّ صالح ما يزال حيًّا؟! يسأل حتّى عن مبروكة العرّافة، أَهِيَ بعدُ على قيد الحياة؟ ذهب بصرُها لكنّها ظَلَّتْ قادرةً على قراءة الكفّ. نسألها كيف

ذلك؟! فتقول إنّي أرى اليدَ بقلبي وأتحسّسها بأصابعي. سرق كونبا يومًا بيضةً وأعطاها لمبروكة العرّافة مقابل قراءة كفّ يده. أمرته أوّلًا بأن يُعِيدَ البيضة، فضحك وقال لها: «هذا بيضنا». فأجابته: «سيسرق الأجانب أيّامَك كما سرقت البيض!». ومنذ ذلك الحين لم يعد يريد الاقتراب منها لأنّه أصبح يتشاءم من كلامها. ثمّ صار يقول: «إنّ تلك العجوز على حقٍّ، أردت محاربةَ المستعمر فصرت عبدًا له. لقد صدقت هي وكذبتُ أنا! سرقت فرنسا أيّامي وشرفي أيضًا!».

يظلّ يسأل عن أشياء أخرى كثيرةٍ لا تخطر على بال أحدٍ. ثمّ يقول إنّني أكاد أشمّ رائحة كلِّ شيءٍ، إنّني أختنق هنا! وتنتهي بذلك رسالته.

ستجد كلّ تلك الرّسائل في الصندوق الخشبيّ المدهون باللّون الأزرق السّماويّ كما أخبرتك... ستجد أيضًا بعض الصّور، تلك الصّور التي لم أعد قادرًا على النظر إليها مطلقًا. حين أخذتُ الصّورة الأولى التي أرسلها ونظرتُ في عينَيه الباهتتَين الذّابلتَين، قلت: «لا، مستحيل! هذا ليس الكونبطا... هذا ظلّه، أو نسخةٌ مشوّهةٌ منه. هذا ليس أسدَ جبل العنز، ليس هذا مَن ملأ جبلَ العنز وشغل فرنسا وهزّ الأرض من تحت أقدامها ولم تقعد».

ذاك الذي في الصور ليس الكونبطا، ليس الكوبرا، ليس أسدَ الجبال، ليس إبراهيم بن الحاج محمّد! إن أردتَ أن تعرفه حقًّا فاسألْ عنه الجبل.

اسأل عنه جبل العنز، الجبل المذكور في كلّ رسائل الكونبطا، حتّى إنّه في كلّ مرّةٍ يقول

لي: «لا تقل لي إنّ الجبل احترق!»، كأنّي به كان ينتظر ذلك. وكان خوفه في محلّه!.. فهو يعلم أنّ أولئك السذّجَ المقمّلين سيفعلونها، تجّارَ الفحم ذوي الوجوه المحترقة والمشوّهة، ذوي الأجساد القميئة الكريهة... كان يسأل عن الجبل الذي أواه وستره وحماه عندما حاصره العالم، الجبل الذي أكل فيه ونام وشعر بالأمان، الجبل الذي جعله ينتصر على الفرنسيّين ويقتل جنودهم، الجبل الذي تعرّف فيه على صديقه جرمي. ذلك الجبل هو روح الكونبطا وصدرُه الواسع.

لم ينسَ الكونبطا الجبلَ في رسائله، ولم ينسَ أيضًا صديقَه الجرماني. استقرّ كونبا في مرسيليا، وبدأ محاولاته الأولى للتّأقلم مع الوضع الجديد والاندماج في المجتمع الفرنسيّ الجنوبيّ. سكن مع زهرة إحدى الشّقق الاجتماعيّة، أو شقق «السوسيال» كما يسمّيها جماعتنا المقيمون بالخارج. وبعد ذلك تحصّل على رخصة سياقةٍ، ثمّ على عملٍ في بلديّة مرسيليا.

بيتٌ لائقٌ في مدينةٍ نظيفةٍ وعَمَلٌ محترمٌ وحياةٌ هادئةٌ، هذا هو الاستقرار، على الأقلّ كما تصوّره كونبا أوّلَ الأمر، أو كما ظنّنا نحن أيضًا، ولاسيّما بعد رحلة الشّقاء والتّعب التي عاشها. فقد نجا من مشنقة الفرنسيّين، ثمّ من سجن الحكومة. لكنّ تلك الحياة الهادئة ليس فيها ما يغري كونبا. والهواء الذي يتنفّسه في المدينة النظيفة لا يملأ صدره أبدًا.

الكونبطا ابن الجبل، رجلٌ تعوّد على الحرّية كالرّيح التي تحتاج مساحاتٍ كبيرةً لتهُبّ كما ينبغي. أمّا

الدّاء الذي ضربه في عمقه فهو إحساسه بالذّل والمهانة. الحياة الكريمة التي تصوّرناها كانت نارًا تأكل أحشاءه من الدّاخل.

كتب لي يومًا: «فرنسا التي حاربتها وقتلتُ جنودَها وظننتُ أنّي انتصرت عليها بالضّربة القاضية، أنا اليوم عبدٌ لها، أخدمها بالليل والنّهار». ثمّ حدّثني عن تفاصيل أخرى عديدةٍ ومقرفةٍ حتّى وصل به القول: «ليتني شُنِقْتُ ومتُّ بشرفٍ قبل الاستقلال، ليتني رضيتُ بسجن الحكومة المؤبّد!».

كان يتخبّط في آرائه وقراراته، أحيانًا ينقم على الفرنسيّين، وأحيانًا أخرى على الحكومة، وأحيانًا يعاتب نفسه عتابًا شديدًا. كان كذلك حتّى دخل مرحلة الكآبة وتعطّل تفكيره. وكنت أراقب تغيّره في تلك الرسائل، فأراه يسقط في جحيم أفكاره. كنت أراه يفنى ببطء، ينزف ويتقهقر حتّى توقّف عن كتابة الرّسائل. ولمّا انتظرت طويلًا ولم يأتِني خبرٌ منه، انتظرت قدومَ عبد العزيز بولعراس... انتظرت قدومه في الصّيف ككلّ مواطنينا بالخارج. رأيته يركن سيّارتَه أمام مقهى شعبان، ثمّ يخرج منها وهو يضع نظّارتَيه الشمسيّتَين السوداوَيْن، هو يفعل ذلك حتّى يتأكّد من أنّ كلّ الناس قد رأوه، ويدخل المقهى ويسلّم على الجميع. كان يؤدّي ذلك العرض المسرحيّ مرّةً في السّنة ككلّ مواطنٍ بالخارج، كأنّه يقول: «أنا الذي كنت عبد العزيز راعي المعيز... أنا اليوم القاوري». لمّا استقرّ في كرسيّه وهو يصيح قهوة إكسبريس وقارورة ماء بلغةٍ فرنسيّةٍ مهلهلةٍ ومحطّمة، توجّهت

نحوَه وسألته مباشرةً: «هل رأيت كونبا؟». قال لي بلامبالاةٍ: «صاحبك انتهى!»، ثمّ أدار وجهَه إلى صاحبه وتركني وحيدًا.

تلك الإجابة أكّدت ما كنتُ أتوقّعه وأخشى حدوثَه، ذلك الدّاء الذي رأيته في الرّسائل وهو يأكل كونبا وينتشر في جسده وروحه كسرطانٍ خبيثٍ. جلست في أطراف المقهى مهمومًا، ولمّا رأيت عبد العزيز يغادر جريتُ نحوه، مسكته من ذراعه وأنا أقول: «قل لي ما الذي حدث بالضبط؟». أجابني بكلّ جدّيّةٍ وبشيءٍ من الأسف والحزن كأنّه ينقل لي نعيه: «لم أعد أراه إلّا نادرًا، أظنّه ترك العمل وحالتُه الصحّيّة متعكّرة جدًّا. بعضهم يقول أصابته جلطةٌ دماغيّةٌ لزم على إثرها المستشفى، والبعض الآخر يقول إنّه توتّرٌ شديدٌ في الأعصاب».

دعني هنا أقطع الحديث بالحديث لأعطي عبد العزيز راعي المعيز حقَّه قبل أن يغادر حكايتنا.فقد علّمني ذلك القاوري المزيّف كلمة «فوايور»، وعلّمني أشياء أخرى سافلةً، والحقّ أنّي سعدتُ بها كثيرًا. زرتُ مرّةً بيتَه الذي يقع في دوّار أولاد بولعراس، بعد دوّارنا نحن مباشرةً... زرته لأنّ كونبا بعث إليّ معه هديّةً تتمثّل في قارورة عطرٍ فرنسيٍّ باذخٍ. وكان كونبا يعرف جيّدًا أنّي أحبّ العطور كثيرًا. زرته في آخر المساء وكان مع بعض أصحابه. فتح قارورةَ وسكي، ولمّا قدّم لي الكأس، رفضت رفضًا قاطعًا، لكنّه أخذني من ذراعي وأقسم بالثلاث المحرّمات أن أجلس لأنّه يريد أن يطلعني على شيءٍ سيُبهرني كثيرا. عندما قال ذلك ضحك أولئك السّفهاء الذين

انهمكوا في شرب الوسكي وتقشير اللوز الأخضر، حتّى إنّ عبد العزيز لعنَهم وهو يقول: «لقد دمّرتم طقوس الشّرب يا أولاد الكلب». بعد مدّةٍ قصيرةٍ شغّل فيديو بورنو. وكان عنوانه « الفوايور». شاهدت تلك الليلة كلَّ ذلك القرف مع أولئك المقرفين والقاوري يردّد في كلّ مرّة: «يجب أن تتفتّح أعيننا على العالم الجميل حتّى تكتمل دائرة المعرفة». وقد اكتملت دائرة القرف حتّى إنّني صلّيت الفجر في وادي النّحل لأتطهّر من المعرفة.

إذَن، أصابني الجزع من تلك النهاية التي لم أتصوّرها مطلقًا لكونبا. كيف لذلك الرّجل الجبل أن ينتهي بتلك الطريقة؟! هذا ليس عدلًا.. حين كنّا نذهب للصّيد معًا في الجبل، كان يردّد دومًا: «أتمنّى أن أموت واقفًا وبندقيّتي على كتفي، وأنا أسقط سيكون لي ما يكفي من الوقت لأصيب عدوّي، وسيكون لي ما يكفي من الوقت لأبتسم!».

(17)

بين الجبال طريقُ المسافر..

جبل العنز.. جنديٌّ من جنود الربّ.. تحسبه جامدًا وهو يمرّ مَرَّ السحاب.. تجلّت فيه روح الكونبطا وقوّته وآماله الشاهقة.. ولولاه لما كان له ذِكْرٌ.. فيه نشأت حكايتنا وعظمت لتمتدّ أطرافها حتّى الغابة السوداء.

لمّا استقرّ كونبا في فرنسا، أخذَ رسالة الجرماني وسافر باتّجاه الشمال. تذكّر في الطريق لحظةَ عثوره على تلك الرسالة الّتي كتبها جرمي قبل محاولة انتحاره، يومها ضحك كونبا مُرَدّدًا «أيظنّني هتلر أو فرنسوا بالاج أو مدير البريد والبرق والهاتف؟». وقد ضحكتُ أنا أيضًا.. ولكنّ القدَر كان رابضًا فوق شجرة الصنوبر يضحك عاليًا ساخرًا منّا جميعًا.. واليوم صار كونبا البرق والبراق..

ركب سيّارته السيتروان وسافر حتّى دخل التّراب الألمانيّ عبر ستراسبورغ، ثمّ سار نحو فرايبورغ. بات ليلتَه هناك، وفي الصباح غادر إلى قرية الألمانيّ التي تقع في منطقة الغابة السّوداء، ولطالما كان جرمي يتغنّى بتلك الغابة ويتمنّى العودة إليها. كان يفتح يديه كأنّه يحدّد جهات الدّنيا الأربع، ثمّ يشير باتّجاه الشمال ويقول: «من هنا تبدأ طريق العودة إلى الغابة السوداء!».

وعندما وصل كونبا إلى المكان المرسوم على الخارطة، ركن سيّارته أمام البيت المقصود وتأمّل المكان الخلّابَ، تأمّل السّماء الصّافية والغابات الخضراء والأزهار والشرفات الملوّنة والوجوه

الجميلة ذوات العيون الزُّرْق والابتسامات العريضة والشّعر الحريريّ... «كان جرمي على حقّ!»، قال تلك الجملة وهو يتأمّل عظمة الخالق كيف صوّر وأبدع. ظلّ يتأمّل ذلك المكان الخلّاب حتّى خُيّل إليه أنّه يستمع إلى صوت جرمي وهو يضحك عاليًا، خيّل إليه أنّه يفاجئه من الخلف، يحضنه ويسقطان أرضًا، ثمّ يتدحرجان إلى أسفل كما كانا يفعلان في جبل العنز، خيّل إليه أنّهما يشربان الخمرة الألمانيّة معًا في الحدائق الجميلة ويعاكسان الشّقراوات. ولمّا أفاق من تلك التخيّلات، اجتاحَه الحنين وبكى. «كان بالإمكان أن نلتقي اليوم هنا»، قال كلامه ذاك بصوتٍ مسموعٍ، ثمّ سحب الرّسالة من جيبه. دفع باب الحديقة الحديديّ القصير والمفتوح إلى الدّاخل وسارَ في الممشى نحو البيت. فعل ذلك عندما تأكّد من اسم العائلة، ذلك اللّقب الذي نسيته ولم أكن أقدر على نطقه. أرجو أن تعذرني على ذلك، لكن في كلّ الأحوال ستجد ذلك الاسم العائلي مكتوبًا في إحدى رسائل الكونبطا.

عندما طرق الباب، أطلّ عجوزان من الشبّاك ليستطلعا الأمر أوّلًا. ثمّ فتح الرّجل الباب، وقال: «تفضّل». أمّا السيّدة فوقفت خلفَ زوجها مباشرةً. قال كونبا بلكنةٍ فرنسيّة هادئة: «أنا صديق مارك وهو الذي أعطاني هذا العنوان وهذه الرّسالة. التقينا صدفةً على أرضنا، ولمّا انتهت الحرب أراد الهروب إلى مالطة مع ماريا...». ظلّ الكونبطا واقفًا يسرد الحكاية، كأنّه يطلب من العجوز أن يصدّقه. فجأةً قاطعه العجوز الألمانيّ:

«ليست لنا علاقةٌ بما تتحدّث عنه، أنت مخطئ.. أرجوك انصرف»، قال ذلك وهو يهمّ بغلق الباب.

اندهش كونبا من إجابة العجوز، ونظر إلى المرأة الواقفة خلفَ زوجها فلاحظ أنّها أخذت في البكاء. ولمّا رأى ذلك أقسم في صدره أنّها أمّ مارك. إنّها تبكي شوقًا إلى سماع أخبار ابنها الذي مات بعيدًا عنها.

«سيّدي هذا هو العنوان الذي رسمه مارك، واسم العائلة هو نفسه كما ترى. أرجوك اسمعني سيّدي حتّى النّهاية وسأحدّثك عن تفاصيل أخرى كثيرةٍ...». قاطعه السيّد مُجَدَّدًا وهو يقول بنبرةٍ غاضبةٍ: «انصرف، نحن لا نعرفك ولا نعرف مارك الذي تتحدّث عنه». ثمّ أغلق الباب بقوّةٍ، وكانت السيّدة تذرف دموعًا وقد خنقها الشّهيق...

ظلّ كونبا واقفًا أمام الباب... نظر يمينًا ويسارًا، ثمّ تقهقر إلى الوراء. أغلق بابَ الحديقة وجلسَ على حافّة السّور يُدخّن سيجارةً. أراد العودة حين رأى السيّدة الألمانيّة تسحب الستائر وتُطِلّ، لكنّه تراجع عن ذلك. أكمل سيجارته وهو ينظر إلى السّماء الزّرقاء حينًا وإلى الأرض حينًا آخر. أخذ الرسالة، أمعن النظر فيها وقال «لا بدّ أن ينتهي كلّ شيءٍ هنا كما أراد مارك». كانت الرّسالة مكتوبةً باللّغة الألمانيّة، وهي حسب فهم كونبا مكتوبةٌ إلى أمّه وأبيه. أخذ عود ثقابٍ يشتعل ووضعه أسفل الرّسالة، فبدأت تحترق ببطءٍ. احترق اسم مارك أوّلًا من الأسفل... ثمّ ذلك الكلام الطويل... ثمّ أبي العزيز... ثمّ أمي العزيزة. وانتهى كلّ شيءٍ حتّى صارت رمادًا وتلاشت في

كفّ يده اليمنى، عندئذٍ تمتم كونبا «اليوم عادت روح مارك إلى بيتها»! ثمّ نثر رماد تلك الرّسالة في الحديقة كأنّي به يدفن صديقه هناك.

لكي يبدأ الموت، لا بدّ لدائرة الحياة أن تكتمل. واليوم اكتمل كلّ شيء...

قام الكونبطا بتلك الحركة اللّائقة تكريمًا لروح صديقه الذي لن ينساه أبدًا.

عندما امتطى كونبا سيّارته وشغّلها مقرّرًا الرّحيل، رأى السيّدة تفتح الباب وتسير وراءه في الحديقة كأنّها تودّعه. كان كلّ شيءٍ حزينًا في ذلك اليوم رغم جمال الأرض والسماء والوجوه. كان يومًا بلون الرّماد، رماد الرسائل والكلمات والأمانيّ المحطّمة... ثمّ عاد إلى مرسيليا.

أقسم لي كونبا أنّه طرق العنوان الصّحيح، لكنّ العائلة رفضت استقباله، حتّى إنّني سألت نفسي: هل كان الأبوان يشعران بالعار؟! عار ابنهما مارك الجنديّ النّازي. وتلك مسألة أخرى لن أخوض فيها، فظروف حكايتنا اقتضت أن ينتهي أمر ذلك الألمانيّ إلى الأبد، ولن يعود له ذكر إلّا في روح ماريا المالطيّة.

باحتراق تلك الرّسالة انتهت حكاية آخر جنديٍّ ألمانيٍّ على تراب أرضنا. انتهت كما شاء لها أن تنتهي.

أمّا ماريا فقد ضاعت أخبارُها خلف البحر ولم تأتِنا منها رسائل. تلك المرأة البسيطة الحالمة. تذكّرها كونبا وفكّر في البحث عنها في سيسيليا أو مالطة لكنّه تراجع عن ذلك لمّا رأى تلك الرّؤيا.

عندما بات كونبا ليلئه تلك في فرايبورغ، رأى في منامه أمرًا عجيبًا. ولمّا نهض صباحًا، أمسك رأسه بيديه وهو يردّد: «إلهي أكاد لا أصدّق!». كم هو غريبٌ أمر الحياة... الواقع يمتزج بالحلم فتكتمل الحكاية، تلك هي مشيئة القدير التي تُنْهِي الأمورَ بعنايةٍ فائقة. رأى ماريا في منامه تجري على الشاطئ وراء صبيٍّ صغيرٍ وتصيح: مارك انتظر... مارك انتظر... كانت تبدو جميلةً وسعيدةً، وكان الصّبي مارك يقفز كأرنبٍ. كان ذلك المنام شاهدًا على سعادة ماريا التي صارت أُمًّا وأنجبت ابنًا سمّته مارك.

(18)

كأنّ شيئًا لم يكن!

ثمّ ينتهي كلّ شيء... كأنّ شيئًا لم يكن... أمّا ذلك اليوم فلن أنساه أبدًا.

أقسم لك بالذي خلق الموت والحياة وبعث النّور في الكون والقلوب، أنّي ما عدتُ قادرًا على الخوض في تفاصيل ذلك اليوم. ولولا إلحاحُك من ناحيةٍ واحترامي لأصول الحكاية من ناحيةٍ أخرى لما ذكرتُ ذلك اليوم أصلًا.

وكانت تلك الرّسائل الكثيرة التي بعث بها كونبا إليّ من مرسيليا شاهدةً على نهايته. شعرت به يذبُل كنبتةٍ يومًا بعد يومٍ، نبتة أخذت تتيبّس، ثمّ تتكسّر عندما تعصف بها الرّيح.

لقد أحبّ الكونبطا أرضَنا بالفطرة البريئة، بالغريزة التي تحبّ بعنفٍ، كرضيعٍ لا يفارق ثديَ أمّه. كان يقول لي: «حلال على الدّود أن يأكل لحمي حين أموت على أرض قريتنا الطيّبة... لن أسمح أبدًا بأن ينهش جسدي دودُ ترابٍ أجنبيّ!».

طرح على نفسه أسئلةً محرجةً ومخيفة. بدأ يتآكل من الدّاخل كجدارٍ تنخُره الرّطوبة. ونبتت في نفسه وهمومٌ جعلت حياتَه بائسةً لا آمال فيها. سقط في الحفرة التي لا خروج منها، حتّى إنّه كتب لي يومًا عن حادثة جرمي لمّا حاول الانتحار في جذع شجرة الصّنوبر الكبيرة، الجذع الذي يتّجه إلى جهة الغرب. قال إنّ جرمي كان على حقٍّ، وإنّه يتفهّم ذلك الآن.

المغتربون غالبًا ما يفكّرون في الانتحار عندما ييأسون من العودة.

كتبتُ له رسالةً حاولتُ فيها بكلماتٍ بسيطةٍ أن أبعث فيه روحًا جديدةً، لكنّ الأمر لم يكن سهلًا على الإطلاق. كان ذلك السمّ الدّاخليّ قد تغلغل فيه، في أعماق النفس، في القلب، في الفكر وفي العينين فلم يعد يرى غير السّواد. انقطعت الرّسائل فجأةً وحصلَ ما كنت أخشاه، حصل الدّمار الذي كنت أنتظره، فكانت القيامة.

كنتُ شاردَ الذّهن أسيرُ في أحد شوارع مدينتنا بلا هدفٍ. كان ذلك في يومٍ خريفيٍّ مُقرفٍ مليءٍ بالعجاج الذي يُعمي العيونَ ويلوّث كلّ شيءٍ، يومٍ من أيّام شهر أكتوبر اللّعين... انتظرنا المطر للبدء في حرث الأرض، لكنَّ تلك الأمطار أبت أن تأتي، فبقينا بلا حول ولا قوّة... السّماء بعيدةٌ والأرض صلبةٌ وأرواحنا هشّةٌ. صلّينا صلاة الاستسقاء، فلم تنزل، ذبحنا ثورًا أسْوَدَ ضخمًا في ضريح الوليّ الصالح، فلم تنزل ولم تهبّ ريحها من الغرب، بل ازداد العجاج والرّيح الجافّة، جفّ الوادي الكبير وتشقّقت الأرض وصُبِغت بلون الدّمار تمامًا كوجوه النّاس، إلّا وجوه أولئك العائدين من فرنسا...

سرتُ بلا وجهةٍ محاولًا حماية وجهي من التّراب والحصى المتطاير في كلّ الأنحاء. كنتُ مشغولًا بذلك الفراغ اللّامتناهي كثقبٍ أسود، حتّى أخذني عون الأمن «سي الكافي» من ذراعي وجرّني إلى مركز الحرس الوطنيّ. جرّني بعنفٍ وسرعةٍ كما يُجَرُّ المتّهمون بارتكاب مصيبةٍ. قال لي: «لا تتكلّم... ثمّة أمرٌ مهمٌّ. وصلت البرقيّة من العاصمة... إنّهم

يسيرون به الآن إلى القرية».

سألته في دهشةٍ وخوف: «من؟!.. عمّن تتحدّث؟!».

أجاب، وهو يدفعني داخل المخفر ويمدّني بالبرقيّة كي أطّلع عليها: «صاحبك... الكونبطا».

ما إن قرأت تلك الجملةَ القصيرةَ جدًّا والمدمّرة، حتّى أصابتني رجفةٌ في كامل جسدي وَهَنَتْ لها ركبتايَ. سقطتُ أرضًا وسقطت البرقيّةُ... أجلسني العون الكافي على كرسيٍّ وناولني كأسَ ماء. ها قد حصل ما كنت دومًا أخشاه.

تكفّلت القنصليّة الوطنيّة في مرسيليا بإرساله إلى مطار العاصمة، ومن هناك حملوه إلى القصر. كرّموه بمنحه وسامَ الجمهوريّة ككلّ المناضلين المعترف بهم. الآن فقط اعْتُرِفَ به، وقالوا فيه كلامًا لائقًا! ثمّ بدأ الموكب العسكريّ يسير به إلى قريتنا.

حين صار الأمر علنيًّا، صاح الجميع وفي كلّ ركنٍ، في الجبل، في الأودية، في البيوت وفي حقول الزيتون... صاح الجميع: «الكونبطا قادم من الخارج!». أُغلِقَت المحلّات والمقاهي وشُلَّت الحركة، ثمّ هبّ الجميع إلى مدخل المدينة من جهة الطريق التي تربطنا بمدينة سوق الثلاثاء لانتظار الموكب العسكريّ القادم من العاصمة.

انتظرنا طويلًا حتّى رأينا الموكبَ يُطِلُّ من بعيدٍ... رتلٌ عسكريٌّ يتكوّن من ثلاث عرباتٍ تسير إحداها وراء الأخرى. في العربة الأولى والثالثة جنودُ حراسةٍ، وفي الثانية التي تتوسّطهما كان

الكونبطا وحيدًا... وحيدًا ينام نومتَه الأخيرة. كان التّابوت مكشوفًا وملفوفًا بعلم الوطن. وكان ذلك الوسام الجمهوريُّ ينام فوقه بالطول، ويلمع من بعيدٍ كقطعةٍ ذهبيّةٍ ثمينة.

هذا الرّجل الذي بُعِث في قريتنا يعودُ وحيدًا.

عندما دخلت العربةُ المدينةَ، سارت ببطءٍ شديدٍ في اتّجاه مقبرة «سيدي بورويس» حيث ينام ضريح الوليّ الصالح. سرنا خلفَها صامتين جامدين وشاردين. كانت صدمتُنا أقوى من الدّموع والنّحيب. كان موكبًا من الحزن والعجاج والانكسار... سرنا وسط تلك المشاعر التي لا تُوصَف حتّى وصلنا إلى الجهة الشرقيّة من المقبرة، حيث يُدْفَن أموات «أولاد بن الحاج محمد». أمر الضّابط الجنودَ بحفر القبر. وكنّا نشاهد التراب يُلقى خارجًا والحفرة تزداد عمقًا. كنّا هناك كأنّنا لم نكن... كنّا أقرب إلى المدفونين والنّائمين في القبور... وكان هو الحيّ!

عندما جهّزوا القبرَ لاستقبال الجثمان، أخذ الضّابط الوسامَ وأسلمه إلى زهرة التي كانت تحتضن ابنتها «جزائر»، وقد صارت صبيّة. كانتا تبكيان في صمتٍ. وعندما أخرجوه من الصّندوق وهو مكسوٌّ بكفنه الأبيض، سَألَنَا الضّابط عمّا إذا كنّا نريد إلقاءَ نظرة الوداع على وجهه. فرفضنا جميعًا! رفضنا، لأنّنا رسمنا للكونبطا صورةً في أذهاننا، وفي أعيننا وفي قلوبنا... صورةً لن تمحوها تلك النظرة الأخيرة، صورةً مرسومةً على كلّ شجرة صنوبرٍ، على كلّ غصن زيتونٍ... صورةً معلّقةً في صدر كلّ بيتٍ وشارعٍ ومسرب...

ولمّا شرعوا في ذرّ التّراب على جسده الطّاهر بكينا جميعًا... بكينا برجالنا ونسائنا وأطفالنا... بكينا ونحن نسأل: لماذا ينتهي الكونبطا هذه النهاية؟! لماذا يُحْرَم من تراب أرضه ولا يعود إليه إلّا ميّتًا؟! أسد الجبال الذي طعنّاه في الظّهر! بعضنا ظلّ ينوح، ويضرب على ركبتيه ويردّد: «لماذا؟!»، يردّدها بصوت عالٍ وهو لا ينتظر إجابةً من أحد.

فجأةً خفّت الرّيح، وهدأ العجاج، وتكوّنت سحابةٌ داكنةٌ أطّلت من خلف جبل العنز من جهة الغرب، ثمّ نزلت أمطار الخريف الأولى خيوطًا من السّماء متناسقةً ومسترسلة، فبلّلت كلّ شيء، بلّلت الأشجار والتّراب وأجسادنا. غادرنا المقبرة بأرجلٍ ثقيلة من الوحل. سرنا كجنودٍ مهزومين خسروا قائدًا أو قلعةً أو معركةً حاسمة. نزل الظّلام، وعمّ الحزنُ الأرضَ والسّماءَ والبشرَ والشّجرَ والحجر...

أثناء عودتنا الكئيبة كاد بعضنا يسأل: هل مات الكونبطا حقًّا؟! ثمّ ينظر وراءه إلى المقبرة ليتأكّد أنّه ينام فعلًا هناك ولن يظهرمجدّدًا إلى الأبد، لن ينهض الكونبطا بعد اليوم، لقد نام نومتَه الأخيرة وانتهى لكنّ حكايته نهضت في خيال النّاس. فبدؤوا يتوافدون على زيارة قبره من كلّ جهات الأرض. توافدوا أيّامًا وأسابيع، وبدأت الجماعات تروي قصّته حتّى عادت كالأساطير القديمة!

كلّ واحدٍ رواها بشكلٍ مختلفٍ، حتّى إنّني عندما استمعت إلى بعضها سألت نفسي عمّا إذا كان هذا هو فعلًا الكونبطا رفيقي وابن عمّي الذي أعرفه جيّدًا!

بعد أيّامٍ معدوداتٍ، كنت أزور القبر وأعتني به، فإذا بي أرى العمدة منصور يأتي مع جماعةٍ من دار الحزب. نعم، أولئك السّفهاء الذين كتبوا فيه تقارير سرّيّةً جعلت الحكومة المركزيّة تقرّر اعتقاله وسجنه.

لمّا وصلوا إلى القبر، وضعوا رخامةً زيّنوه بها كُتِبَ عليها: «المناضل إبراهيم بن الحاج محمّد، ولد في سنة كذا وتوفّي في سنة كذا..». كنت أتآكلُ في الداخل وأنا أرى النفاق والزيف والكذب والرياء يطاردون الكونبطا إلى القبر. رفعت رأسي في وجوههم التي بدت لي كغربانٍ تنهش جثّةَ أسدٍ مغدور، وبدأت ألعنهم وأنعتهم بالسّفهاء والسّماسرة والعملاء والمجرمين والمنافقين والمقمّلين وكلامٍ آخر مقرفٍ يليق بهم تمامًا. ثمّ أخذت تلك الرّخامة ورفعتها عاليا، وألقيتها على الأرض.

عندما رأوا ما فعلته وسمعوا ما قلته تركوني وحيدًا، ورحلوا إلى الأبد... ولم أرهم هناك بعد ذلك اليوم.

ولمّا جفّ القبر بنيتُه بحجر الصّوان، ووضعت رخامةً على طوله نقشتُ عليها بالخطّ العربيّ الغليظ تلك الجملة الجارحة الّتي كتبها لي في رسالته الأخيرة. أمّا تاريخ ميلاده وتاريخ موته وتلك التّفاصيل التّافهة الأخرى فهي لا تعنينا بتاتًا. العظماء أقوى من الزمن!

غادر صاحبنا الحياةَ إثر جلطةٍ دماغيّةٍ عنيفةٍ أقعدته أشهرًا عديدةً في سرير الميؤوس منهم. أخبرتني زهرة بأنّه فَقَدَ الذاكرة في أيّامه الأخيرة

ولم يعد يعقل شيئًا. كأنّي به تخلّص من ذلك الماضي الثقيل بخيره وشرّه. أمّا تلك النفوس المريضة التي قالت إنّ الكونبطا دمَّر اسمَه النضاليّ بلجوئه إلى فرنسا وانسلخت عنه بالتَّبَعِ معاني البطولة والشجاعة والوطنيّة... فقولهم ذاك لا يعنيني بتاتًا لأنّني مشغولٌ بسؤالٍ أكثر أهمّيّةً بعد أن انتهت حكايتنا، مشغولٌ بالسؤال الذي سوف يبقى دائمًا وأبدًا معلّقًا في كلّ ركنٍ من هذه الأرض:

مَن قتل الكونبطا؟! مَن قتل إبراهيم بن الحاج محمّد؟! من قتل أسدَ جبل العنز؟!

هل قتل نفسه؟! أم قتلته فرنسا؟! أم قتلته الحكومة؟! أم قتلناه نحن؟!

أنا أعرف الإجابة... وأنتَ أيضًا.

لكن دع الأمر في سرّك... كن أنتَ دائمًا على يقينٍ وليكن العالم في حيرةٍ!

السّلام عليكم.

بعد وفاة جدّي قسّم الورثةُ ما تركه من أرضٍ وحقولٍ ومَوَاشٍ وأموالٍ. هبّوا إلى بيته القديم كغزاةٍ يتناحرون من أجل الغنائم! أمّا أنا فتحصّلت على ذلك الصندوق الخشبيّ المدهون باللّون الأزرق السّماويّ، الصندوق الذي كان في نظرهم بلا قيمةٍ، الصّندوق المملوء كتبًا وأوراقًا وأقلامًا.

تجوّلتُ في الحقول والمزارع حتّى بلغتُ هضبةَ الإكليل، فخُيّل إليّ أنّ الأرواح ترقص فوق أغصان شجر التين والزيتون، روح جدّي، وروح الكونبطا وعمّي عبد الله وحماره وروح ذلك المزارع البربريّ

الذي شارك في حملة حنّبعل على روما. انتابني شعورٌ بالسعادة حتّى إنّني رددت بصوت عالٍ: «كيف لهذه الأرواح أن تموت؟...».

غادرت القرية وأنا أقول في قرارة نفسي: «الحلم بالاستقلال كان أقوى وأجمل من الاستقلال نفسه»، ولمّا وصلت إلى المدينة، اتّجهتُ إلى محطّة القطار ونظرتُ إلى تلك الساعة النحاسيّة ذات العقارب الرومانيّة. كنت أحاول عبثًا البحثَ عن زمنٍ آخر ألتجئ إليه. لقد أكلها الصّدأ، وكانت تُشير إلى السّاعة السّادسة والنصف كما تركتها منذ سنواتٍ. تعطّلت تقريبًا ككلّ شيءٍ آخر في هذه البقعة من الأرض. حتّى القطار الذي كان يخرق أرضنا و يقطع الجزائر كلّها ليبلغ المغرب مرض وأصابه الوهن. لم يعد يصل حتّى إلى مدينة الكاف بعد أن سقطت الجسور ودُمِّرَتْ سكّته الحديديّة التي كانت تجرح الأرض والمشاعر. صار غالبًا ما يخرج عن سكّته كأعمى حتّى هجره المسافرون. أمّا أولئك السذّج فمازالوا كعادتهم هناك، مرميّين على الأرض كأحجار سكّة الحديد السّوداء اللّون.

في مساء ذلك اليوم عندما فتحت صندوقي الجديدَ، وجدتُ رسائلَ الكونبطا كلَّها، وصورَه أيضًا. كانت ملفوفة بخيطٍ أزرقَ رقيقٍ من خيوط النسّاجين. نزعتُه بهدوء وبحثتُ عن الرسالة الأخيرة إلى جدّي، ولمّا وجدتُها، فتحتُ الظرف وبدأتُ أقرأ:

شقيقي في التّراب الطّاهر،

كنتَ تسألني: ما الوطن؟ الوطن الذي أحبّه وناضلتُ من أجله، ونُفِيتُ وسُجِنت وحُمِلتُ من أجله

إلى المشنقة، وكان الموت كلَّ مرّةٍ أقربَ إليّ من أرنبة أنفي... كنتَ تسألني ما الوطن؟ وكنتُ أصمتُ... و أشعر بالعجز لأنّني لم أكن أجد إجابةً لسؤالك، وكلّما خلوتُ بنفسي أحاول البحث عن إجاباتٍ، لكنّني لم أفلح، وكان ذلك يؤلمني كثيرًا... اليوم، وبعد أن قطعت البحرَ وبدأت النظر إليه من بعيدٍ، عرفت ما الوطن. وأنا سعيدٌ بذلك... «الوطن هو رائحة التّراب في يوم الحرث».

---

(1) حديقة المتوسّط أو الحديقة المتوسّطيّة نسبةً إلى البحر الأبيض المتوسّط.

(2)مكتبة المتوسّط أو المكتبة المتوسّطيّة نسبةً إلى البحر الأبيض المتوسّط.